« سهر الليل » ليلاس
www.liilas.com

احسان عبد القدوس

الحياة فوق الضباب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

« سهر الليل » ليلاس
www.liilas.com

(١)

إنه رغم العمر الطويل لا ينسى يوما واحداً من أيام عشرته لصديقه كمال يحيى الروزنامجى .. صداقة بدأت منذ أوائل الأربعينات وأصبحت هى المؤثر الأكبر فى كل حياته وفى كل ما يطرأ على فكره .. وربما لا تزال هى الأقوى فى التأثير عليه حتى اليوم ..

وابتسم ابتسامة تنبض بالسعادة كأنه يهنئ بها نفسه على ما وصل إليه بهذه الصداقة .. وتنبض ابتسامته بالعجب عما جرى له خلال كل هذه السنوات حتى وصل إلى ما وصل إليه ..

لقد التقى بكمال لأول مرة فى الإسكندرية على شاطئ ميامى فى حى سيدى بشر .. وكان هذا الشاطئ يعتبر أيامها خاصا بأولاد الذوات .. أولاد الطبقة الغنية التى تحكم مصر وتملك كل أرضها .. وهو نفسه لم يكن من أولاد الذوات ولا ينتسب من قريب ولا من بعيد إلى هذه الطبقة .. ولكن كان من هواياته منذ صباه أن يعايش كل طبقات المجتمع المصرى ويدخل فيها بدافع الفرجة عليها .. كيف يعيش أولاد الأغنياء وكيف يعيش أولاد الفقراء .. وكيف يتكلمون .. وماذا يأكلون .. وماذا يحبون ويكرهون .. وكان يعتمد فى فتح مجالات الفرجة على كل نواحى المجتمع على زملائه من طلبة المدرسة .. إنها مدرسة تجمع بحكم موقع الحى الذى تقع فيه بين أبناء كل الطبقات .. وكان بين زملائه ليس متحيزاً لطبقة دون طبقة .. ربما لأنه هو نفسه من عائلة متواضعة تعتبر من النصف الأسفل للطبقة المتوسطة ..

فلا يعتبر غنيا ولا يعتبر فقيرا .. ولذلك فمن السهل عليه أن يعاشر الأغنياء والفقراء .. يعاشرهم دون هدف استغلال .. أى لا يحاول استغلال معاشرته للأغنياء أو معاشرته للفقراء .. إنما هو يتفرج .. ويحس وهو يتفرج بأنه يقرأ كتابا يزوده بمعلومات جديدة .. وقد كان منذ صباه يهوى قراءة الكتب .. ويسرف فى تحقيق هواياته إلى حد أنه تعود أن يسرق الكتب من أى مكان تصل إليها يداه .. إن سرقة الكتب لقراءتها لا تعتبر جريمة يحرمها الله .. ما دام لا يسرقها لبيعها .. بل أنه كان يحاول دائما إعادة الكتاب إلى صاحبه الذى سرقه منه بعد أن ينتهى من قراءته ..

ولكن كمال الروزنامجى لم يكن زميلا له فى مدرسة .. ولم يكن يعرفه أو يسمع عنه .. إلى أن التقى به على شاطئ ميامى .. وإن كان قد تعمد الوصول إلى هذا الشاطئ بدافع هواية الفرجة على أولاد الأغنياء بعد أن سمع عنه كثيرا بل وقرأ عنه — عن هذا الشاطئ — فى الصحف .. وكان فى هذا العام قد حصل على الشهادة التوجيهية .. التى كانت نهاية المرحلة الثانوية .. وأراد والده أن يكافئه على هذا النجاح مكافأة كبيرة رغم أنه كان قد تعود منه أن ينجح فى كل الامتحانات بتفوق .. إن الامتحان الدراسى بالنسبة له ليس أكثر من تذكّر بعض ما قرأه .. وقراءته للكتب المدرسية لا تختلف فى استيعابه لها عن قراءة الكتب التى يشتريها أو يسرقها .. الكتب التى تجمع القصص أو التى تسرد التاريخ والتى كان يهوى قراءتها .. إنه يتذكر الإجابة على أى سؤال يقدم له فى الامتحان تذكره لمغامرات أرسين لوبين التى قرأها فى الكتب التى تجمعها ..

وقد كان والده كريما فى مكافأته فأعطاه خمسة جنيهات .. وفكر كيف يستغل هذا المبلغ وقرر بسرعة أن يستغله فى قضاء أجازته بالإسكندرية ..

وعلى شاطئ ميامى بالذات الذى سمع وقرأ عنه حتى يتفرج على حياة أولاد الذوات وكيف يقضون الصيف .. ولكن الخمسة جنيهات وإن كانت مبلغا كبيرا محترما بالنسبة له إلا أنها لا تعتبر شيئا بالنسبة لحياة الطبقة الغنية .. ربما كان الواحد من أفراد هذه الطبقة يصرف الخمسة جنيهات وأكثر منها فى يوم واحد أو فى جلسة واحدة .. ولكنه اعتمد على ذكائه الطبيعى الذى لا يفتعله .. إن له زميلا فى المدرسة من أبناء الأسكندرية وإن كانت العائلة تقيم فى القاهرة ووالده يعمل فيها .. وقد قال له زميله إن شبان العائلة وأصدقاءهم أقاموا لأنفسهم عشة خشبية فى صحراء تقع خلف شاطئ سيدى بشر ينفردون فيها بأنفسهم يعيشون أياما حرة إلى آخر منتهى الحرية .. وقد وصل مع زميله إلى أن دعاه إلى قضاء أجازته فى هذه العشة بعد أن علم أنه مسافر وحده إلى الأسكندرية وحائر كم تكلفة الإقامة فيها ولو لبضعة أيام ..

وسافر منير غانم إلى الإسكندرية بعد أن وافق والده بمضاضة فلم يكن مرتاحا أن يترك الحرية لأبنه إلى هذا الحد .. وودعته أمه وأخواته البنات بالدموع .. فلم يكن من عادة العائلة أن تترك بيتها حتى ولو لقضاء أجازة صيف ولم تكن تملك ما يكفى ولو لمجرد تخيل مثل هذه الأجازة .. إنه أول فرد فى العائلة يسافر لمجرد الفسحة وقضاء أجازة الصيف .. وحرصت أمه على أن تملأ حقيبته بأطعمة قد تكفيه أسبوعا أو أكثر .. إنها تخاف عليه ولا تطمئن إلا إذا كانت هى نفسها المسئولة عن كل ما يحتاجه حتى عما يأكله وهى تريد أن تحس بمسئوليتها عنه حتى وهو بعيد عنها ..

وبدأ منير يرتب حياته فى العشة الخشبية التى سيقيم فيها .. إنه يستطيع أن يعتمد على نفسه فى كل ما يحتاجه .. وقد تعود وهو مع أمه وأخواته أن

يتعلم كل ما تفرضه مطالب الحياة حتى لا يثقل عليهن بكل مطالبه .. حتى إنه تعلم كيف يطبخ الطعام وإن كان لا يجيد إلا إعداد صينية البطاطس .. بل وتعلم أيضاً الحياكة .. إنه يستطيع أن يعيد حياكة الزرار الذى يسقط من جلبابه أو قميصه .. ويستطيع أن يرتق أى تمزق فى ثيابه .. ويستطيع ببساطة أن يغسل ويكوى هذه الثياب .. وقد وضع لنفسه ميزانية ثابتة ينفق على أساسها هذه الجنيهات الخمسة .. كل يوم ينفق فيه قرشين ونصف .. أى خمسة قروش تعريفه .. وفى كل أسبوع له ليلة يصاحب أصدقاءه فى السهر وينفق من الميزانية عشرين قرشا .. إن هذه الميزانية تكفيه أن يعيش فى الإسكندرية شهرا كاملا بخمسة جنيهات .. إلا إذا حدث ما لم يحسب حسابه ..

وأخذ فى كل صباح ينتهى من إعداد مطالبه فى العشة فى وقت مبكر ثم يذهب إلى شاطئ ميامى وهو يرتدى المايوه . إن المايوه هو الذى يزيل الفوارق بين الطبقات .. كل الناس يرتدون زيا واحدا على الشاطئ يرتدون المايوه .. كأنهم كلهم يعيشون مجتمعا واحدا وطبقة واحدة .. وطبعا لا يفكر واحد منهم فى الاقتراب من الآخر ليتحسس القماش الذى صنع به المايوه الذى يرتديه حتى يعرف إذا كان يرتدى الغالى أم الرخيص .. وهل هو من طبقة الأغنياء أو من الطبقة المتواضعة التى لا تملك ثمن المايوه الغالى ..

وقد عرف من اليوم الأول أنه لكى يدخل إلى شاطئ ميامى يجب أن يدفع للحرس الواقف عند المدخل الثلاثة قروش صاغ .. إلا إذا كان صاحب كابين على الشاطئ فيدخل مجانا .. إنها إجراءات وضعت لحماية أولاد الذوات من زحف أولاد الشعب من الطبقة الفقيرة عليهم حتى لا يستولون على متعتهم ويحرمونهم من الانفراد بالشاطئ ويعكرون هدوءهم وحريتهم ..

حرية صاحب الملك .. صاحب رأس المال ..

ومنير لم يحسب حساب هذه القروش الثلاثة وهو يضع ميزانية العشة التى يقيم فيها .. فبدأ يتحايل واكتشف طريقا للوصول إلى شاطئ ميامى دون أن يمر بالمدخل .. إنه يقفز فوق الصخور التى تقوم بجانب الشاطئ ثم يسبح مسافة صغيرة إلى أن يجد نفسه فى ميامى .. وقد استمر أياما يتبع هذا الطريق إلى أن تعود حراس المدخل على رؤيته بين رواد الشاطئ وكل منهم يظن أنه دخل عن طريق حارس آخر وأنه لا شك صاحب كابين بمظهر نشاطه بين رواد الشاطئ .. لذلك أصبح يدخل حتى من المدخل دون أن يدفع شيئاً ومع تحية الحراس .. وإن كان مهددا دائما بأن يكشف سره أحد الحراس .. إلى هذا الحد كان مستوى الحياة أيامها .. إلى حد التحايل هربا من دفع ثلاثة قروش فقط ..

وقد التقى على شاطئ ميامى ببعض زملاء الدراسة ممن يعرفهم .. وهؤلاء الزملاء عرفوه بأصدقاء كثيرين .. وكلهم من أولاد الذوات .. ولم يكن كمال الروزنامجى يثير انتباهه بين شبان الشاطئ أو يهتم بمعرفته والسؤال عنه .. ولكن كان أول من أثار انتباهه من عائلة الروزنامجى هى أخته دلبر ..

كان من عادته أن يذهب إلى الشاطئ مبكرا .. ولمح فى صباح أحد الأيام والشاطئ لم يزدحم بعد برواده فتاه تخرج من أحد كبائن الشاطئ وهى تضع « برنسا » طويلا فوق المايوه الذى تخفيه تحته .. وتتجه إلى شاطئ البحر تتبعها امرأة عجوز غامقة السمار سمينة مرهلة الجسد .. لا شك أنها « الدادة » أو مربيتها المسئولة عنها .. وتدخل الفتاة بقدميها فى مياه البحر والمربية تتبعها إلى أن تقارب مياه البحر البرنس الذى تلبسه فتتقدم المربية من خلفها فترفع عنها البرنس الطويل وتتركها تغوص فورا فى مياه البحر وهى

بالمايوه

ووجد منير نفسه ينجذب انجذابا عنيفا إلى هذه الفتاة .. ليس مجرد انجذاب الفرجة الذى تعود أن يشده للفرجة على كل البنات .. إنه انجذاب ينبض بالدهشة .. كأنه فوجئ برؤية كان ينتظرها منذ زمن طويل دون أن يدرى أنه فى انتظارها .. كأنه لم يكن يدرى أن هذا هو ذوقه فى تقدير الجمال .. وأن هذا هو الأمل الذى يمكن أن يبحث عنه .. إنه منذ النظرة الأولى أحس بجمالها .. ولكنه ليس هذا الجمال الزاعق الذى يشد كل العيون .. إنه جمال هادئ تقاطيعه مرتبة كأن كل خط فيها رسمه فنان ليناسب الخط الآخر .. أنفها يناسب عينيها وشفتيها .. وعيناها الملونتان اللتان لم يلمح فيهما اللون الأسود من اللون الأخضر أو الأزرق وضعتا بحيث تناسبان جبينهـا الواسع كأنه يتسع لاستيعاب كل ما توحيه الحياة .. وهى بيضاء .. ولكن ليس هذا البياض الصارخ كبياض نور الشمس ولكنه بياض هادئ كبياض وردة أصيلة كريمة تترك للون أوراقها الخضر أن ينعكس عليها .. وشعرها ليس أشقر صارخا وليس غامق السواد كالليل الـذى لا ترى فيه شيئا إنه كعينيها تعيش فيه كل الألوان كأنه لم يعد هنالك لون ينقصها فيه ..

ووقف منير بعيدا وعيناه متعلقتان برأسها الذى يعود فوق الماء .. إنها تسبح وذراعاها تحت الماء .. ثم بعد فترة وجدها تدير رأسها ناحية المرأة التى تنتظرها على الشاطئ .. وبلا أدنى كلمة أو إشارة قامت المرأة وغاصت بقدميها فى مياه البحر وألبست الفتاة البرنس فخرجت به إلى الشاطىء ثم سارت إلى الكابين فى خطوات سريعة رشيقة .. ومنير يتتبعها وكأن عينيه تشهقان .. إلى أن اختفت داخل الكابين .. وعلت شفتى منير ابتسامة

كأنه يتعجب من انجذابه كل هذا الانجذاب إلى هذه الفتاة .. ويحاول أن يقتنع نفسه بأنه ملحوس .. إنها لا شك من أرق مستويات طبقة ميامى .. وهو يستطيع دائما أن يصادق شبان هذه الطبقة ولكنه لا يعتقد أنه يستطيع أن يصل إلى بنت من بناتها .. وهو لم يحاول أبدا مع بنات هذه الطبقة بل إن هوايته الفرجة لم تصل به إلى محاولة الفرجة على حياة هاتيك البنات .. ولم تجذبه منهن إلا هذه الفتاة .. ويبدو أنها تعيش كل تقاليد طبقتها وتترفع حتى عن أن تصل عيون الناس إليها إلا فى الحدود التى تسمح لهم بشرف رؤيتها .. إنه لم ير ساقيها ولا خصرها ولا نهديها ولا حتى ذراعيها من شدة حرص الدادة التى تتبعها على تغطيتها بالبرنس حين تغوص فى الماء وقبل أن تخرج منه ..

وظلت صورة هذه الفتاة تحتل كل خيال منير .. بل إنه وجد نفسه يتغير منذ التقت عيناه بها فأصبح يعيش فى خياله حتى وهو مع أصدقائه رغم ما هو معروف عنه بينهم من مرح الشخصية وانطلاق لسانه فى كل الموضوعات .. وفى اليوم التالى تعمد أن يذهب إلى الشاطئ وكأنه على موعد معها .. وعندما غاصت فى الماء لم يكتف بالوقوف على الشاطئ ليتفرج عليها من بعيد .. وإنما ألقى بنفسه فى البحر وراءها .. وبقى بعيدا عنها ولكنه سعيد بإحساسه أنه معها .. وقد أصبح ينزل معها إلى مياه البحر كل صباح .. ويبقى دائما بعيداً .. ولكنه بدأ يلاحظ لمحات من عينيها تلتقى بعينيه .. ولا يدرى هل هى لمحات صدفة عابرة أم لمحات مقصودة .. لماذا لا يكون قد جذبها كما جذبته .. إنه يعلم عن نفسه أنه وسيم الوجه رشيق القوام وأخواته البنات تعود أن يقلن له إن بنات الحى كلهن يذبن فيه وكل منهن تتمناه لنفسها .. ولم يكن يهتم بما يقلنه فلم يكن يهتم بالبنات ولا يحس

بحاجته إليهن حتى بعد أن كبر وأصبح فى الثامنة عشرة من عمره .. وهذه أول فتاة يحس بها ويتذكر وسامته ورشاقته على أمل أن يجذبها .. لماذا لا يكون قد جذبها بمجرد لقاء الصدفة وتبادل النظرات من بعيد .. ولا يهم شكله .. إنها هى نفسها ليست أجمل فتاة رآها .. ثم إنها لا شك لا تعرف بعد شيئا عن أصله وفصله وعن الطبقة التى ينتمى إليها .. إنها لا تراه إلا وهو بالمايوه .. والمايوه يخفى الأصل والفصل ويوحد بين طبقات الناس ..

وفى هذه الأيام كان يستدرج أصدقاءه ليعرف كل شىء عنها وهو حريص على ألا يبدو أنه يتعمد الاهتمام بها .. كان ينتهز المناسبات كأن تمر بهم من بعيد فيثير الحديث عنها .. وعرف أن اسمها دلبر .. ابنة يحيى باشا الروزنامجى .. وهو من أغنى الأغنياء ويملك مئات الأفدنة بالقرب من قليوب .. وعضو بارز فى حزب الوفد ودخل الوزارة الوفدية عدة مرات رغم أنه لم يعرف كشخصية شعبية وليس له مواقف وطنية خاصة .. إن حزب الوفد كان يضم بين قادته وأعضائه شخصيات ليس لها قيمة إلا أنها شخصيات غنية تملك الأرض .. وليس المهم أبوها إنما الأهم هى أمها .. إنها من عائلة محمد على .. عائلة الملك .. وهى سيدة محافظة حريصة على التمسك بكل مظاهر وتقاليد الأتراك .. ثم الأهم من أبيها وأمها هو أخوها كمال يحيى الروزنامجى .. إن أصدقاء منير يتحدثون عنه بحماس وإعجاب شديد .. وهم يقولون عنه إنه متفرغ تفرغا كاملا لتثقيف نفسه .. لقد قرأ أضعاف ما قرأوه جميعا .. وتخصص فى القراءات السياسية .. إنه فى نظرهم عالم من علماء السياسة وتعودوا أن يجلسوا إليه كأستاذ لهم .. يعلمهم ما لا يعلمون .. وهو كما كان منير يسمع عنه أكبر منه بعام أو عامين وقد حصل على الشهادة الثانوية منذ عامين ومن مدرسة الجيزويت .. أى تعلم

الفرنسية .. ولكنه لم يدخل الجامعة بعد ذلك .. إن أولاد قمة الطبقة الراقية يترفعون عن دخول الجامعة المصرية وإما أن يسافروا إلى الخارج للالتحاق بجامعة أوربية أو يعتمدون على تعليم أنفسهم بأنفسهم إذا أرادوا العلم ..

وقد أراد منير أن يتعرف بكمال الروزنامجى ليتفرج عليه كما هى عادته .. ثم بعد أن رأى أخته أصبح يتمنى أكثر أن يعرفه .. ولكن لم تسنح فرصة تجمعهما .. وهو لا يريد أن يبدو كأنه يسعى إلى معرفته .. وقد كانت هذه هى عادته فى التعرف بأبناء هذه الطبقة .. ألا يسعى إليهم حتى لا يظنوا أنه مبهور بهم أو طامع فى الإحسان عليه بالوقوف أمامهم أو التمتع بمظاهر مجتمعهم .. ثم إن كمال لا ينتقل من كابين العائلة . إنه يجلس فيها طوال اليوم مسترخيا على مقعد مريح دون أن يقوم ليتمشى على الشاطئ أو يسبح فى مياه البحر ولو كمجرد رياضة .. وربما لهذا فهو سمين .. وقوامه منتفخ يشوه قوامه وشبابه .. وكان يجلس طول اليوم فى الكابين أو تحت الشمسية من شماسى الشاطئ ويلتف أصدقاؤه حوله فى حديث لا ينتهى .. وعادة ما يستمر الحديث حتى يحين موعد الغداء فيتقدم الخدم وهم مرتدون أزياء الخدمة الرسمية ورئيسهم يرتدى بدلة كأنها بدلة سموكنج مما يلبسها أولاد الذوات فى الحفلات .. ثم يعدون مائدة فخمة زاهية وألوان متعددة من أصناف الأطعمة الراقية .. كأن الشاطئ قد انقلب إلى قصر من قصور الروزنامجى ..

ولم تسنح الفرصة لينضم منير إلى شلة كمال دون أن يتعمد السعى إليه .. إلى أن ذهب يوما فى الصباح الباكر لينتظر رؤية دلبر من بعيد كما تعود منذ أيام .. ولكن دلبر لم تأت رغم طول انتظاره .. فقام يسير أمام كابين العائلة لعله يستطيع أن يلمحها .. وقد رأى أخاها كمال من بعيد وهو جالس خارج الكابين .. وكان وحده فالوقت لا يزال مبكرا حتى تجتمع الشلة ..

وكان ينوى أن يمر أمامه بسرعة ويلقى لمحة خاطفة داخل الكابين بحثا عن دلبر .. ولكنه ما كاد يضع خطوته أمام الكابين حتى سمع صوت كمال كأنه يناديه :

ـــ أهلا وسهلا .. تفضل ..

وتوقف منير وهو دهش والتفت إلى كمال كأنه يسأله .. هل يناديه هو .. ووقف كمال أمامه وهو يمد يده مكررا :

ـــ تفضل يا أستاذ منير ..

ودهش منير وهو يصافح اليد التى مدت له .. إنه يعرف اسمه .. وقال من خلال دهشته :

ـــ صباح الخير أستاذ كمال .. تشرفت ..

وقال كمال وهو يلقى جسده السمين على المقعد المريح وعلى شفتيه ابتسامة مرحبة :

ـــ إن أصدقاءنا حدثونى عنك كثيرا .. حتى أصبحت أعرفك دون أن نلتقى ..

وقال منير وهو يحلق فى وجه كمال :

ـــ إنى أعرفك من قبل أن يحدثنى عنك الأصدقاء فأنت شخصية معروفة ..

وأحس بالراحة وهو يحلق فى وجه كمال .. إنه وجه ليس فيه لمحة مفتعلة كوجوه أولاد الذوات الذين يفتعلون التعالى والجدية مع الغرباء .. إن كل ما على وجهه يبدو مرحبا فعلا به ترحيبا طبيعيا كأن لا فرق بينهما .. لا فرق بين الطبقتين .. وابتسامته تبدو صادقة فى الترحيب به وليست مجرد ابتسامة مجاملة .. وهو أكثر بياضا فى لون بشرته من أخته دلبر .. لعله أخذ

من لون أمه أكثر مما أخذ من لون أبيه ..

وقال كمال من خلال ابتسامته المريحة :

ـــ لقد قال لى الأصدقاء إنك من هواة القراءة .. وأنا أيضا من هواة القراءة ..

وقال منير ضاحكا :

ـــ إنى لا أحب قزقزة اللب .. فأقزقز السطور المكتوبة بدلا من قزقزة اللب .. هذا هو كل شىء ..

وقال كمال وهو يشاركه ضحكته :

ـــ وهل تهوى قزقزة اللب الأبيض أم اللب الأسمر .. أى ماذا تقرأ ؟

وقال منير بلا اهتمام :

ـــ لا يهمنى أن أختار ما أقرأه .. فإنى أبدأ بقراءة أى سطور وإما أن أعيش فيها إلى أن أنهيها وإما أن ألقى بها بعيدا بعد سطرين أو ثلاثة .. إنى أحس وأنا أقرأ كأنى أتفرج .. وهناك ما يشدنى إلى الفرجة وما يصرفنى عنها .. وأنا حر .. ولكن الواقع أنى أميل إلى الفرجة بقراءة القصص والكتب التاريخية ..

وقال كمال بصوته الطبيعى العادى الذى لا تَكبُّر فيه يعبر عن إحساسه بطبقته :

ـــ لقد كنت مثلك وأنا شاب .. كنت أهوى قراءة القصص وكتب التاريخ .. ولكنى اكتشفت أن القصص تمتعنى بخيالى والتاريخ يشدنى إلى الماضى .. فى حين أنى أبحث عن الواقع وأريد أن أعيش فيه .. ووجدت الكتب التى تربطنى بالواقع فتعلقت بها وأدمنتها ..

وقال منير كأنه يصحح له :

— إنك لا تزال فى عز شبابك ..

وقال كمال فى جدية :

— إن العمر يقاس بما يملأ فكرك من معرفه .. وإنى أحيانا من كثرة ما عرفت يخيل إلى أنى اجتزت عمر الشباب ..

وقال منير كأنه يتباهى بأنه يعرف عنه كل شىء :

— إنى أعرف عنك أنك تخصصت فى الدراسات السياسية ..

وقال كمال ساخرا :

— لا أحب أن أسميها سياسة .. إن الدراسات التى تقصدها هى دراسة الواقع .. وهناك واقع عام .. وواقع طبقى .. وواقع شخصى .. والفكر فى حاجة إلى دراسة وفهم كل هذا الواقع حتى يصبح فكرا سياسيا يخطط سياسة التعامل مع هذا الواقع ..

وقال منير وهو مبهور :

— لم أصل بفكرى إلى هذا الحد من الفهم ..

وقال كمال مبتسما دون أن تبدو فى كلامه لهجة الأستاذ :

— أى كلية ستلتحق بها بعد أن حصلت على التوجيهية كما عرفت ؟

وقال منير فى بساطه :

— لقد كنت فى قسم أدبى وقد اخترت أن التحق بكلية الحقوق .. (وضحك قائلا) .. ليس معنى هذا أنى أريد أن أكون وزيرا كما يقولون إن كل الوزراء من خريجى الحقوق ..

وقال كمال وهو يلوى شفتيه كأنه يستهين بما يقال :

— لقد كان أبى وزيرا كما لا شك قد سمعت عنه .. ورغم ذلك لم يكن من خريجى الحقوق .. ولا من خريجى أى كلية .. إنه وزير بحكم الطبقة التى

ينتمى إليها .. الطبقات هى التى يقوم عليها تنظيم الحكم .. والأحزاب التى تتبادل الحكم تختلف بنسبة تمثيلها لكل طبقة .. ولا يقوم أى حزب منها على مذهب أو على علم ولا حتى على خطة .. إنها مجرد تنظيمات للطبقات التى تعيش فى مصر .. ودراستك فى كلية الحقوق ستكفل لك دراسة هذا الواقع ولكن لا تكتفى بدراسة ما يقدمونه لك فى الكلية ليمتحنوك فيه .. إن الواقع أوسع بكثير مما تجمعه كتب الجامعة ..

وقال منير فى دهشة بعد أن سمع كمال يقول عن أبيه هذا الكلام :

— إنى سمعت أنك وفدى .. أى تنتمى إلى حزب من الأحزاب التى تقول إنها لا تمثل مبادىء ولا مذاهب بل تمثل طبقات .. كأنك أنت أيضا مستسلم للواقع الطبقى ..

وضحك كمال قائلا :

— إن الناس تقول عنى إنى وفدى لأنى من أب وفدى .. تماما كما يقولون عنى إنى مسلم لأنى من أب مسلم .. وأنا لم أقرر أن أكون وفديا ولا حتى مسلما .. ولكنى أنسب إلى والدى كما ينسب إليه اسمى الذى اختاره لى دون أن يكون لى دخل فى اختياره .. وكأن هذا الاسم الذى اختاره والدى هو .. كمال يحيى الروزنامجى الوفدى المسلم .. ومن حقى أن أرفض ما اختاره والدى لى .. وأن أكون حرا فى اختيارى وفقا لاقتناعى .. ألا أكون وفديا إلا إذا اقتنعت بحزب الوفد .. ولا أكون مسلما إلا إذا اقتنعت بالإسلام ؟ اقتناع شخصى ينطلق من عقليتى أنا لا اقتناع مفروض على بحكم الوراثة .. بل إنى لست مقتنعا حتى باسم العائلة .. الروزنامجى .. إنه اسم يعبر عن أيام الأتراك .. وأنا أبعد عن الأتراك من أبى .. إنى ولدت فى واقع يختلف عن الوقائع الذى ولد فيه أبى .. والواقع هو الذى يحدد الشخصية والصفة ..

والاسم هو الذى يرمز إلى هذه الشخصية والصفة .. فلماذا لا أسمى نفسى عوضين بدلا من الروزنامجى .. ما دام واقعى هو واقع فلاح مصرى يزرع فى أرض مصر وليس واقعا تركيا فرض نفسه على حكم مصر كما كان واقع أبى وجدى وجد جدى الذين كان يعبر عنهم باسم الروزنامجى ..

وأحس منير كأن كمال رفعه بكلامه وقذف به وسط سحب داكنة سوداء لا يرى من خلالها شيئا .. إنه حائر تائه فى كل كلمة سمعها إلى حد الذهول .. ماذا يريد أن يقول هذا الوافد الجديد على دنياه .. ماذا يقصد .. وماذا يريد إقناعه به .. بل لماذا يقول هذا الكلام .. هل له هدف يريد أن يشده إليه ..

وأفاق منير من ذهوله ودلبر تدخل إلى الكابين .. ووقفت أمامه هو وأخيها وبين شفتيها ابتسامة كأنها فرحة لأنها وجدته بعد أن ضاع منها موعد لقائه .. إنها أول مرة يرى فيها ابتسامة حلوة هادئة صادقة لا تحس فيها بأنها مجرد ابتسامة مجاملة تقليدية .. وقدمه إليها أخوها :

ــ الأستاذ منير ..

وقالت دلبر فى لهجة عادية مع ابتسامتها :

ــ لقد كنت أراه فى البحر ..

كأنها كانت تعترف بأن هناك ما يجمعهما .. رأته كما رآها .. وقد مدت يدها تصافحه .. أول مرة يلمس قطعة منها .. إن يدها أرق وأنعم مما كان يتخيل .. وأصابعها أرفع كأنها خيوط من حرير .. وأخذت دلبر يدها بسرعة من يده وخطت داخل غرفة الكابين .. واعتقد منير أنها دخلت لتبدل ثوبها وتضع على جسدها المايوه وفوقه البرنس لتدعوه إلى لقاء البحر .. ولكنها عادت وهى فى ثوبها الكامل وفى يدها كتاب وجلست فى ركن بعيد

عنهما وبدأت تقرأ فى الكتاب .. إنه كتاب باللغة الفرنسية .. إنها طبعا لا تقرأ العربية ..

وبعد لحظات جاءت وراءها أختها الأكبر نسليار .. كما عرف اسمها فيما بعد .. ولم تقف لتصافحه بل لم تلتفت إليه .. ثم وقفت بجانب أختها دلبر الجالسة تقرأ فى كتابها وشدتها من يدها إلى داخل الكابين حيث بقيتا لحظات وهو يسمع صوتيهما كأنهما يتهامسان .. ثم خرجا وبدلا من أن تعود دلبر إلى مكانها الذى كانت تجلس فيه سارت مع أختها إلى الشاطئ حيث جلستا تحت إحدى الشماسى .. ربما كانت نسليار قد أنبت أختها دلبر على جلوسها بجانب غريب حتى ولو فى وجود أخيها .. وأخذتها بعيدا عن الغريب ..

وبعد لحظات أخر دخل عليهما فؤاد أخو كمال الأكبر .. إنه شخصية مختلفة تماما عن شخصية كمال .. كان يرتدى زيا أرستقراطيا .. برنيطة فوق رأسه .. وجاكت رياضية من الجلد المطرز فوق قميص زاه بالنقوش والألوان .. وبنطلون طويل لا تزال المكواة ترسم خطوطه .. وحذاء كاملا وإن كان نعله من الكاوتش السميك .. إنه زى لا بد أنه مستورد ولكنه رغم فخامته لا يمكن أن يصلح ليوم مريح تلعب فيه على الشاطئ .. وقام منير واقفا فى استقبال الأخ الأكبر .. وقال كمال وهو جالس مكانه ودون أن يرفع عينيه إلى أخيه وهو يقوم بمهمة التقديم :

ــ أخى فؤاد .. الأستاذ منير ..

وقال منير فى لهجة رسمية ودون أن يبتسم فشكل فؤاد لم يدفع شفتيه إلى الابتسام :

ــ تشرفنا ..

وهز فؤاد رأسه فى تحية رسمية دون أن يمد يد المصافحة .. وكان منير حريصا فلم يسبقه بمد يده ..

واختار فؤاد مقعدا فى مواجهتهما جلس عليه وهو ينظر إليهما نظرات جادة كأنه يأمرهما بأن يكشفا عما بينهما وعما يدور بينهما من حديث ..

وكان منير لا يزال واقفا والتفت إلى كمال مستأذنا فى الانصراف .. وكأن كمال يعرف أن لا أحد يطيق أن يجلس معه ومعهما أخوه فؤاد فقال راجيا :

ــ انتظر .. سننتقل لنجلس تحت شمسية .. قريبا من البحر وأمواجه ..

وقال منير معتذرا من خلال ابتسامة :

ــ آسف .. مضطر أن أذهب ..

ونظر إليه كمال كأنه يفهمه :

ــ إذن .. انتظر لحظة .. سأعطيك كتابا أتمنى أن تقرأه حتى أبدأ فى إقناعك بالدنيا التى أعيش فيها .. ولعلك تقتنع أن تعيش فيها معى ..

وخطا إلى داخل الكابين ثم خرج يحمل كتابا ناوله لمنير وهو يقول :

ــ إنه بالإنجليزية .. لا شك أنك تقرأ الإنجليزية ..

وقال منير وهو يقلب الكتاب فى اسمه ويقرأ عناوينه :

ــ شكرا .. وإلى اللقاء ..

وابتعد والكتاب فى يده .. إنه كتاب ميكافللى بعنوان « الأمير » .. وقد سبق أن سمع عن هذا الكتاب ولكنه لم يقرأه .. ولا يحس الآن بدافع لقراءته .. إن كل ما يسيطر على كل فكره هو الكلام الذى سمعه من كمال ..

« سهر الليل » ليلاس
www.liilas.com

(٢)

عاش منير كل ساعات يومه والكلمات التى سمعها من كمال الروزنامجى تطن فى أذنيه وتملأ رأسه .. لم يكن ينتظر أن يسمع مثل هذه الكلمات من أحد أبناء هذه الطبقة .. ما حاجته إلى أن يبحث عن واقع آخر غير واقع طبقته .. وهو واقع يغنيه عن التفكير عن أى شىء خارجه .. بل ويغنيه عن التفكير فى المستقبل لأنه واقع يضمن مستقبله ومستقبل أولاده وأحفاده .. إنه يملك مئات الأفدنة من الأرض .. والأرض هى التى تقيم الدولة ومالكها هو رئيس دولة .. حتى لو كانت دولة صغيرة تقوم على هذه المئات من الأفدنة .. والدولة ليست فى حاجة إلى البحث عن واقع غير واقعها .. وواقع الأفدنة وصل بهم إلى الواقع العام .. فوالده عضو بارز فى حزب الوفد وتولى الوزارة عدة مرات .. أى تولى الحكم .. وأمه من العائلة المالكة التى تحكم مصر كلها حتى لو كانت من فرع بعيد من العائلة .. فإن الحكم فى مصر فى يد العائلة كلها تختار من بينها من يحمل لقب ملك ويتحمل مسئولية ملك .. ولكن كمال يقول كلاما عجيبا وربما لو طالت جلسته معه لسمع منه كلاما أعجب .. إنه يقول إن والده لا يستحق أن يكون وزيرا .. وأنه لا يعتبر نفسه وفديا لمجرد أن والده ينتمى إلى حزب الوفد .. بل لا يعتبر نفسه مسلما لمجرد أنه ولد لمسلمين فالإيمان بالدين لا يقوم على مجرد الإرث بل يقوم على الاقتناع الكامل .. والاقتناع الكامل لا يقوم إلا على حرية الاختيار .. أى حتى يكون مسلما يجب أن يكون قد اختار الإسلام بعقليته

هو .. بل إن كمال وصل إلى حد أن قال إنه يرفض الاسم الذى يحمله .. الروزنامجى .. لأنه اسم لم يختره لنفسه ولم يعد يعبر عن واقعه الذى أصبح مختلفا عن واقع أبيه وجده أى واقع من اختار لنفسه هذا الاسم ..

ويرتفع طنين هذا الكلام فى فكر منير .. ثم يمر به خاطر أن كمال محق فى كل ما قاله .. بل إن بعض ما قاله ينطبق عليه هو شخصيا .. فهو مثلا ليس وفديا ولا ينتمى إلى أى حزب من الأحزاب السياسية رغم أنه يشترك فى كل المناقشات التى تدور بين زملائه .. وكان يشترك فى كل المظاهرات السياسية التى تخرج من المدرسة .. وكان له فيها معارك عنيفة مع البوليس .. ولكنه كان يشترك فيها بقوة الدوافع الوطنية دون أن يحس وهو فيها بأنه ينتمى إلى حزب تعبر عنه هذه المظاهرة .. لماذا ؟ .. لماذا لم يفكر فى أن يكون وفديا أو ينتمى إلى أى حزب سياسى ؟ .. ربما لأنه لم يرث الحزبية عن والده كما يقول كمال .. إن والده متباعد عن كل الأحزاب .. وقد ورث عنه هذا التباعد .. وإن كان يختلف عنه فى تباعده .. فوالده متباعد حتى عن مجرد التفكير السياسى فى حين أنه هو يهوى الفكر السياسى .. إنما يجب أن يضع نفسه فوق شخصية أبيه ولا يستسلم للإرث .. يجب أن يبدأ فى الاتصال بكل الأحزاب ويدرسها ويعرف خباياها فربما اختار من بينها حزبا ينتمى إليه .. وهو لن يبدأ باعتبار نفسه وفديا لمجرد أن الوفد هو حزب الأغلبية .. سيكون حرا حتى بالنسبة للأغلبية .. وقد ينتهى بأن يرفض الانتماء إلى أى حزب سياسى ويبقى كما هو الآن .. ولكنه يكون قد اختار وليس مجرد مستسلم لطبيعة شخصية ورثها عن طبيعة أبيه ..

ثم لماذا هو مسلم ؟

إنه أكيد مسلم وحريص على إسلامه .. وقد بدأ القرآن منذ كان صبيا

ويصلى ويصوم .. وإن كانت قد مرت به حالات حرم نفسه فيها من الصلاة وحتى من صيام أيام من أيام رمضان .. ولكنه مسلم دائما حتى إنه رغم ثقته الكاملة فى نفسه وهو يدخل امتحان المدرسة لا يستطيع أن يبدأ فى كتابة الإجابة على الأسئلة إلا بعد أن يقرأ الفاتحة داعيا الله ونبى المسلمين أن يوفرا له النجاح .. ولكن لماذا هو مسلم ؟.. إنه قطعا لم يمر بأى تجربة دفعته إلى اختيار الإسلام .. لقد وجد نفسه منذ تفتح وعيه أنه مسلم .. واستسلم لما وجد نفسه فيه إلى حد الإيمان الكامل بالإسلام .. ولكنه إيمان ورثه عن أبيه وعن عائلته دون أن يخطر على باله أى تساؤل .. لماذا هى عائلة مسلمة .. وماذا كانت عليه قبل أن تصل دعوة الإسلام إلى مصر .. هل كانت عائلة مسيحية .. أم عائلة يهودية .. أم عائلة تعبد آمون إله الشمس كأجدادنا الفراعنة .. وكيف اختارت الإسلام .. هل نفاقا للحاكم الجديد كما فعل كثير من اليهود .. أم تهربا من دفع الجزية كما فعل كثير من المسيحيين .. أم إنها عائلة اختارت الإسلام عن اقتناع كامل رفعها إلى مستوى الإيمان .. إنه هو شخصيا لم يضع نفسه فى حالة اختيار .. بل إنه يعتبر نفسه جاهلا فى فهم الإسلام .. مكتفيا بالإيمان عن الفهم .. لا .. يجب أن يدرى الإسلام ويفهمه حتى يختاره ويكون أقوى إيمانا باختياره عن الإيمان بالاستسلام .. ولكن كيف .. كيف يبدأ .. ؟ .

وعشرات التساؤلات تنطلق مع طنين كلمات كمال الذى يملأ رأسه .. حتى وجد أنه حرم نفسه من متعة الأيام التى يقضيها على الشاطئ .. فلا يسبح فى مياه البحر .. ولا يجتمع بأصدقائه .. ولا يتمتع بالفرجة على أولاد الذوات المتجمعين فى ميامى .. إنما انزوى فى ركن بعيد من الشاطىء وألقى بنفسه راقدا على الشاطىء سارحا فى تساؤلات فكره .. إلى أن وجد

نفسه قبل أن تغيب الشمس يقوم يجرى إلى كابين كال باحثا عنه كأنه يريد أن يحمله مسئولية تهدئته .. ولكنه وجد الكابين مغلقا ولم ير كال ..

وكل ذلك ودون أن تضيع من خياله ولا من إحساسه صورة دلبر أخت كال .. إنه يناقش كال وهو يحس كأنه يناقشها .. ويحاول أن يفهمه كأنه يحاول أن يفهمها .. حتى وهو يجرى باحثا عنه كانت صورتها فى إحساسه كأنه يبحث عنها ..

وفى صباح اليوم التالى وضع المايوه وذهب إلى الشاطئ مبكرا كعادته فى انتظار أن تلتقى عيناه بدلبر .. وجاءت فى موعدها المبكر وهى تخفى المايوه وتفاصيل قوامها خلف البرنس السميك الطويل .. ومن خلفها الدادة العجوز داكنة السمار .. ونزلت إلى البحر والدادة تغوص فى المياه وراءها لتخلع عنها البرنس ثم تركتها تغطس وحدها .. وغطس فى المياه معها .. إن من حقه الآن أن يحادثها بعد أن تعارفا .. واقترب منها وقال بابتسامته التى تنبض بفرحة :

ــ صباح الخير ..

وردت تحيته وابتسامتها تضن بفرحتها :

ــ بونجور ..

وقال كأنه وضع تخطيطا لبدء حديث طويل معها :

ــ لقد أسعدنى الحظ بالتعرف إلى أخيك كال .. وكأننا تعارفنا نحن الاثنين أيضا .. ولكن الواقع أن كال أدهشنى وحيرنى بكلامه معى .. حتى أنى لم أستطع فهمه .. وقضيت طول نهار أمس وطول الليل كأنى أناقشه لأصل إلى فهمه ..

وضحكت ضحكة صغيرة هادئة وقالت :

ــ إنك إذا فهمت كال فليس معنى هذا أنك فهمت العائلة .. بل إنك حتى تفهم العائلة يجب ألا تفهم كال فهى عائلة كل أفرادها لا يفهمون كال .. كأنه بيننا يتكلم بلغة غريبة لا يتكلمها واحد منا .. حتى انقطع الكلام بينه وبين بابا .. وبين أخى فؤاد .. بل وبينه وبين ماما .. وأختى نسليار .. ربما كنت أنا الوحيدة التى تستطيع أن تتبادل معه بعض الكلمات بلغته .. وإن كنت لا أفهم كل كلامه ..

وقال من خلال فرحته :

ــ لقد أراد كال أن أفهمه وحاول أن يفهمنى نفسه .. وأتمنى أن أجد من يحاول أن يفهمنى العائلة ..

وقالت دون أن ترد عليه وهى تحرك ذراعيها تحت الماء وتسبح بعيدا عنه :

ــ بردون ..

كأنها تعتذر عن اضطرارها للابتعاد عنه ..

ولمح الدادة السمراء التى كانت جالسة على حافة الشاطئ قد قامت واقفة وهى تنظر إليه من بعيد كأنها تراقبه وتهم أن تدعو البوليس لإنقاذ دلبر من شاب يعاكسها وهى تسبح فى البحر ..

وابتسم كأنه يهنئ نفسه .. ويكفى أنه استطاع أن يبدأ الحديث معها حتى لو كان بضعة كلمات .. وأخذ يسبح منفردا إلى أن لمحها تخرج من البحر والدادة تتبعها بالبرنس .. وتتبعها بعينيه حتى دخلت الكابين .. ثم ترك مياه البحر وألقى بنفسه على رمال الشاطئ تحت الشمس حتى يجف .. ثم قام ونفض نفسه من الرمل بدقة أزالت كل حبة رمل ثم سار متجها إلى كال .. لا يصح أن يبدو أمام أولاد الذوات وهو ملوث بحبات الرمال ..

واستقبله كال مرحبا بلهجته الطبيعية التى لا يشوبها أى افتعال مما تعوده

أولاد الذوات .. وقال وهو يشده من يده :

ــ سنجلس تحت شمسية حتى لا يقطع أحد حديثنا ..

وابتسم منير بينه وبين نفسه مستسلما .. إن الجلوس تحت الشمسية يبعده عن دلبر .. وقال له كال وهما يجلسان :

ــ هل بدأت تقرأ ميكافللى ؟

وقال منير من خلال ابتسامته :

ــ الحقيقة أنى لم أقرأ شيئا منذ تركتك .. حتى ولا جريدة صباح اليوم .. إن عقلى مشغول بمحاولة فهم ما سمعته منك ..

وضحك كال قائلا :

ــ إن فهمى يبدو صعبا فى اللقاءات الأولى .. وأعرف أن ما أقوله يعتبر مفاجأة لمن يسمعنى أول مرة .. كيف يقول ابن الباشا هذا الكلام .. ولكن المفاجأة لا تلبث أن تزول وأصبح سهل الفهم على كل من يسمعنى .. على الأقل يفهمون أنى لم أختر والدى ولكنى ولدت له دون اختيار ..

وقال منير كأنه يلقى نكتة :

ــ إنها إرادة الله .. أنت ابن باشا وأنا ابن أفندى ..

وقال كال وهو يضحك على النكتة :

ــ لو كان الله موجودا لناقشته فى حقه أن يفرض على أبا لا أختاره ..

وقال منير كأنه يستغفر قبل أن تلحقه مصيبة :

ــ إن الله موجود ..

وقال كال ساخرا :

ــ موجود فى خيالك .. وأنا لم أعد خياليا .. وعندما يخيل إليك أنك تحادث الله فالواقع أنك تحدث نفسك .. لا أكثر .. وتتصور أنك تحادث

الله لتهرب من نفسك .. من ضعفك .. من الواقع الذى تعيش فيه .. وأنا أعيش الواقع لذلك فإنى أتحدث مع واقعى لا مع خيالى .. أى أن أتحدث إليك مثلا .. لأنك واقع فى حياتى ولست مجرد وهم أتصوره ..

واتسعت عينا منير مبحلقا فى كال .. إن هذا الشاب كافر .. إنه لا يؤمن بالله .. وصرخ :

ــ إن الله موجود سواء رفعت حديثا إليه أو لم ترفع .. وهو ليس موجودا فى الخيال .. ولكنه موجود بوجود الأرض والسماء .. والشمس والقمر .. والجبال والبحار .. والحر والبرد .. موجود داخل وجودك .. لولا الله لما كنت ولما كانت كل المخلوقات .. ذلك نلجأ إليه مستغيثين أو مستغفرين .. نطالب أن يرحمنا وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم ..

ونظر إليه كال فى دهشة كأنه فوجئ بتمسكه بإيمانه .. ثم قال هادئا كأنه هو الآخر متمسك بإيمانه :

ــ إن الموجود هو الإنسان .. والإنسان كأى شيئ يوجد .. يبدأ ببذرة ثم ينمو .. وكلما نما الإنسان اكتشف سرا من أسرار وجوده .. وتصور الإنسان منذ مليون سنة مثلا .. لم يكن قد اكتشف سر الزراعة .. كان يأكل ما يجده على الأرض .. ولكنه مع نموه عرف كيف يزرع وكيف يختار ما يزرعه .. وسيستمر الإنسان فى النمو حتى يكتشف سر الأرض والسماء والشمس والقمر والجبال والوديان .. أى يستكمل الانفراد بإرادته وفرض ما يختاره ..

وضحك منير وهو يصيح قائلا :

ــ أنت الآن خيالى ولست واقعيا .. إنك تتخيل الإنسان منذ مليون سنة .. وتتخيله بعد مليون سنة .. ولكن حتى كل هذا الخيال لا يستطيع

أن يكشف لك أسرار الواقع .. إنك تقول إن وجود الإنسان بدأ بذرة أخذت تنمو .. ولكنك لا تسائل نفسك .. من أوجد هذه البذرة .. من خلق هذا الواقع منذ بدأ .. إنك لو ساءلت نفسك لاعترفت بوجود الخالق .. بوجود الله .. إن الله هو الواقع الوحيد الشامل والأسمى والذى يؤمن به كل فكر واقعى مهما اشتط به الخيال .. فأفق من خيالك وكن واقعيا ..

وقال كمال وهو يفتعل ابتسامة :

ـــ إن من الواقعية أننا يمكن أن نستمر فى مناقشة هذا الموضوع العمر كله .. فدعنا منه الآن .. وقد قلت لى إنك لا تفهمنى .. فلنبدأ فهم ما تريد فهمه ..

وفى هذه اللحظة تقدم السفرجى الأنيق وهو فى زيه الرسمى يحمل صينية فضية عليها كوبان من العصير وانحنى بها أمامهما .. ومد كل منهما يده بسرعة يلتقط كوبا ويرفعه مباشرة إلى شفتيه كأنه يريد أن يخفف به من حدته ..

وقال منير وهو يبتلع ريقه كأنه يتمتع بما بقى فيه من قطرات العصير :

ـــ الواقع أنى أريد أن أفهم أولا ما سمعته عن حياتك الخاصة حتى أستطيع أن أقيم عليها فهمى لآرائك .. لقد سمعت أنك حصلت على الشهادة الثانوية منذ سنتين .. فلماذا لم تلتحق بالجامعة كما يفعل كل من ينال التوجيهية ..

وقال كمال من خلال ابتسامته :

ـــ ربما سمعت أن أولاد الأغنياء لا يدخلون الجامعة لأن الشهادات الجامعية مخصصة للحصول على وظائف الحكومة وهم ليسوا فى حاجة إلى وظيفة حكومية .. وأنا منهم .. وقد يكون هذا صحيحا فى ناحية من

النواحى .. ولكنه ليس السبب فى أنى لم ألتحق بالجامعة .. السبب هو أنى وجدت أن البرامج الدراسية فى أى كلية نظرية وأنا أميل إلى الدراسات النظرية ، وجدتها لا تكفينى ولا تحقق ما أريد دراسته .. لذلك بدأت الدراسة عن طريق التراسل مع جامعة كامبردج .. وبعد أن تنتهى الحرب العالمية سأسافر وألتحق بها .. ولن أكتفى بالدراسة فى كمبردج .. بل سأسافر بعدها إلى موسكو لأُدرس هناك ..

وقال منير فى دهشة :

ـــ لماذا موسكو ؟

وقال كمال فى هدوء :

ـــ لأدرس تطبيق النظرية ..

وبحلق منير فى وجه كمال قائلا كأنه يواجهه بتهمه :

ـــ لقد سمعت أنك ماركسى ولكنى لم أصدق ..

وقال كمال ساخرا :

ـــ لماذا لم تصدق ؟

وقال منير بسرعة :

ـــ لأن الواقع الذى يحيط بك لا يمكن أن يؤدى بفكرك إلى الماركسية .. إن الفكر ينطلق من الخواطر .. والخواطر تنطلق من الواقع الذى يحيط بصاحب الفكر .. وما يحيط بك لا يمكن أن يثير فيك خواطر تؤدى بك إلى الفكر الشيوعى .. أو الفكر الماركسى ..

وقال كمال فى هدوء الأُستاذ :

ـــ إن الفكر أحيانا يخرج عن الواقع الشخصى ويشمل الواقع العام .. وهذا ما وجدت فكرى ينطلق إليه .. والواقع العام يقوم على عدم عدالة

التوزيع .. توزيع مطالب الحياة .. إن والدى مثلا يملك ألف ومائتى فدان ويستولى على كل إنتاجها بينما الذى يتحمل مسئولية هذا الإنتاج هو الفلاح .. ووالدى ونحن معه نعيش فى منتهى الرخاء .. الحد الأقصى من الرخاء .. بينما مئات الفلاحين يعيشون على أرضنا فى منتهى البؤس .. فأين عدالة التوزيع ؟ .. ثم ماذا يوفر إنتاج المصنع .. إنها الآلة وهو العامل .. وقد يهتم صاحب المصنع بتوفير مطالب الحياة للآلة حتى يضمن تشغيلها ولكنه لا يهتم بتوفير مطالب الحياة للعامل لأنه لو تركه يموت فسيجد غيره .. وأقصد توفير مطالب الحياة المتساوية .. أى يعيش الفلاح والعامل فى نفس المستوى الذى يعيشه أبى وعبود باشا .. وأنا وإخوتى ..

وقال منير معارضا :

ـــ هناك فارق بين الإصلاح والنظرية الماركسية فهى نظرية تطالب بمحو طبيعة النظام الإنسانى الذى وضعه الله .. وقد نص فى القرآن .. ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ ..

وقاطعه كمال قائلا فى رجاء :

ـــ لا تستشهد فى كلامك بما جاء فى القرآن لأنى لا أستطيع أن أناقش الله .. إنى أناقشك أنت .. فقل رأيك الخاص حتى مع إيمانك بالله .. ثم ماذا يقصد الله بأنه رفعنا بعضنا فوق بعض درجات .. لا شك أنه يقصد أنه ميز بين الأفراد فى مستوى الذكاء .. أو فى مستوى القدرة على الإنتاج .. أو فى مستوى الاحتمال .. أو .. أو .. ولكنه لم يميز بتخصيص الحياة للبعض وحرمانها على البعض الآخر وإلا لما خلق هذا البعض .. ثم من يحدد أجر العامل ؟ .. الله أم صاحب المصنع .. وصاحب هذا المصنع قد يدخل الجحيم ولكن الله لا يغضب علينا إذا استطعنا أن ندخله جحيم الدنيا قبل أن

يصل به إلى جحيم الآخرة .. إن سيدك عمر بن الخطاب كما هو مسجل فى الكتب وجد بعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية أنه أخطأ فى ترك الحرية للمسلمين ليصل كل من يستطيع منهم إلى منتهى درجات السلب والنهب .. وأصبح من بينهم الغنى بلا حق والفقير بلا ذنب .. فقرر أن يضع نظاما جديدا يوفر المساواة والعدالة الاجتماعية لولا أنه قتل قبل أن يضع هذا النظام .. وهو نفس ما تفكر فيه اليوم :.

وقال منير كأنه فرح بإيمانه :

ـــ لقد قلت ما ترد به على نفسك .. فسيدنا عمر لم يكن ماركسيا ولكنه كان مسلما كاملا .. أى أن الإسلام يغنى عن الماركسية .. فلماذا أنت ماركسى ..؟

وقال كمال وهو لا يزال هادئا كأنه تعود مثل هذه المجادلات :

ـــ أنا لا أحب أن يقال عنى إنى ماركسى أو لينينى .. إنى إنما مقتنع بالماركسية اللينينية .. والاقتناع يحتفظ لصاحبه بشخصيته .. أى أنى أستطيع أن أطبق نفس نظرية ماركس فى إطار آخر غير الإطار الذى رسمه ماركس .. بل إن ما طبقه لينين لا يقاس بما كان يتصوره ماركس .. حتى إنه من المعروف أن الشيوعية لم يحققها نظام حتى اليوم .. لا فى روسيا ولا فى غيرها .. لذلك لا تقل عنى إنى ماركسى .. قل عنى إنى كمال يحيى الروزنامجى ..

ودهش منير .. هل كمال إنسان مغرور حتى يتصور نفسه زعيما قائما بذاته ويرفض أن ينسب إلى أى نظرية حتى نظرية ماركس فى حين أنه يقول إنه مقتنع بها .. وقال منير مبتسما :

ـــ على كل حال فإن اقتناعك يسهل عليك تحقيقه فى واقع .. فبعد وفاة

والدك أطال الله فى عمرك تستطيع أن تقنع إخوتك بتوزيع الأرض على الفلاحين الذين يزرعونها .. وتصبح النظرية واقعا ..

وارتفع صوت كمال محتدا :

ــ لا يمكن .. هذه جريمة تقضى على المستقبل كله .. فالأرض الزراعية التى يجب أن توزع ليست أرضنا وحدها .. بل يجب أن توزع كل أرض الله الزراعية على من يزرعها .. وتوزع المصانع على من يحقق إنتاجها .. وكل هذا لا يتحقق إلا بثورة .. بما فيها ثورة فلاحينا على والدى وعائلتى وعلى أنا شخصيا إذا لم أشترك فى ثورتهم .. ولو وزعت أرضنا على فلاحينا فكأنى أوزع عليهم رشوة حتى لا يشتركوا فى ثورة مصر ..

وقال منير وهو حائر فى دهشته :

ــ إنك على الأقل تستطيع أن ترفع من دخلهم حتى يصلوا إلى مستوى أرفع فى تحقيق مطالب الحياة ..

وصاح كمال :

ــ حتى هذا لن يحدث ولن أقدم عليه .. سأتركهم لما يعانونه حتى يجدوا الطريق للتغلب عليه .. بل إنى فكرت يوما فى أن أقيم مدرسة فى أرضنا وعدت وعدلت .. إنى أنصحهم بكلامى أن يفتحوا لأنفسهم مدرسة ليعلموا فيها أولادهم .. فإما أن يفتحوا هذه المدرسة بأنفسهم وإما أن يثوروا مع ثورة كل فلاحى مصر حتى يحصلوا على حقهم فى تعليم أولادهم .. وأنا أتمنى ثورة الفلاحين حتى لو قتلونى فيها لذلك لا أوزع عليهم الرشاوى حتى أحمى نفسى ..

وسكت منير تائها فى حيرته .. ما حقيقة هذا الشاب .. ربما كان صادقا فى اقتناعه بما يقول .. ولكن ربما أيضا يكون مدعيا يحاول أن يرسم

لنفسه صورة مظهرية تختلف عن صورة أولاد الذوات حتى يمثل بينهم شخصية جديدة تشتهر فى مجتمعهم ويستطيع أن يكسب بها شبانا من خارج هذا المجتمع فتصبح له قيمة أخرى .. ولكن إذا اضطرته هذه الشخصية إلى التنازل عن شيء من أملاكه وأمواله التى توفر له وضعه الذى ولد فيه .. فلن يتنازل عن مليم واحد .. لا للفلاحين ولا للعمال .. إن كل ما هناك أنه يكتشف لعبة جديدة يسلى بها نفسه ويقطع أوقات فراغه .. وبدلا من أن يقيم الحفلات الراقصة أو يجمع حوله الأصدقاء ليلعبوا الكوتشينة أو الطاولة .. فهو يلعب ويسلى نفسه بالمذاهب السياسية وادعاء الماركسية .. حتى يفاجئ الناس كأنه أول واحد من طبقته يلعب هذه اللعبة .. كما كان الكاتب الروسى تولستوى .. لقد كان من طبقة أصحاب الأرض الذين يحكمون روسيا ولكنه اكتسب شهرة عالمية لأنه كان يكتب عن حياة الفقراء فى مواجهة طبقته .. من يدرى حقيقة كمال يحى الروزنامجى ؟ .. من يدرى ؟ .. ربما كان فعلا يحلم بثورة يصل بها إلى أن يكون هو شخصيا الذى يحكم مصر فالثورة التى قام بها أحد أجداد أمه على المماليك وذبحهم كلهم فى وليمة غداء وانفرد بعدهم بالحكم .. يقصد ثورة محمد على ..

وأحس كأنه يكاد ينهار أمام كل هذه الخواطر التى تزدحم فى رأسه فاستأذن فى إنهاء المناقشة والابتعاد .. وألح كمال عليه أن يبقى معه لتناول الغداء ولكنه أصر على اعتذاره .. إنه يلمح من بعيد الولائم الفخمة التى تقام كل يوم فى كابين كمال وتضم أفراد العائلة وأصدقاءهم موزعين داخل الكابين وتحت الشماسى .. ويلمح عشرات الأطباق من الأطعمة التى تقدم تشده حتى وهو بعيد .. ويقاومها .. إنه لا يريد أن يعود نفسه على أكثر من الطعام

الذى يعده لنفسه وتكلفه الثلاث وجبات منه خمسة قروش تعريفة .. إنه لو قبل دعوة فقد يعود نفسه على أن يبحث عن دعوة كل يوم حتى يمتع نفسه بأطايب الأطعمة ويوفر الخمسة القروش تعريفة والجهد الذى يبذله فى إعداد الطعام لنفسه ..

وقال كمال وهو يصافحه ويضمه داخل ابتسامته :

ـــ إننا نجلس كل مساء ابتداء من الساعة السابعة فى مقهى بيترو عند مدخل سيدى بشر .. وسأكون فى إنتظارك ..

وهز منير رأسه شاكرا .. ثم أدار رأسه مع أول خطوه يخطوها بعيدا عنه إلى ناحية الكابين .. يريد أن يرى دلبر .. وقد رآها .. ورآها تنظر إليه .. خيل إليه أنها تبتسم له .. بل خيل إليه أنها اختارت جلستها داخل الكابين بحيث تستطيع أن تسلط عينيها عليه طول وقت جلوسه مع أخيها ..

وابتسم بينه وبين نفسه متنهدا كأنه يتعجب من أحلامه .. وسار المشوار الطويل وقدماه تغرزان فى رمال الصحراء إلى أن وصل إلى العشة الخشبية التى يقيم فيها .. وأوقد « وابور الجاز » وبدأ يعد حلة البطاطس التى يعتمد عليها فى إشباع جوعه .. وإلى أن يستوى البطاطس التقط كتاب ميكافللى الذى أعطاه له كمال وبدأ يقرأ .. إنه كتاب عجيب يضع للحاكم .. أى حاكم لأى بلد .. صورة نصاب خطير ينصب على الناس ويعذبهم بامتصاص دمائهم حتى يحقق أغراضه الخاصة التى تبدأ بفرض استمراره فى الحكم مهما كان رأى الناس فيه .. وهو كتاب صغير لم يستطع أن يرفع عينيه عن سطوره إلا بعد أن شم رائحة الدخان تنطلق من حلة البطاطس وقد احترق ما فيها .. وقفز واقفا نحو وابور الجاز ثم جلس أمام الحلة يأكل ما فيها برغيف العيش الذى يحتفظ به منذ الأمس .. ولا يهمه أن البطاطس أصبح محروقا ..

المهم أن يملأ معدته بأى شىء .. وكان وهو يأكل يستمر فى كل تقليب صفحات الكتاب إلى أن انتهى من قراءته .. لماذا أعطاه كمال هذا الكتاب كبداية للتعارف .. ربما أراد أن يقنعه بفساد كل الحكام حتى يسهل عليه بعد ذلك أن يقنعه بالثورة على أى حاكم ..

وفى المساء قرر منير أن يذهب للقاء كمال فى مقهى بيترو .. إنه يحس بانجذاب للقاء كمال لا لمجرد الفرجة عليه كواحد من طبقة أولاد الذوات كما كان من عادته أن يفرح بهذه الفرجة .. ولكن هناك فرجة أخرى أثارها فيه كمال .. الفرجة على آراء جديدة كأنه يسافر بعقله إلى بلاد جديدة ويكتشف فيها آراء لم يعشها ولم يسمعها من قبل .. ثم إن كمال فى الواقع شخصية جذابة ترفع الكلفة سريعا بينه وبين من يحادثه .. وحديثه مشوق إلى الاستمرار فيه .. إنه يعرض الآراء العجيبة بلهجة بسيطة وكلمات مريحة كأن ليس فيها ما يثير العجب .. إنها مجرد واقع نواجهه بالاستسلام الطبيعى ..

وقد قام كمال يستقبل منير بابتسامة واسعة وفرحة رنانة .. ربما كان فرحا بنفسه لأنه استطاع أن يجذبه إليه .. وكان حوله ثمانية من أصدقائه يلتفون حول مائدة واحدة .. قدمهم إليه كمال فردا فردا .. عجيبة .. ليس كمال وحده من أولاد الذوات .. إن معه ثلاثة آخرين من نفس الطبقة .. ابن المانسترلى .. وابن عائلة ذو الفقار .. وابن عائلة شريف باشا .. لا شك أنهم الثلاثة شيوعيون مثل كمال وإلا لما اجتمعوا به هذا الاجتماع الخاص .. والباقون بينهم خليل وهو زميل فى المدرسة وهو يعرف عنه أنه من عائلة أقل فى مستوى الطبقة الوسطى من عائلته .. من السهل أن يقتنع خليل بالشيوعية .. أما الآخرون فإن منير يلتقى بهم لأول مرة ..

وقال كمال بعد أن لاحظ أن منير يدير عينيه فى نظرات صامتة ولكنها حائرة بين أصدقائه الجالسين معه :

ـــ نحن أصدقاء نجتمع هنا كل مساء .. وأهم ما يجمعنا أننا تخلصنا من الإحساس الطبقى .. كلنا طبقة واحدة .. بل إن المانسترلى وأبوه صاحب سؤدد يعتبر أن خليل الذى يعمل أبوه ساعيا فى المكاتب الحكومية أرقى منه فى الطبقة التى وصل إليها .. الطبقة الفكرية .. الطبقة التى وصلت إلى أبعد فى تحليل مبادئ العدالة الاجتماعية بالنسبة لمصر .. والتى ستكون يوما ما الطبقة المسئولة .. ولكن لا تعتقد أننا نكون حزبا سياسيا .. فرغم تجاوبنا فى كل آرائنا إلا أننا لسنا حزبا وليس لنا تكوين حزبى .. إننا مجرد شلة ..

ورفع منير حاجبيه دهشة .. لماذا يتعمد كمال أن ينفى اجتماعهم كحزب سياسى .. لعله لا يأمن بعد إليه ويخشى أن ينقل ما يسمعه من أسرار الشلة إلى المباحث العامة ..

وتغلب منير على دهشته وقال مبتسما :

ـــ إنى لا أعانى أى إحساس طبقى .. فأنا لست غنيا من أولاد الذوات .. ولست أيضا فقيرا إلى حد أن أكون واحدا من الطبقة الفقيرة .. إنى كما يقال من الطبقة المتوسطة الحائرة بين الطبقة الغنية والطبقة الفقيرة .. وربما استطعت أن أصل إلى هذه الطبقة أو أقع فى الطبقة الأخرى .. يمكن أن يقال إنى من الطبقة الحرة .. حر فى اختيار مكانى وأين أكون ..

وقال مصطفى وهو واحد ممن يلتقى بهم منير لأول مرة :

ـــ كلام معقول .. أنا مثلك من الطبقة الحرة .. ولكنى سبقتك واخترت الطبقة التى تعتبر الطبقة الأحق .. والطبقة العاملة ..

وبدأ النقاش يتسع ويستمر طويلا بين أفراد الشلة .. وكله يدور حول

موضوع واحد .. موضوع النظام الطبقى ..

إلى أن قال منير كأنه يحاول أن يخرج من حيرته ويستريح :

ـــ لماذا نحصر كل تصورنا للمستقبل فى موضوع الطبقية .. بل لماذا يكون الحل الذى نحلم به .. هو أن نحصر الحاكم فى طبقة واحدة إلى حد أن نتصور الإطاحة بباقى الطبقات .. لماذا لا نقتنع بأن كل شعوب الدنيا تضم الأغنياء والفقراء .. ونحاول التوفيق بين هذه الطبقات فى نظام لا يحقق سيطرة طبقة على طبقة أو أن تعيش طبقة على حساب حق طبقة أخرى فى الحياة .. كما حدث بين الشعب الإنجليزى ..

وصاح المانسترلى ساخطا :

ـــ هل تعارض كارل ماركس ؟ ..

وقال منير وهو ينظر إليه متحديا :

ـــ إنى لم أقرأ كارل ماركس بكل تفاصيله .. ولكنى قرأت وسمعت ليكون لى رأى سطحى .. ولكن هل معارضة كلمات كارل ماركس كمعارضة كلمات القرآن يحرمها الله ويدخل المعارض الجحيم ..

وصاح المانسترلى :

ـــ ما لنا والله ؟ .. إننا نتحدث عن كارل ماركس ..

وقال كمال مقاطعا وهو يبتسم مهدئا :

ـــ كلنا عارضنا كارل ماركس عندما بدأنا الالتجاء إليه .. ولكن اسمع يا منير .. هل قرأت كتاب ميكافللى الذى أعطيتك ؟ ..

وقال منير وهو لا يزال ينهج من ثقل النقاش :

ـــ إن ما فهمته من كتاب ميكافللى هو أن الحاكم لا يعتمد على طبقة ولا يعتمد على مذهب من مذاهب الحكم ولكنه يعتمد على

نفسه فى تحقيق أغراضه .. أو أنى فهمت أن الواقع هو أن الشعوب لا تنقسم إلى طبقات وفقا للوضع الاقتصادى كما تقولون .. بل تنقسم إلى طبقتين فقط .. طبقة الحاكم وطبقة المحكومين .. بصرف النظر عن المذاهب .. كل المذاهب .. حتى إنى بدأت أقتنع بأنه حتى فى روسيا اليوم ليست طبقة واحدة هى التى تحكم .. إنها هى طبقة الحكام وطبقة المحكومين ..

وقال كمال فى بساطة وهو لا يزال مبتسما :

ـ إنك لم تخرج عن الفهم الصحيح .. وأنت قد استشهدت فى كلامك بالشعب الإنجليزى .. إن الطبقة المحكومة فى إنجلترا وهى طبقة الأغلبية قضت مائتى عام فى ثورة على طبقة الأقلية الحاكمة .. حتى تحقق توحيد الطبقتين فى نظام واحد يحقق أهداف كل منهما .. وكارل ماركس وفر عليك هذه المائتى عام ووضع النظام الذى يحقق المساواة فى الحال وبمجرد استطاعتك تطبيقه .. وقد جئت معى بكتاب كارل ماركس لتقرأه .. لقد كنت واثقا أنك ستأتى لتجلس معنا .. وهو مترجم إلى العربية حتى يصبح سهلا عليك .. ولكن كن حذرا وحريصا .. إنه كتاب محرم فى مصر ولو ضبط معك لوقعت عليك وربما علينا كلنا مصيبة ..

ومد منير يده وأخذ الكتاب شاكرا بلا حماس .. ثم استأذن وقام منصرفا دون أن يكلف نفسه مصافحة أفراد الشلة .. وسار طريقه وآراؤه فيما سمعه ثائرة كأنها زوابع تعصف برأسه .. وعندما وصل إلى عشته ألقى بكتاب كارل ماركس بعيدا بسخط وحده .. إنه لن يقرأه .. ولن يعود مرة ثانية إلى لقاء هذه الشلة .. إنهم كلهم شيوعيون .. ماركسيون .. وهو لا يريد أن ينضم إلى أى مذهب .. ولا حتى أن يتخذ معارضة أى مذهب .. إنه

سيبقى ويتمسك بحريته .. حريته كفرد .. ومن حقه أن يقتنع أو يعارض كل صفحة يقرأها عن أى مذهب .. إن حريته الفردية العقلية هى المذهب الذى يؤمن به .. حرية فوق كل المذاهب ..

* * *

وفى صباح اليوم التالى لم يتردد فى السعى إلى الشاطئ بحثا عن دلبر ..

ووقف بعيدا يلمحها وهى تغوص فى مياه البحر والدادة الغامقة السمار تتبعها .. وغاص وراءها .. ولكن هل يتقدم ليبدأها بالحديث .. إنها فى الأمس سمحت له بكلمتين ثم تركته .. لعلها اليوم لن تسمح له حتى بهاتين الكلمتين .. وقد تتجرأ أكثر الدادة التى تراقبها من على الشاطئ وتستدعى البوليس ليحمى دلبر من شاب يعاكسها .. وظل مترددا .. إلى أن فوجئ بدلبر هى التى تقترب منه وتبدؤه الحديث :

ـ بونجور ..

ورد عليها فرحا بها :

ـ صباح الخير ..

وطال الحديث عن الكلمتين اللتين سمحت له بهما أمس .. والدادة واقفة على الشاطئ تبحلق فيهما ولكنها لم تستدع البوليس ..

« سهر الليل « ليلاس «
www.lilas.com

(٣)

إن الأيام تجرى به وهو على شاطئ ميامى ..

وقد أصبح يلتقى كل صباح بدلبر كأنهما على موعد يجمعهما دون أن يتفقا عليه .. ولم يعد يهمهما وقوف الدادة على الشاطئ تبحلق فيهما حتى استسلمت الدادة ولم تعد تقف على قدميها لتراقبهما .. ولكنهما كانا يحرصان على الانزواء بلقائهما كأنهما يعترفان بأنه لقاء سر بينهما وليس من حق الناس أن يكتشفوا سرهما بل وليس من حقهما أن يواجها الناس به .. فكانا لا يلتقيان إلا بين أمواج البحر .. وخارج البحر لا يلتقيان إلا بمجرد نظرات من بعيد إذا التقت عيناه بعينيها صدفة .. وحديث اللقاء يطول دون أن تقطعه هوايتهما للسباحة .. إلى أن تقدر دلبر أن أفراد عائلتها بدءوا يتوافدون على الكابين فتعتذر له وتبتعد دون أن يتفقا على لقاء الغد .. كأنهما مستسلمان للقدر .. أو الصدفة ..

وفى أوائل أيام اللقاء كان يكثر فى التحدث معها عن أخيها كمال .. كأنه يعتبر أن صداقته لأخيها هى كل دافع لقائهما .. وكان فى الوقت نفسه يريد أن يعرف منها المزيد عن أخيها بعد أن أصبح يشغل بآرائه فكره كله .. وكانت ترد عليه مبتسمة :

ــ قلت لك إنى لا أبذل جهدا فى فهم ما يقوله أخى .. وهو يقول لى أكثر مما يقوله لأحد من إخوتى .. ولكنى أبذل الجهد فى استمرار سماعى له لأنى أحس بأنى أسعده بهذا الاستماع .. وأنه فى منتهى السعادة وفى قمة

اعتزازه وثقته بنفسه وهو يتحدث .. وأنا أعطى الحق لكل فرد فى أن يتحدث فيما يريد حتى لو لم يجد مستمعين يفهمونه كما لا أفهم أنا كمال ..

الحمد لله .. إن أخاها لم يقنعها بالماركسية .. رغم أنه كانت قد بدأت تظهر فى تلك الأيام بنات يتظاهرن بالماركسية كتظاهرهن بآخر موضة وصلت إلى مصر ..

إلى أن بدأ أخوها يختفى من أحاديثهما .. إنهما يتحادثان عن كل ما فى الدنيا وكأن كلا منهما يحاول أن يدخل فى حياة وفى فكر الآخر .. والمهم أنه حديث لا يريدان له نهاية .. حديث لا يهمهما فيه ما يقولانه وكل ما يهمهما أن يستمرا فيه دون أن ينتهى ..

وبدأ منير يحس بقوة ارتباطه بدلبر .. إنها معه فى إحساسه وفى عقله وفى خياله طوال دقائق عمره .. حتى عندما ينام يحس أنه يغمض عينيه وهو معها بين أمواج البحر .. إنه يحبها .. لا يمكن أن يكون كل هذا الإحساس بها إلا إحساس الحب .. ولكن ماذا يمكن أن يحقق هذا الحب له أو لها ؟ .. كيف يمكن أن يجمعهما فى كيان واحد ؟ .. إنها ابنة يحيى باشا الروزنامجى .. ابنة الطبقة الراقية .. ابنة كل هذا الترف الباذخ .. وهو ابن عبد الله افندى غانم الموظف البسيط فى وزارة المعارف .. ابن النصف الأسفل من الطبقة التى تسمى الطبقة المتوسطة .. ابن الناس الذين تقوم سعادتهم على الاكتفاء بما فى أيديهم .. فكيف يصل ابن الأفندى إلى ابنة الباشا .. وكيف تهجر ابنة الطبقة الراقية طبقتها لتعيش محرومة داخل الطبقة المتوسطة .. كيف تقبل فتاة تعيش بين فئة مميزة من الناس أن تنزل لتعيش بين ملايين الناس العاديين .. إن الحب لا يمكن أن يصل إلى هذا الحد .. الحب ليس ارتباطا بين اثنين .. فتى وفتاة .. إنه ارتباط بين حالة وحالة من

حالات الحياة .. وربما كان عليه أن يرحم نفسه من هذا الوهم الذى يعيش به ويهرب من هذا الحب .. أسهل عليه الهرب الآن قبل أن يشتد به هذا الحب ويعجز عن الهرب منه ..

وقرر أن يصارحها بكل خواطره حتى يرتاح .. وحتى يواجه المستقبل كما يتفقان عليه حتى لو اتفقا على إلغاء مستقبلهما معا .. وقال من خلال ابتسامة يرسمها على شفتيه وهما فى البحر :

ــ إنى أعرفك أكثر مما تعرفيننى ..

وقالت فى ابتسامة مرحة :

ــ إنى أعرف عنك ما يكفينى ..

وقال جادا :

ــ لن يكفيك ما تعرفينه مع الأيام .. إنى أعرف أنك ابنة الروزنامجى باشا .. وأنك من بنات الذوات .. وأن عائلتك فى منتهى الثراء .. ولكن أنا ..

وقاطعته قائلة فى مرح :

ــ وأنا أعرف اسمك كاملا .. منير غانم .. وأعرف أنك ستلتحق بالجامعة هذا العام .. وأعرف أن أخى معجب بك ويتحدث عنك كثيرا وإن كان يشكو منك كثيرا أيضا .. وقد قلت لك إنى قريبة جدا من أخى كمال .. وما يعجبه يعجبنى دائما ..

وقال وهو أكثر جدية :

ــ كل هذا لا يكفى .. إنك لا تعلمين أنى ابن موظف عادى من موظفى الحكومة .. وأننا فقراء .. لسنا محتاجين لأحد ولكننا لسنا أغنياء .. وأخواتى البنات لا يستطعن قضاء الصيف على شاطئ ميامى والتمتع بالسباحة فى البحر مثلك .. لأنهن من عائلة فقيرة .. وأنت لا تعلمين كيف أعيش هنا .. إننى هنا وحدى وأقيم فى عشة خشبية فى الرمال .. وأخدم نفسى .. أطبخ وأغسل وأكنس .. لا أظن أنك تعرفين ما هو الطبخ أو الغسل .. (واتسعت ابتسامته مستطردا) .. ربما لو كنا قد التقينا فى القاهرة لما استمر هذا اللقاء .. فإنى فى القاهرة لا أستطيع أن أخفى حقيقتى داخل المايوه كما أفعل هنا .. وليس فيها مكان يجمع بنات الذوات وأستطيع أن أتسلل إليه لأراك ..

وقالت وابتسامتها تملأ عينيها كأنها تتعمد أن ترفه عنه :

ــ أنا لا يهمنى الفقر أو الغنى .. وأنت لا تدرى أن والدى .. الروزنامجى باشا بجلالةقدره .. مرت به حالة فقر كاملة فقد كان أفراد العائلة قد أصبح عددهم مئات وباع كل منهم ما وصل إليه .. حتى إن بابا كان يعيش على الاستجداء .. إلى أن تزوج ماما .. وكل الأراضى التى يملكها هى أصلا من أراضى عائلة ماما .. وقد كان شاطرا واستطاع أن يستغلها ويستغل أيضا عائلة ماما إلى أن وصل إلى كل شىء .. صحيح أنه من عائلة الروزنامجى ولكن عائلة ماما أكبر وأغنى ..

وقال غاضبا :

ــ أنا لا يمكن أن أفكر أو أبنى مستقبلى معتمدا على استغلالك .. كما استغل أبوك أمك .. بل إنى لا أشعر بالفقر الذى أنا فيه .. أنا أقوى من الفقر ..

وقالت فى هدوء :

ــ أنا مطمئنة إلى أنك لن تستغلنى أبدا .. إنك لا تتصور أن ماما لا تحب بابا .. بل إنها تكرهه .. وهى التى تحكى لنا كل هذه الحكايات

كأنها تعايره بفضلها عليه .. ولكن لماذا تثير مثل هذه الموضوعات الآن ؟ .. إننا نقضى أياما فى لقاءات سعيدة .. وسعادتى تغنينى عن التفكير فى أى شىء يعكرها .. وأتمنى أن تغنيك أنت أيضا عن تصور أن هناك فارقا بينى وبينك ..

وصمت برهة .. إنها تكتفى بإحساسها به يوما بيوم .. ليس فى إحساسها ما يدفعها إلى التفكير فى المستقبل الذى يفكر فيه هو .. ثم قال :

ــ لك حق .. لنكتف باليوم الذى نعيش فيه ..

ثم التقط يدها وغاص بها فى البحر ضاحكا .. إن من حقه الآن أن يضغط على يدها عندما يمسك بها ..

وقال لها قبل أن تتركه :

ــ إنى لم أعد أكتفى بهذا اللقاء فى باكورة الصباح .. وطول يومى أتمنى أن أراك مرة ثانية ..

وقالت فى فرحة :

ــ إننا نذهب كل مساء إلى كازينو سان استفانو .. هل أستطيع أن أراك هناك ؟ .. لقد اكتشفت ركنا منزويا نستطيع أن نلتقى فيه لنتحادث .. وقد اكتشفته لأنى واثقة أننا يوما سنلتقى هناك فكنت أبحث عن المكان الذى نهرب فيه من الناس .. هل تأتى إلىّ فى سان استفانو ؟ ..

وقال وابتسامته حائرة مع فكره :

ــ سأحاول ..

إن سان استفانو كان أرقى فنادق الإسكندرية وكان يجمع فى لياليه كل أولاد وبنات الذوات بل كل كبار السياسيين .. كنت ترى فيه مصطفى

النحاس باشا وكل كبار رجال الوفد .. كما ترى كل الرؤساء وكل الباشوات وكان يعلم أن أصدقاءه من شبان أولاد الذوات يسهرون فى كازينو الفندق .. وهو قد وضع ميزانية مصروفه بحيث توفر عشرين قرشا ليسهر بها كل يوم سبت فى هذا الكازينو .. واختار يوم السبت لأنه اكتشف بذكائه أنه يوم سهرة الخواجات والكازينو يراعى يوم السبت أكثر من يوم الخميس .. يوم المصريين .. ومنذ وصل إلى الإسكندرية لم يذهب إلى الكازينو إلا مرة واحدة .. فى انتظار السبت القادم إذا أراد أن يذهب مرة ثانية .. ولكنه لا يستطيع أن يستسلم للميزانية وللنظام الذى رسمه بعد أن وعدته دلبر باللقاء هناك ..

وذهب إلى كازينو سان استفانو .. وأخذ يتمشى جيئة وذهابا فى الممشى الطويل المطل على البحر والذى يتمشى فيه كل الرواد .. إلى أن لمح دلبر تتمشى مع بضعة من الصديقات .. وتبادلا النظرات كأنهما يتحادثان بعيونهما .. ثم انفصلت دلبر عن صديقاتها وسارت وحدها وهو يتبعها من بعيد إلى أن وصلت إلى مكان هادئ خافت الضوء خلف دار السينما المقامة هناك .. إنها لا شك تعمدت اكتشاف هذا المكان ..

ووقفا يتحدثان ويتضاحكان وهما فى قمة الانطلاق .. إنه يحس بنفسه هنا أقرب إليها منه عندما يلتقى بها فى البحر .. ربما لأنه أحس بأنه مرتفع إلى مستواها .. فالبحر يجمع الشعب أما كازينو سان استفانو فهو لا يجمع إلا أولاد الذوات ..

وتركته عندما قدرت أن أفراد عائلتها بدءوا فى البحث عنها .. وبقى هو بعدها فى الكازينو حتى يقنع نفسه بأنه أتم استغلال العشرة القروش التى دفعها ثمن تذكرة الدخول والعشرة القروش التى دفعها ثمنا للمشروب .. ثم

خرج وسار على قدميه أكثر من ساعة بين سان استفانو وعشته فى صحراء سيدى بشر .. فلم يكن يستطيع أن يستأجر تاكسى ..

ومن تأثير قوة السعادة التى أحس بها وهو معها فى مجتمعها جازف فى اليوم التالى وذهب أيضا إلى سان استفانو رغم أنه لم يكن قد اتفق معها فى لقاء الصباح .. إن كل لقاءاتهما هكذا .. بلا اتفاق .. ولكنه حرص فى هذه المرة على ألا يطلب مشروبا حتى لا يتكلف أكثر من العشرة القروش ثمن تذكرة الدخول ..

وقد انتابته نفس الدوافع فى المساء التالى .. يريد أن يذهب للقاء دلبر فى الكازينو .. إنه يحس بها هناك كأنهما فى بيت واحد .. بيتهما .. ولكنه بدأ يراجع ميزانيته بجدية أكثر ...إنه لو استمر فى دفع أجر دخول الكازينو فسيفلس بعد يومين أو ثلاثة ويضطر أن يترك دلبر والإسكندرية كلها ويعود إلى القاهرة ..

ولم يذهب إلى الكازينو ..

ولم تسأله فى الصباح لماذا لم تره فى السهرة .. لعلها تترك له حرية اللقاء مادام لم يرتبطا بموعد .. ولكنه بعد أن امتنع عدة ليالى عن الذهاب إليها هناك سألته :

ـــ لماذا لا تأتى ؟ ..

وقال فى بساطة :

ـــ لم أعد أستطيع .. إنى أصبحت أقرب إلى الإفلاس ..

وسهمت دلبر برهة ثم قالت من خلال ابتسامة واسعة :

ـــ إنى أفكر فى خطة قد أستطيع بها أن آتى إليك أنا فى ما تسميه العشة التى تقيم فيها ..

وارتفع حاجبا منير دهشة .. تأتى إلى عشته .. ووحدها .. وفى الليل ؟ .. لعل هذا من مغامرات أولاد الذوات .. وكتم دهشته وقال :

ـــ لن تستطيعى الوصول إلى العشة وحدك .. إنها فى مكان مجهول إلا للمستكشفين الخبراء ..

وقالت فى مرح :

ـــ تنتظرنى فى أقرب شارع إليها ..

وقال وقد بدأت دهشته تفضحه :

ـــ هل تستطيعين .. ومتى ؟

وقالت بمرحها :

ـــ سأحاول الليلة .. انتظرنى فى الساعة الثامنة .. وإذا لم آت فلا تغضب فإن المحاولة تكون قد فشلت ..

وأخذ يصف لها الطريق الذى يمكن أن يتلقى بها فيه حتى يصاحبها إلى العشة .. وبعد أن تركها أسرع إلى العشة وأخذ يكنس أرضها ويمسح نوافذها حتى تبدو مجرد نظيفة فهى أخشاب قديمة لا يمكن أن تلمع ، ثم غسل كل الأطباق والأكواب ونظف جيدا عدة وابور الجاز حتى تبدو لامعة ..

وفى الثامنة كان ينتظرها .. وقد انتظرها طويلا دون أن يمل من مقاومة يأسه .. حتى وصل فى انتظاره إلى الساعة العاشرة .. فعاد إلى العشة وهو يسخر من نفسه ومن أحلامه .. ولا ينام ..

واعتذرت له فى الصباح التالى .. إنها لم تستطع .. ولكن من المؤكد أن المحاولة ستنجح هذا المساء .. لقد وضعت الخطة كاملة وبعد حساب كل الاحتمالات .. فلينتظرها ..

وجاءت فى تاكسى ..

وصحبها عبر صحراء سيدى بشر وأقدامهما تغوص فى الرمال وقد وضعت ذراعها فى ذراعه والهزات تميل بقوامها لتلتصق بقوامه ... إلى أن وصلا إلى العشة .. وقالت دلبر ضاحكة بمجرد أن دخلت :

ـــ هل تدرى لماذا أردت أن ألتقى بك هنا ؟ .. لأثبت لك أنى ست ممتازة .. حتى بنت الباشا تستطيع أن تكون ست بيت ..

وأدارت عينيها فى العشة دون أن تتأفف أو تتعالى وكأنها تدير عينيها فى بيتها وصاحت :

ـــ كل قطع « الميبل » يجب أن يتغير وضعها ..

تقصد قطع الأثاث ..

وأخذت تنقل السرير والمائدة والمقعد المكسور وتعيد وضعها فى أماكن جديدة وهى تطلب منه كأنها تأمره بمساعدتها .. ثم وقفت تنظر كأنها مبهورة بنفسها :

ـــ أليس هكذا أجمل ؟ ..

وقال ضاحكا :

ـــ أجمل ألف مرة .. لأنه ذوقك ..

ولم ترد عليه وقالت وهى تفتح الدولاب الصغير :

ـــ والآن سأطبخ لك .. ماذا عندك ؟ .. إنى سأعد لك طبق بيض لأن الوقت أمامنا ضيق ..

وقال ضاحكا :

ـــ ليس عندى إلا بيضة واحدة ..

وقالت وهى تفتش فى الدولاب :

ـــ تكفينا نحن الاثنين ..

ثم بدأت تخرج كل شىء تجده فى الدولاب .. بيضة .. وقطعة جبن صغيرة .. وخيارة واحدة .. وباقى قطع من البطاطس المطبوخ فى حلة ومعها بقية قطعة لحم .. وقالت :

ـــ أشعل أنت هذا الوابور فإنى لم أتدرب بعد على إشعاله ..

وأعدت طبقا عجيبا يجمع كل ما وجدته مخلوطا بعضه ببعض .. ووضعته على المائدة .. وأخذت تدق بيدها على المائدة كأنها تدق جرسا وهى تصيح :

ـــ العشاء جاهز .. تفضل ..

وهما لا يكفان عن الكلام والضحك وأحيانا الصراخ المرح .. ودون أن يلتقيا فى شىء آخر .. إلى أن حان الوقت لتذهب .. إنها لا تستطيع أن تبقى أكثر من ساعة وقد مضت ساعة ونصف الساعة .. وصحبها عبر الصحراء ويده تحتضن يدها وتضغط عليها كأنها لن تتركها أبدا .. وصمت يسودهما كأن كلا منهما تائه فى شىء ينقصه .. ولم يستطع أن يستمر فى مقاومة هذا الشىء .. فتوقف وشدها إلى صدره دون أن يطل فى عينيها .. واحتضنها بذراعيه بكل قوته كأنه يريد أن يدخلها فى قلبه .. وشفتاه تغوص فى شعر رأسها ثم تبحث عن خديها ثم تستقر بين شفتيها .. وهى مستسلمة .. غاية الاستسلام ..

وكانت هذه أول قبلة يلتقيان فيها ..

واكتفيا بها .. وعادا يسيران صامتين إلى أن خرجا إلى الشارع .. ووجد لها سيارة تاكسى وضعت نفسها فيها .. وهما صامتان وكل الكلام بين عينيه وعينيها ..

وعاد إلى العشة كأنه يسير فوق قطع السحاب ..

لقد جاءت إليه .. إلى بيته .. إلى بيتها ..

ولم تكن أول من جاء إليه من عائلة الروزنامجى .. لقد سبقها أخوها كمال وجاء إليه مرة ..

والصداقة التى بدأت تربط بينه وبين كمال كانت صداقة من نوع عجيب .. فهو على قدر تعلقه بالجلوس معه وسماع أحاديثه التى كانت كأنها تأخذه ليتفرج على دنيا عجيبة .. كان يطرأ على خاطره أنه إنسان خطير وأنه يريد أن يستغله ويدفعه إلى ثورة سياسية تحقق أغراضه .. وكان أحيانا يحاول أن ينكر هذه الصداقة .. إنه لا يعرفه إلا للفرجة على أولاد الذوات .. وكان يحس بكمال أحيانا بأنه متعلق به كل تعلق الصداقة وأنه يبذل مجهودا فى التقرب إليه .. وكان كأنه أخوه المسئول عن توجيهه وأخذه فى الطريق الصحيح .. طريق الماركسية .. وأحيانا يحس منير بأن كمال يستهين به حتى يكاد يتهمه بالتفاهة والسخافة فى كل آرائه .. أو أحيانا يتهمه بأنه من طبقة لا يمكن أن ترتقى أبدا ولا يمكن أن يتسع طموحها نحو بناء مستقبل جديد ..

وكان قد حدث عندما ذهب منير إلى مقهى بيترو والتقى بكمال وأفراد الشلة واشتد النقاش بينه وبينهم أن تركهم وقد قرر أن يبعد نفسه عنهم .. سواء كانوا حزبا سياسيا أو كانوا كما يسمون أنفسهم ، شلة .. بل ويبعد نفسه أيضا عن كمال .. حتى لو كان يعتبر نفسه أنه يتفرج عليه فإنه بدأ يحس أنها فرجة خطرة قد تقوده إلى مصائب أو على الأقل إلى نوع من الحياة لا يجب أن يوجد فيه .. لذلك تعمد فى صباح اليوم التالى بعد أن انتهى لقاؤه مع دلبر ألا يبحث عن أخيها كمال ليجلس معه كما كان قد تعود .. بل ذهب

وقضى يومه مع شلة أخرى من الأصدقاء فى ناحية أخرى من الشاطئ .. وطبعا لم يفكر فى المساء أن يذهب إلى مقهى بيترو .. وفى صباح اليوم التالى أيضا تعمد ألا يلتقى بكمال .. وكان قد عاد إلى عشته وأعد لنفسه ما يأكله ثم جلس يقرأ كتابا للرافعى عن تاريخ مصر كان من بين الكتب التى حملها معه من مصر .. وكانت الساعة السادسة مساء وكان يعد نفسه للخروج للتمشية فى شارع الكورنيش كما عود نفسه ، عندما فوجئ بأن رأى كمال الروزنامجى أمامه .. فى عشته .. وكان معه خليل زميله فى المدرسة والذى رآه بين أفراد شلة مقهى بيترو .. وفوجئ دهشا .. وقال كمال فورا بمجرد دخوله وهو يضحك :

— أين أنت يا رجل ؟ .. أهلكتنا فى البحث عنك ..

ولم يكن كمال يتطلع إلى ما فى داخل العشة كأنه يتفرج على حياة الفقراء .. كأنه تعود على الالتقاء بالفقراء فى بيوتهم .. وكان طبيعيا كأنه فى بيت يعرفه حتى إنه ألقى بنفسه جالسا على المقعد المحطم دون أن يدعوه منير إلى الجلوس .. ولكن كيف عرف كمال مكان هذه العشة .. إن خليل الذى جاء معه لم يسبق أن جاء إليه ولا يعتقد أنه كان يعرف المكان .. لقد عرف منير فيما بعد أن كمال يستطيع دائما أن يصل إلى ما يريد .. وقد سأل وتحرى إلى أن وصل إلى صديق من القلائل الذين يعرفون أين مكان هذه العشة التى يقيم فيها منير .. ولا شك أنه تعب فى التحرى .. ولا شك أن هناك واقعا قويا يدفعه إلى أن يلتقى بمنير ويبذل كل هذا الجهد للوصول إلى لقائه ..

وقال كمال من خلال ابتسامته الواسعة ولهجته المرحة :

— لقد تركتنا عندما التقينا فى المقهى وأنت غاضب .. أو على الأقل لم تكن سعيدا بهذا اللقاء .. وقد انتظرتك فى الصباح التالى على الشاطئ

ولكنك لم تظهر .. وانتظرتك صباح اليوم ولم تظهر .. وخفت أن يكون لقاء واحد مع الشلة قد دفعك إلى الانتحار .. أو على الأقل يكون قد دفعك إلى الهرب .. أنا نفسى تمر على حالات أقاوم فيها متعة الانتحار أو الهرب .. ولكن كان يجب أن نتناقش قبل أن تتخذ أى قرار ..

وقال منير وهو يبتسم ويلقى نفسه جالسا على أرض العشة :

ــ كل ما هنالك أنى لم أتحمل أسلوب المناقشة .. وخفت أن تنتهى بخناقة .. وأنا لا أحب الخناقات .. وأهرب دائما من دوافعها .. بل أتحمل أحيانا دوافع الخناقات دون أن أدخل فيها .. لم يرحنى فى لقاء المقهى إلا صديقى خليل ..

وقال خليل وهو يجلس على الأرض بجانب منير :

ــ لم تكن هناك خناقات .. أو ما يحتمل الوصول إلى خناقة .. ولكن كل واحد له أسلوبه فى التعبير عن رأيه .. هناك من يعبر عن رأيه بالصراخ وهناك من يعبر عن رأيه بهدوء .. والصراخ ليس خناقة ولكنه موسيقى شاذة مزعجة ..

وقال كمال ضاحكا :

ــ لقد قلت لى إنك تأخذ الحياة كلها على أنها فرجة .. حتى عندما تقرأ كتابا تحس أنك تتفرج على الآراء التى تعرضها السطور وربما جئت للقاء الشلة فى المقهى للتفرج عليها فلم تحتمل أى نقاش ..

وقال منير فى هدوء :

ــ هذا صحيح .. ولكن الفرجة لا تقلل من احترامى لما أتفرج عليه .. إنى عندما أقرأ كتابا لأتفرج على ما فيه فليس معنى هذا أنى أستهين بما أقرؤه أو لا أحترمه .. ولكنى لا أتعمد التأثر أو التحيز لما أقرؤه ولكنى

أترك الكتاب نفسه يحاول أن يرسّب فى عقلى ما يستطيع ترسيبه .. الكتب الوحيدة التى أحاول حفظها وفهمها متعمدا هى الكتب الدراسية حتى أضمن النجاح فى الامتحان .. وغالبا ما يحدث بعد الامتحان أن أنسى تسعين فى المائة مما قرأته وحفظته وأعود وكل إحساسى بها أنى سبق أن تفرجت عليها .. وقد تفرجت على شلة مقهى ييترو ولم ترحنى الفرجة .

وقال كمال هادئا :

ــ إن المتفرج أيضا له رأى فيما يتفرج عليه .. وقد يعبر عن رأيه قبل أن تنتهى المسرحية التى يتفرج عليها .. فيصفق مؤيدا .. أو قد يصرخ معترضا وهو جالس بين المتفرجين .. ولكن هناك ما هو أهم من ذلك .. فقد خفت أن تعتقد أن دعوتك للجلوس مع الشلة لتنضم إليها . أبدا .. لم أقصد ذلك مطلقا .. ولكنى أحسست منذ التقيت بك أننا يمكن أن نكون أصدقاء .. وقد دعوتك إلى الشلة لتعرفنى أكثر وتتسع صداقتنا .. ورأيك فى الشلة لا يؤثر فى هذه الصداقة .. المهم رأيك فىّ ..

وقال منير وهو يبتسم كأنه سعيد بهذا الكلام :

ــ أنا أيضا انجذبت إليك من أول لقاء وتفتح قلبى وعقلى لصداقتك رغم غرابة الآراء التى كنت أسمعها منك .. ولكنها غرابة تجعل الفُرجة أمتع والارتباط أقوى .. ولم أكن أتصور أن أكون صديقا لابن باشا ..

وقال كمال محتدا :

ــ إن كل من يعتبرنى ابن باشا لا يمكن أن يكون صديقا لأنه بذلك لا يعرفنى ..

وقال منير كأنه يعتذر :

ــ إنى نسيت انك ابن باشا منذ اللقاء الأول .. وربما لذلك أحسست

أن إحساس الصداقة ينمو ..

وطالت المناقشات بين الثلاثة حتى العاشرة مساء .. ومنير يحس أنه يزداد اكتشافا للعالم الجديد الذى ترسمه هذه المناقشات .. إلى أن وقف كمال يهم بالانصراف قائلا ضاحكا :

ــ أليس عندك كوب ماء يساعدنا على تحمل المشوار ؟ ..

وقال منير ضاحكا :

ــ عندى قلة ..

وأسرع وناول قلة الماء إلى كمال الذى أخذها وتحسسها بيده ثم قال :

ــ هائلة ... إنها صاقعة ..

ثم رفع القلة بعيدا عن شفتيه وفتح فمه وترك الماء ينسكب فيه من بعيد .. كأنه ابن بلد تعود على فن الشرب من القلل .. ثم وضع القلة مكانها ولمح كتاب كارل ماركس الذى أعطاه لمنير ملقى فى جانب من العشة فسأله ضاحكا :

ــ هل تفرجت على كارل ماركس ؟ ..

وقال منير فى بساطة :

ــ لقد أحسست أنك أعطيته لى لا للفرجة ولكن كأنك تكلفنى بعمل .. وأنا فى إجازة عن أى عمل ..

وقال كمال وهو يترك العشة :

ــ إنه فرجة ممتعة .

ولم يرد عليه منير وخرج معه ومع صديقه خليل من العشة وأوصلهما إلى الشارع الرئيسى .. والكلام لا ينتهى ..

وقد عادت علاقتهما كما كانت .. يلتقى بدلبر فى الصباح ثم يجلس مع

أحيانا كمال .. ووصل إلى أن قبل دعوته للغداء على الشاطئ .. لقد كان يرفض هذه الدعوة لأنه لا يستطيع أن يردها .. ولكن كمال دخل العشة وإن كان لم يقدم له إلا ماء القلة ولكن أصبح من الطبيعى أن يقبل دعوته ..

وقد تناولا الغداء وحدهما تجمعهما مائدة تحت الشمسية بعيدا عن الكابين .. اثنان من السفرجية يقومان على خدمتهما .. وقد ذهل من فخامة المعدات التى وضعت لهما .. إنها كلها معدات فضية وبينها لاقطة لصنف من الطعام يختلف عن الشوكة .. إنها مخصصة لالتقاط قطع « الاسبرج » التى تقدم فى أول الطعام مع السلطة .. وقد لاحظ كمال دهشته وحيرته فأخذ دون أن يصارحه يتعمد تعليمه كيف يأكل هذا الطعام بهذه المعدات .. فرفع اللاقطة ورفع بها قطعة الاسبرج ووضعها فى فمه .. ومنير يراقبه ثم يقلده .. وقد قدم إليه بعد ذلك حيوان البحر الذى عرف بعد ذلك أن اسمه « لانجوست » . وحاول أن يأكل ما فى باطن هذا الحيوان بالشوكة والسكين فلم يستطع كيف يرفع بالشوكة القطع التى يمكن أن يضعها فى فمه .. ولمحه كمال وهو يعانى اللخمة فألقى من يديه الشوكة والسكين وبدأ يأكل ما فى داخل اللانجوست بأصابعه .. واستراح منير وقلده ..

كل ذلك وهو فى دعوة على الشاطئ ولا يدرى ما يمكن أن يراه لو قبل دعوة مماثلة فى قصر العائلة فى القاهرة ..

وقد تزايدت راحته ومتعته الذهنية بصداقة كمال حتى إنه قرر أن يذهب مرة ثانية إلى مقهى بيترو ويلتقى بالشلة .. وقد حرص كمال خلال اللقاء ألا يعرضه لأى نقاش وتركه يتمتع بالفرجة الذهنية على ما يسمعه .. ولكنه لم يذهب إلى المقهى بعد ذلك .. يريد أن يوفر القروش التى يدفعها أجرا للانتقال ..

إن الميزانية التى وضعها لتقسيم الخمسة الجنيهات التى جاء بها حتى يستطيع أن يعيش فى الإسكندرية شهرا كاملا قد اختلت .. لم يبق منها سوى خمسين قرشا تكفى أجر القطار ليعود غدا إلى القاهرة ..

والتقى بدلبر فى الصباح لقاء البحر .. إنها لم تحاول أن تأتى مرة ثانية للقاء فى العشة .. ولم يكن ليطلب منها حتى يحرر نفسه من الأغراض الخاصة .. كان يكتفى بما تريده هى دون أن يطلب شيئا .. ويكفيه لقاء البحر .. وقال لها :

— إنى مضطر أن أعود غدا إلى القاهرة ..

وقالت فى دهشة :

— لماذا ؟

وقال وهو يدير عينيه بعيدا عن عينيها :

— لأنى مضطر ..

وترددت دلبر فيما تقوله له وكأنها فهمت أسباب سفره وابتعاده عنها :

— هل قلت لأخى كمال ؟ ..

. . وقال فى صوت خفيض :

— لا .. سأقول له اليوم ..

قالت كأنها ترجوه دون أن تفصح عن رجائها :

— قد يستطيع أن يقنعك بالبقاء ..

قال فى إصرار :

— مستحيل .. إنى مضطر .. (ثم خفف من صوته مستطردا) .. المهم .. كيف أتصل بك ؟ .. هل يمكن الاتصال بك ؟ ..

قالت كأنها صدمت :

— إننا تعودنا أن نبقى هنا إلى أوائل سبتمبر .. ثم نسافر إلى باريس لنشترى كما هى عادتنا .. ونعود آخر سبتمبر .. وأخى كمال لا يسافر عادة معنا .. وتستطيع أن تعرف منه أننا عدنا يوم نعود .. ثم تستطيع أن تتصل بى بالتليفون .. ولكن من الأفضل أن تتصل بى فى الساعة الثامنة مساء أو العاشرة ليلا لأنى فى هذه الساعات أستطيع أن أنفرد بالتليفون .. ولكن اسمع .. قد أستطيع أن آتى إليك فى القاهرة قبل أن نسافر .. كيف أتصل بك ؟ ..

وقال كأنه يسخر من نفسه :

— للأسف .. ليس عندنا تليفون .. الطريق الوحيد هو طريق البريد .. فيحمل لى البوسطجى خطابا منك .. وسأكتب لك العنوان .. ولكن .. ألا أستطيع أن أراك هذا المساء ؟ ..

وقالت فى أسى كأنها تهم بالبكاء :

— آسفة .. مستحيل .. إننا كلنا مدعوون هذا المساء .. ولا أعتقد أنى أستطيع أن أتحايل على ماما للهروب من هذه الدعوة ..

وقال وهو يتنهد :

— إذا فهذا آخر لقاء لنا فى البحر .. (ثم كأنه تنبه واستطرد قائلا) .. انتظرى هنا فى البحر وسأخرج لأكتب لك العنوان وأعود به إليك ..

وكان هذا آخر لقاء فى البحر ..

أيام جمعت بينهما فى حديث لا ينتهى ولم تشهد لهما إلا قبلة واحدة ..

وقد التقى بعدها بكمال وأبلغه خبر سفره .. وتلقى كمال الخبر ببساطة .. إنه واثق أنه يستطيع دائما أن يراه فى أى مكان .. وهو ليس مرتبطا بما يشغله عن أى لقاء يريده .. ليس مرتبطا بالبقاء مع العائلة فى

الإسكندرية ولا بالسفر معها إلى باريس .. إنه حر .. وقد اتفقا على وسيلة اللقاء بينهما فى القاهرة ..

وقضى منير طوال ليله يعد حوائجه التى سيعود بها .. ويعيش كل دقيقة مرت به خلال أيام الإسكندرية .. لقد وصل إلى عالم جديد .. والتقط عناصر سعادة جديدة لم تكن تخطر له .. وهو يحس بنغصة تعصر قلبه لأنه سيترك هذا العالم .. سيبتعد عن دلبر .. أول فتاة فى حياته جذبته إليها واستولت على فكره وإحساسه ..

ولكنه فى حاجة إلى العودة إلى القاهرة بسرعة .. لا لأنه أفلس .. إنما ليلتقى بصديق العمر عبد الله عبد اللطيف .. إنه لا يرتاح ولا يهدأ إلا مع عبد الله ..

وهو فى حاجة إلى أن يرتاح ويهدأ من هذه الزوابع التى تعصف به ..

يرتاح من زوبعة تعلقه بدلبر ..

ويرتاح من زوبعة حيرته فى كمال ..

سهر الليل ليلاس
www.lilas.com

(٤)

لقد بدأت أيام صداقته لمحمد عبد الله عبد اللطيف منذ كانا معا فى المدرسة الابتدائية .. وكانت مدرسة ملتصقة بشارع الحسنية وقريبة من باب النصر بحى الحسين فجمعت بين طلبتها كثيرين من أولاد البلد .. وكان عبد الله منذ صغره يحمل شخصية ابن البلد .. وشهامة ابن البلد .. وقوة ابن البلد .. وكان عبد الله قوى العضلات فعلا يستطيع أن يضرب ويمرمط خصمه فى أى خناقة تقوم بين الطلبة .. ولذلك كان منير يحس بأنه يعيش فى حمايته داخل المدرسة .. وكان عبد الله يحميه فعلا دون أن يمن عليه بهذه الحماية أو بفرضها عليه .. فقد كان عبد الله لا يتباهى بقوته ولا يتظاهر بها بل كان يكره الخناقات ولا يضع نفسه فيها إلا مضطرا .. ويا ويل من يعلن عليه عبد الله خناقة .. كان فى طبيعته يفضل الهدوء والجلسة الهادئة التى تجمعه بصديق يرتاح إليه .. وربما كان هذا هو ما جمعه مع منير .. فمنير أيضا يميل إلى الهدوء ولا يحب الخناقات بل يتعمد الهرب منها إذا ما اقتربت منه .. فإذا لم يتمكن من الهرب استسلم كل الاستسلام لحماية عبد الله ..

ورغم هذه الصداقة والارتياح المتبادل الذى يجمعهما طوال كل يوم من أيام المدرسة فقد كان بينهما خلاف كبير فى طبيعة كل منهما .. فمنير — مثلا — يهوى معرفة كل شىء وتجربة كل شىء .. أما عبد الله فلا يهوى المعرفة ولا يقدم على تجربة .. فقد قرر منير أن ينضم إلى فرقة الكشافة بالمدرسة فقط ليتفرج ويجرب .. وألح على صديقه عبد الله أن

ينضم معه ربما ليطمئن على نفسه بحمايته داخل فريق الكشافة .. ولكن عبد الله رفض وأصر على الرفض .. وقال ضاحكا :

ــ لماذا تريدنى أن أقبل تجنيد نفسى فى الجيش ؟ .. إنهم يخدعوننا فى الجيش باسم الكشافة .. وقد دفع أبى لأخى الأكبر مبلغا كبيرا حتى يعفيه من التجنيد .. فهل تريد أن يدفع أبى ليعفينى من الكشافة ؟ ..

وكان عبد الله يبدو أنه يعيش كل حياته وكل فكره وكل إحساسه داخل عائلته .. والشخص الوحيد فى الدنيا كلها الذى يحسب حسابه ويعتبره المثل الأعلى هو أبوه الحاج عبد اللطيف .. وبعد هذا فهو لا يشغل نفسه ولا فكره فى شيء .. حتى المدرسة .. لماذا يدخل المدرسة ؟ .. وماذا يستفيد من المدرسة ؟ .. إن أباه لم يدخل مدرسة ورغم هذا وفقه الله وجعل منه تاجرا ناجحا يملك محلا لبيع الأقمشة فى حى الحسين .. إنه ليس فى حاجة إلى مدرسة ، يكفى دائما الاعتماد على الله ..

وحدث فى يوم خميس وقد خرجا من المدرسة عند الظهر أن قال له عبد الله وهو يمسك بيده كأنه لا يريده أن يفر منه :

ــ تعال معى نزور الحسين ..

واستسلم له فى فرحة .. إنه لم يزر الحسين من قبل وإن كانت أمه قد صحبته مرة وهو طفل مع أخواته البنات لزيارة السيدة زينب .. وهو يريد أن يعرف ويتفرج على الحسين .. وقد طاف مع عبد الله مسجد وضريح الحسين وهو فى متعة الفرجة على الجديد مع متعة إحساسه بالإيمان الذى ولد به .. وبعد أن انتهيا من زيارة الحسين قال له عبد الله مبتسما وهو يشده من يده حتى لا يفر منه :

ــ تعال ترى أمى .. ونرى ما تقدمه لنا لنأكل ..

وحاول منير أن يعتذر بأنه يجب أن يعود إلى بيته .. ولكن عبد الله أصر .. ومنير استسلم لأنه يريد أن يتفرج .. وسارا إلى حارة الشيخ حجازى القريبة من الحسين .. وهى إن كانت حارة ضيقة إلا أنهم أحيانا يسمونها شارعا لأنها مفتوحة من الناحيتين .. وصعد به عبد الله إلى الدور الثانى من البيت دون أن يصيح بما يعلن وصوله .. ربما لأن عبد الله ليس له أخوات بنات يخاف عليهن من رؤية غريب .. فلم يتعود أن يصيح معلنا وصوله ..

والأم سيدة سمينة مسرفة فى السمنة .. ولكن وجهها بشوش طيب ترتسم عليه ابتسامة طيبة هادئة حتى ولو لم تعبر عنها شفتاها .. وقد استقبلت منير صديق ابنها بترحاب واسع صادق .. أهلا .. يا ألف مرحب .. زيارة مباركة .. ربنا يفتحها عليكما ..

وقال عبد الله كأنه رجل البيت :

ــ نريد الغداء يا أمى ..

وصاحت الأم فى فرحة :

ــ حاضر ياسى عبده .. من عينى ..

إن الأم تعامل ابنها كأنه فعلا رجل البيت .. وتحادثه وهو معه كأنهما رجلان كاملان وليسا صبيين صغيرين .. وقارن منير بينها وبين أمه .. إن أمه لا تزال تعامله كأنه صبى صغير بل تشخط فيه أحيانا كأنه طفل .. ولا يمكن أن يدعو أحد أصدقائه إلى الغداء فى البيت إلا إذا كان قد اتفق معها من قبل .. ولم يصل إلى مثل هذا الاتفاق لأنه لم يحاول أبدا أن يدعو أحد أصدقائه إلى الأكل .. إلا إذا خطف لقمة أو حبة وجدها من حبات الفاكهة وتقاسمها معه .. بل قد يبقى معه أحد اصدقائه من أبناء الحى إلى أن

يحين موعد الغداء فتدخل عليهما أمه وتقول لصديقه كأنها تطرده حتى توفر ما يمكن أن يأكله :

ـــ اذهب أنت إلى مامتك يا حبيبى .. لعلها بدأت تسأل عنك ..

وقد غابت عنهما أم عبد الله طويلا .. لعلها كانت تعد أصنافا جديدة من الطعام ترحيبا بصديق ابنها .. وقد فوجئ منير بكثرة الأصناف عندما دعى إلى تناول الغداء .. إنها أضعاف ما يقدم على مائدة عائلته .. كل شىء يخطر على باله .. لحم وفراخ .. وأرز ومكرونة .. وملوخية وبامية .. وكثير من الحلو .. وبطيخ ومشمش .. وأكل حتى لم يعد يستطيع أن يستجيب لإلحاح عبد الله وأمه بأن يأكل أكثر .. وأسعفه عبد الله بزجاجة الغازوزة التى طلبها من أمه آمرا فى لهجة رجل البيت ..

وبعد الغداء بقليل قال له عبد الله :

ـــ تعال نذهب إلى المحل لأعرفك بأبى ..

والمحل على بعد خطوات من البيت وعلى شارع أوسع .. شارع الحسين .. والحاج عبد اللطيف رجل جاد .. ضخم وفخم .. يرتدى جلبابا يبدو من الطراز الثمين الغالى .. وقد رحب بصديق ابنه مصافحا ثم ربت على وجهه كأنه فرح به فرحته بابنه .. وقد عرف منير مع الأيام كل شىء عن الحاج عبد اللطيف .. لقد بدأ حياته عاملا كواء .. ثم استطاع أن يمتلك محل كواء يعمل فيه بنفسه إلى أن بدأ يستأجر له العمال .. واشتهر ككواء إلى أن استطاع أن يجمع دخلا من مهنته افتتح به محل بيع الأقمشة .. أقمشة للنساء وللرجال .. ولا يزال يحتفظ بمحل الكواء .. ولا يزال يتبع فيه الطريقة القديمة فى الكى .. مكواة عريضة يمسك العامل بطرفها الطويل ويدوس عليها بقدمه .. إنها لا تزال الطريقة الأصح والأجدى فى كى الملابس

خصوصا الجبب والقفاطين .. وعبد الله يقول عن أبيه إنه لا يزال كواء رغم أن دخله ومكاسبه أصبحت أكبر من بيع الأقمشة .. بل إنه يقضى معظم وقته فى محل الكواء ويترك محل التجارة لأولاده الكبار ..

وقد عرف منير كل أفراد عائلة صديقه عبد الله .. كل إخوته .. وأصبح يتردد كثيرا عليه دون أن يحس بأى حرج .. إن كلهم يرحبون به دائما .. ويفرحون به .. ويحبونه .. والأكثر من ذلك أنهم يحترمونه .. كأنه من عائلة مفروض احترامها .. ولم يشعر أبدا بحاجته إلى أن يرد الدعوة لعبد الله .. لقد صحبه مرات إلى بيته وقدمه إلى أمه .. بل إنه مع الأيام قدمه لأخواته البنات .. وأمه كانت تستقبله بلا اهتمام ولم تحاول أن تدعوه مرة إلى الغداء .. مرة واحدة قدمت له زجاجة غازوزة .. وأخواته البنات لم يرحبن به لأنهن اعتبرنه منذ النظرة الأولى .. أنه بلدى .. وعلى كل حال فإن عبد الله نفسه لم يكن يبدو سعيدا مطلقا عندما يزور منير .. ولا منير نفسه كان ينطلق فى هذه الزيارة .. كان انطلاقهما وإحساسهما بمنتهى عدم الكلفة لا يعيشان فيه إلا إذا كان منير بين عائلة عبد الله .. وقد وصل رفع الكلفة بمنير إلى أن أصبح يعتبر أم عبد الله كأنها أمه .. ويطلب منها كأنه ابنها ..

وقد بدأ أيضا يلتقى بعبد الله فى المساء خصوصا مساء يوم الخميس الذى يباح فيه السهر لإجازة الجمعة .. وكانا يذهبان معا إلى السينما .. أو يتفرجان على شوارع المدينة ويأكلان الساندوتش .. إلى أن صحبه عبد الله يوما للسهر فى مولد الحسين .. ودخلا فى صوان مقام أمام مقهى كان يجلس فيه أحمد شقيق عبد الله الأكبر .. وكانت تدور بين الجالسين جوزة .. عرف منير منها أنهم يدخنون الحشيش .. وقدم أحمد الجوزة لمنير قائلا وهو يضحك :

ـــ شد يا سى منير .. جرب ..

وأمسك منير بطرف الجوزة وشد نفسا .. إنه يدخن الحشيش رغم أنه فى الثانية عشرة من عمره .. ولكن الجميع يعتبرون أن الحشيش مباح لكل من يستطيع أن يشد أنفاسه .. وهو ليس حراما مهما فعل بالحشاش .. ليس كالخمر .. فلم يرد عليه نص فى القرآن .. وقد دخل فى تجربة تدخين الحشيش مرة ثانية وثالثة ولكنه لم يعجبه ولم يدمنه ولم يعد يطيق تدخينه .. إنما أصبح يكتفى بالفرجة على الحشاشين .. إن عبد الله أيضا لا يطيق تدخين الحشيش ولم يدمنه ..

وكان أكثر ما يربط منير بعائلة عبد الله هو احترامهم له الذى ينبض مع حبهم .. إنهم يعاملونه مع إبراز هذا الاحترام .. كأنهم متشرفون به يتباهون بصداقته .. كأنه فعلا من طبقة تستحق الاحترام .. وعندما بدأ فكر منير يتفتح قدر أن عبد الله وعائلته يضعونه فعلا فى طبقة أخرى غير طبقتهم .. رغم أن عائلة الحاج عبد اللطيف أغنى قطعا من عائلته .. ولكن الفارق بين الطبقات ليس فقط قيمة الإيراد .. ولكنه الفارق فى المظاهر الطبقية .. وعائلة الحاج عبد اللطيف من طبقة أولاد البلد .. أما عائلة غانم فهى من طبقة الأفندية .. طبقة حضرات المحترمين موظفى الحكومة .. ومظاهر طبقة الأفندية تطورت إلى أرقى مما تطورت إليه طبقة أولاد البلد .. لقد هاجر الأفندية من أحياء الحسين والدراسة وباب الخلق وانتقلوا إلى الأحياء الحديثة .. إلى العباسية والظاهر وبعضهم وصل إلى مصر الجديدة .. كما هجروا الجلباب وأصبحوا يعيشون بالبدلة الأوربية والبيجاما .. و .. و .. وأصبح للأفندية دنيا تختلف عن دنيا أولاد البلد .. وهى وإن كانت تبدو دنيا أكثر تقدما إلا أنها دنيا بلا أصالة .. وبلا عراقة .. وبلا تقاليد تقوم على مبادئ .. إنها صورة مهتزة باهتة من دنيا الخواجات الذين يحتلون مصر .. وكل

الفارق يقوم بين المظاهر الطبقية .. لا على مستوى الدخل أو رأس المال الطبقى .. إن بين أولاد البلد من هم أغنى من الأفندية .. وبين الأفندية من هم أغنى من الباشوات .. ولكن الفارق هو فى اختيار مظاهر الحياة .. ربما كان الفارق بين منير وصديقه الجديد كمال يحيى الروزنامجى ليس فى أنه فقير وكمال غنى .. فقد قبل الفقر والغنى أن يتصادقا على مستوى واحد .. ولكن لا تزال مظاهر حياة كل منهما تفصل بينهما .. إن هذه المظاهر هى التى تعكر صفو حبه لدلبر أخت كمال ..

ورغم ذلك كانت صداقته لعبد الله أقوى من المظاهر .. إنها صداقه تدعمها الرجولة المبكرة .. والشهامة .. والترفع غير المتعمد عن كل ما يمس طهارة النية ونظافة الضمير ..

ولم يحصل عبد الله على شهادة الابتدائية .. رسب فى الامتحان .. ولم يفكر فى أن يعيد السنة الدراسية بل تفرغ للعمل مع أبيه فى دكان بيع الأقمشة .. وأبوه أيضا لم يكن يريده أن يحصل على شهادات .. من الأجدى أن يتفرغ للعمل معه حتى يتعلم البيع والشراء ويفهم أسرار السوق بعد أن وصل إلى سن يستطيع فيها أن يفهم .. أما منير فقد حصل على الشهادة الابتدائية .. وبتفوق .. حتى إنه حصل على مجانية التعليم لتفوقه ..

ورغم أنهما فقدا مجتمع المدرسة إلا أن صداقتهما لم تهتز ولم تضعف .. كان منير يذهب إلى عبد الله ويجلس معه فى الدكان .. خصوصا فى أيام الخميس والجمعة .. ويجلس معه طويلا حتى دون أن يجمعهما حديث .. فعبد الله مشغول دائما باستقبال الزبائن والتفاهم معهم .. ومنير يراقب عملية البيع والشراء بدافع طبيعته التى تهوى المعرفة والفرجة .. بل كان أحيانا يحاول أن يجرب بنفسه أن يكون بائعا .. فيشترك فى استقبال الزبائن والتعامل

معهم .. وعبد الله يتركه يتصرف كأنه يعتبره هو أيضا صاحب الدكان .. وكان عبد الله يغلق الدكان فى الساعة الثانية بعد الظهر ثم يسحب منير إلى بيته لتعد لهما أمه طعام الغداء .. ويجلسان فى حديث لا ينتهى ولا شىء فيه سوى أنه يجمعهما .. ثم يعود عبد الله فى الساعة الخامسة يفتح الدكان ويعود منير يمتع نفسه بالمعرفة والفرجة ..

ولكن حدث شىء جديد .. فمنير بدأ يهتم بتتبع الأحداث السياسية كما تصل إلى الطلبة .. ويحرص على حضور الاجتماعات التى يعقدها الطلبة ويشترك فى المظاهرات .. ولكنه لم يكن يحاول أن يتظاهر بوطنيته أو يتحمل مسئوليات مباشرة .. أى لم يكن يحاول أن يقود الطلبة فى المظاهرات .. أو يلقى فيهم خطابا من الخطب الوطنية التى تدعو للجهاد .. أو حتى يبدأ بهتاف يردده الطلبة من ورائه .. إنه يعيش بدوافع وطنية قوية ولكن هذه الدوافع تنحصر فى طبيعة حب المعرفة والفرجة والتجربة .. ولكن عبد الله لا يهتم إطلاقا بالسياسة ولا بما يجرى فى شوارع القاهرة .. وكان منير يناقشه طويلا دون أن يستطيع إثارة اهتمامه أو شده إلى هذا المجال .. وقد قال له يوما :

— لماذا لا تجمع شباب الحسين ليشتركوا فى المظاهرات التى سيقوم بها الطلبة يوم السبت ؟ ..

وقال عبد الله ساخرا :

— وماذا يفعل أهل الحسين بهذه المظاهرات ؟ .. بل ماذا يفعل بها الطلبة ؟ .. إنهم يضربون فى البوليس .. والبوليس يضرب فيهم .. ثم لا شىء أكثر .. وكأننا يا سى منير لا رحنا ولا جينا ..

وقال منير فى حماس :

— إننا نحارب الإنجليز من أجل الجلاء .. والمظاهرات تثبت لهم أن لنا رأيا .. حتى لو كان مجرد رأى ..

وقال عبد الله فى بساطة :

— الإنجليز لا يتعبوننا .. ولكن الذين يخربون بيوتنا هم اليهود .. حتى إن أبى الحاج عبد اللطيف يكاد يجن منهم .. إنهم هم الذين يستولون على كل الأقمشة التى تصل إلى مصر ويبيعونها لنا ويتحكمون فينا .. ونكاد نقبل الأيدى حتى يرحمونا .. حتى إن الحاج عبد اللطيف بدأ يفكر فى أن يتفق مع يهودى يعرفه واسمه ساسون ليدخل معه شريكا فى الدكان .. حتى يستطيع أن يتفاهم له مع اليهود .. فلليهود لغة لا يجيدها ولا يفهمها المسلمون .. لو كانت مظاهرات على اليهود لاشترك فيها كل أهل الحسين ..

إن عبد الله يحصر كل فكره وإحساسه داخل دكانه .. والإنجليز كما يتصور لا علاقة لهم بالدكان ولكنهم اليهود .. وهم يهود مصريون لا إنجليز ..

ومنير لا يغضب من عبد الله مهما اشتد النقاش .. إنه حر فى رأيه كما أنه هو نفسه حر فى رأيه ..

وقد دهش منير عندما قال له عبد الله إنه سيتزوج .. ما حاجته للزواج وهو لا يزال فى السادسة عشرة ؟ .. ربما أراد أبوه أن يزوجه حتى يحميه مما تعرض له ابنه الأكبر أحمد الذى عرف عنه أنه يخالط العوالم .. وقد صحب عبد الله منير لزيارة العروس يوم كتب الكتاب الذى تم قبل الزفاف ... يجب أن يرى أخاه عروسه .. إن منير ليس غريبا عنه حتى يخفى عنه نساءه ونساء العائلة .. وقد عرف منير أنها ابنة من بنات حى الحسين ..ورغم ذلك فهى بيضاء فاقعة البياض وشعرها أصفر .. وعبد الله فرح بها منتهى الفرح وبدأ

يذوب فيها .. إن نقطة ضعف رجال الحسين أنهم يفضلون فى المرأة اللون الأبيض ويضعفون أمامه .. وبين أهل الحسين بنات بيضاوات وشقراوات .. ربما كن من سلالة أيام حكم الأتراك .. ولكن عبد الله كان يعتبر أنَّ عروسه هى الوحيدة البيضاء الشقراء فى الحى كله .. وقد خصه الله بها ..

وأقيم حفل واسع للزفاف دعى إليه أهالى الحى كله .. وطبعا كان منير أول المدعوين وقد دعيت معه عائلته كلها .. ولكن العائلة اعتذرت .. فامه وأخواته البنات لا يربطهن بعائلة الحاج عبد اللطيف شىء ولسن من هواة الفرجة .. وأبوه لا يحب أن يكلف نفسه ما هو خارج عن حياته حتى لو كان مجرد التمتع بالفرجة .. وليس لمنير أخ يصحبه .. فذهب وحده .. واهتم صديقه عبد الله به أمام كل المدعوين حتى كان يصر طوال الحفل على أن يجلس بجانبه .. كأنه يريد أن يتباهى به أمام أهل الحى .. وكل ما لفت نظر منير أنه رأى الأستاذ منصور أحمدين بين المدعوين .. إنه شخصية معروفة من شخصيات الإخوان المسلمين .. إن منير لم يكن يعرف أن الأستاذ منصور من أصدقاء عبد الله أو من أصدقاء العائلة .. لم يحدثه عبد الله عنه أبدا رغم أنه شخصية تستحق الحديث .. وكان الأستاذ منصور يجلس بين اثنين مطلقا شعر اللحية .. ربما كانا هما أيضًا من الإخوان المسلمين ..

وقد مال منير أثناء الحفل على أذن عبد الله يسأله عن الأستاذ منصور .. وقال عبد الله هامسا :

ـــ إنه معرفة جديدة .. وهو رجل فاضل .. لقد أسرنى بكلامه ..

وقال منير كأنه يتنهد :

ـــ إنه من الإخوان ..

وقال عبد الله وسعادته تكسو لمحاته :

ـــ أى من المؤمنين ..

وقال منير فى دهشة :

ـــ وكيف عرفته ؟

وقال عبد الله كأنه يهدئ صديقه :

ـــ غدا تعرفه كما عرفته ..

وضاع الحديث بين ضجة الحفل ..

وقد أصبح عبد الله يعيش حياة جديدة بعد زواجه رغم أنه كان يقيم فى نفس البيت مع أمه وأبيه .. وقد توفى الحاج عبد اللطيف بعد زواج ابنه بشهور .. وحزن عليه منير حزنا صادقا فقد كان قد وصل معه إلى الإحساس به كأنه أبوه أيضا وليس أبا عبد الله وحده .. وقد اتفق عبد الله مع أخيه أحمد بعد الوفاة على أن يكون هو المسئول عن محل الأقمشة .. فقد كان هو الأقدر فعلا على إدارة المحل رغم صغر سنه والأكثر تفرغا عن أخيه الذى يعيش عالم العوالم والراقصات .. عالم الليل .. وكان أهون عليه أن ينفرد بمسئولية محل الكواء ..

ولم يؤثر هذا التطور على الصداقة بل الإخاء الذى يربط بين عبد الله ومنير .. ولا يزال منير يترك دنيا زملائه الطلبة وعالم المدرسة والدراسة ويذهب إلى عبد الله ليجلس فى الدكان ويتناول معه الغداء وهو يحس أن هذه هى الدنيا الوحيدة التى يستريح فيها ويسكت من الزوابع التى تعصف برأسه .. زوابع يثيرها كل ما يسمعه وكل ما يراه ..

وقد التقى فى دكان عبد الله بالأستاذ منصور أحمدين عضو الإخوان المسلمين .. ومرات يذهب إلى بيت عبد الله ليتناول طعام الغداء فيجد

الأستاذ منصور مدعوا معه .. وقد دخل معه فى مناقشات كثيرة .. ولم يكن عبد الله نفسه يشترك فى هذه المناقشات رغم أن منير عرف أنه انضم إلى الإخوان المسلمين .. ولكن عبد الله لم ينضم إلى الإخوان على أنه رجل سياسة بل انضم إليهم بدافع إيمانه كمسلم .. الإيمان الذى يتمكن منه يوما بعد يوم .. حتى أصبح مفرطا فى أداء الصلاة وبقية شعائر الدين إلى حد الوصول إلى مظاهر لا يقتنع بها منير كشعائر دينية بل يعتبرها استغلالا للدين .. وكان عبد الله قد بدأ يتبرع بكل ما يملك التبرع به للإخوان .. ولكنه أيضًا لم يكن يدفع أمواله لتحقيق هدف سياسى .. بل كان يدفع تقربًا إلى الله وكما يدفع الزكاة لفقراء حى الحسين ..

وهذا الخلاف بينه وبين عبد الله أصبح منير كلما التقى بالأستاذ منصور ينفرد بمناقشته كأن عبد الله لا يجلس معهما .. وعبد الله نفسه لا يهتم بتتبع هذه المناقشات .. وقد أحس منير بتقدير كبير للأستاذ منصور .. إنه يناقش فى هدوء وآراؤه ومعلوماته واسعة تشمل الحياة كلها وكل متطلبات الحياة .. وهو ليس متطرفا أو متحزبا حتى فى إسلامه ولكنه قادر على أن يضع كل موضوع داخل حكم الإسلام .. وكان منير يفهم من كلام منصور كأنه يحاول أن يقنعه بالانضمام إلى الإخوان .. ومنير يرفض كمبدأ عام وضعه لنفسه أن ينضم إلى الإخوان أو إلى أى تجمع أو حزب سياسى .. ليس لأنه غير مقتنع بها كلها وإنما فقط ليحتفظ لنفسه بحريته فى تكوين رأيه وفى أن يعيش هذا الرأى .. إنه يأخذ من كل تجمع أو من كل حزب ما يقنعه ويرفض ما لا يقنعه .. وهو حر .. وكل الأحرار من حقهم أن يعبروا عن حريتهم بتشكيل جماعة أو حزب وتحديد الطريق أمام جماعتهم أو حزبهم .. فهو لا يرفض قيام تنظيم الإخوان المسلمين .. إن هذا من حقهم .. وهو

يحترم ويؤيد هذا الحق .. ولكنه هو أيضًا حر فى الانفراد بحريته بعيدا عنهم وعن كل التنظيمات .. وقد فهم الأستاذ بسرعة أن منير يرفض الانضمام إلى الإخوان ولكن هذا الرفض لم يغير من إحساسه به وتركه يرفض كأنه يصون ويحترم حريته ..

وقد قال له منير فى إحدى مناقشاتهما :

ــ إنكم تطالبون بفرض الشريعة الإسلامية ولكن بجانب الشريعة هناك العلم الذى أصبحت كل الدول القوية تعتمد عليه فى بناء نفسها وصيانة وجودها ..

وقال الأستاذ منصور فى هدوء :

ــ كل ما يمكن أن يصل إليه العلم يمكن أن يصل إليه من خلال الإسلام ونصوص القرآن .. إن الإسلام دين ودنيا .. وقد استوعب كل ما يمكن أن يحققه الدين وكل ما تحتاج إليه الدنيا فى يومها وفى غدها ..

وقال منير كأنه يتحدى الأستاذ :

ــ إن المسلمين إلى الآن لم يصلوا إلى العلم الذى يحدد لهم أيام التواريخ .. تاريخ الشهر الإسلامى .. إنهم مستسلمون للنص على الشهر برؤية الهلال القمرى رؤيا العين المجردة .. وبعد آلاف السنين اقتنع بعض رجال الدين بأن العين لا تعنى العين المجردة .. بل تعنى كل ما يصل إلى العين .. فاستعانوا على رؤية الهلال بالنظارة المعظمة .. ولكنهم إلى الآن لم يستعينوا بالتلسكوب .. بل حتى نتائج مصلحة الأرصاد التى تقوم على الحسابات العلمية يمكن أن تعتبر رؤيا للعين .. لأن ما يصل إليه الفكر يعتبر رؤيا للعين .. ولكن الإسلام يرفض العلم .. لذلك فالشهور المسيحية محددة منظمة طوال العام بحيث لا يتعب فيها من يعتمد عليها .. أما الشهور

الإسلامية فلا تزال محيرة .. لا يدرى المسلم متى يبدأ الشهر ولا متى ينتهى .. لذلك لجأ المسلمون إلى الشهور المسيحية التى يحددها العلم .. ولم تعد للشهور الإسلامية قيمة إلا قيمة التبرك بالمناسبات .. كالتبرك بشهر رمضان ..

وقال الأستاذ مبتسما فى هدوء :

ـــ إن الإسلام يبشر بكل ما يمكن أن يصل إليه العقل من علم .. وبين الذين اكتشفوا ووضعوا الأمور العلمية التى يقوم عليها العلم حتى اليوم علماء مسلمون .. إن الإسلام يفسح مجال العبقرية التى يهبها الله لمن يختارهم من خلقه .. وما نعانيه ليس فى الإسلام ولكنه فى تعارض تفسير النصوص الشرعية بين العقول الضيقة والعقول الواعية .. وهذا ما نتمناه وندعو إليه .. وهو وحده التفسير للإسلام بين المسلمين ..

وقال منير وهو يسخر من الأستاذ :

ـــ ولهذا يجب أن يصل الإخوان المسلمون إلى الحكم ويتولوا الوزارة حتى يفرضوا وحدة التفسير ..

وقال الأستاذ منصور فى حدة وإن كانت بلا غضب :

ـــ ليس من أهداف الإخوان الوصول إلى الوزارة .. ولو كان حسن البنا يريد أن يكون وزيرا لحول جماعة الإخوان إلى حزب سياسى كباقى الأحزاب .. ولوصل إلى أن يكون رئيسا للوزراء وكل من معه وزراء .. بل إن الوزارة كانت دائما إحدى المغريات التى يعرضونها على حسن البنا ليكسبوا تأييده ورضاه .. ولكن لا حسن البنا ولا كل من فى الإخوان يمكن أن ينزلوا إلى مرتبة الوزراء .. بل إننا فيما بيننا قررنا أن كل من يقبل أن يكون وزيرا يعتبر خارجا على الإخوان .. فهدف الإخوان هو أن يكونوا قوة شعبية تفرض على الحاكم تطبيق الشريعة الإسلامية .. وتراقبه .. وتحاسبه .. حتى لا يتجرأ على الإسلام مستهينا به متحديا شريعته .. ونحن نؤمن أن ما أصاب الإسلام والمسلمين يرجع إلى أخطاء الحاكم لا إلى أخطاء أو إلى نقص فى شريعة الإسلام .. وفى التاريخ منذ أيام معاوية بن أبى سفيان والحكام المسلمون يخطئون فى حق الإسلام ويتعمدون وضع التفسيرات التى تحقق مطامعهم حتى مع صفاء نياتهم .. وليس هناك وسيلة لحماية الإيمان بالدين إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية .. وأن يكون الشعب المسلم من القوة والوحدة حتى يستطيع أن يراقب الحاكم ويحاسبه ويفرض عليه الشرع .. وهذا ما يسعى إليه الإخوان .. أن يكونوا الشعب المسلم لا حكاما على المسلمين ..

وقال منير وكأنه لا يزال فى حاجة إلى المعرفة وإلى إشباع هواية الفرجة حتى لو كانت فرجة على الآراء :

ـــ إن الشريعة تفرض على الحاكم نظام الشورى .. ولكنى أفهم كلمة الشورى على أنها الاستماع إلى الرأى لا الخضوع له .. أى أن من واجب الحاكم المسلم أن يستمع إلى رأى شعبه ولكنه ينفرد بحق الاختيار بين ما يسمعه من آراء حتى لو اختار رأيا لم يسمعه ..

وقال الأستاذ مبتسما كأنه يشفق على منير من جهله :

ـــ إن كل النظم التى تقوم فى كل العالم وتسمى بالديموقراطية هى نظم تقوم على الشورى .. وكان الإسلام هو أول من دعا إليها فلم تكن هناك قبل الإسلام ديموقراطية .. والشورى تقوم على التنظيم والقانون .. ويمكن دائما أن يقوم التنظيم بحيث يفرض رأى الأغلبية على الحاكم ويحرم عليه حق الانفراد بالرأى .. حتى قانون الانتخاب القائم هذه الأيام ويؤدى إلى اختيار أفراد مجلس الشورى الذى يحمل اسم « برلمان » .. حتى قانون الانتخاب فى

حاجة إلى تغيير وتعديل حتى يتفق مع الشريعة الإسلامية ويحرم على الحاكم التزييف والتزوير .. فهو يزور ويزيف الشريعة نفسها .. ويصل بأفراد إلى مجلس الشورى لا يصلحون ليكونوا مستشارين إسلاميين يحققون جدوى الشورى ..

وقال منير كأنه لا يزال يتعمد إثارة الأستاذ :

ـــ ما دمنا نتحدث عن الشورى .. فمن يمثل الإخوان من المسلمين .. أيمثلون أهل السنة أم أهل الشيعة أم الدروز أم العلويين أم الإسماعيليين .. إن الإسلام منقسم إلى طوائف ومذاهب وأحزاب .. حتى أصبحنا نقول إن كل بلد إسلامى له إسلامه ..

ولم يثر الأستاذ واستمر هادئا قائلا :

ـــ هذا ما حدث فى جميع الأديان .. فالمسيحية منقسمة إلى كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت .. و .. و .. واليهودية أيضا منقسمة فى داخلها .. حتى العقائد السماوية منقسمة إلى طوائف ومذاهب .. وهو انقسام ليس انقساما حول الإيمان بالله والإيمان برسله ولكنه انقسام قام على الظروف المحلية لكل شعب أو كل طائفة مع وحدة الدين .. وقد شهد التاريخ حروبا بين هذه الطوائف رغم انتمائها لدين واحد .. والمسلمون هم الأقل فى خلافاتهم والأقل فى الحروب التى قامت بين بعضهم البعض .. وذلك لقوة الإيمان بأصول الدين ومبادئه .. والإيمان بآخر الرسل والنبى الواحد .. ونحن نعتقد أننا إذا وصلنا إلى تحقيق وتطبيق الشريعة الإسلامية حققنا وطبقنا وحدة الإسلام .. وأصبحت هذه المذاهب لا تمثل انقساما فى الإيمان ولكنها تمثل انقساما طبيعيا محليا بين شعوب كل بلد ويصبح انقساما طائفيا وليس انقساما دينيا .. كالانقسام بين الصعايدة والبحاروة فى مصر ..

وقال منير بسرعة :

ـــ إن مصر ليس كل أهلها مسلمين .. إن بينهم الأقباط .. أى انقسام فى الدين لا يمكن أن يعتبر مجرد انقسام طائفى ..

وقال الأستاذ منصور أحمدين فى هدوء :

ـــ إن الإسلام ترك للفرد حرية الإيمان بالدين الذى يختاره ما دام الله لا إله إلا هو ..

وقال منير كأنه ينبه الأستاذ :

ـــ مع فرض الجزية على غير المسلمين ..

وقال الأستاذ ضاحكا :

ـــ لقد تطور المفهوم منذ زمن طويل .. فالجزية أصبحت تسمى ضرائب .. وكل أفراد الشعب يطبق عليهم قانون واحد للضرائب يتساوون به جميعا .. مسلمون وأقباط ويهود !..

ويستمر النقاش ..

إنه لا ينتهى أبدا ..

ومنير يحس فى كل مرة يناقش فيها الأستاذ منصور أحمدين بأنه يزداد معرفة ويتفرج على مشاهد جديدة من العالم الذى يمثله الأستاذ .. وكان يلتقى به غالبا فى دكان عبد الله ولكنه كان عندما يغيب طويلا يطلب من عبد الله أن يبحثا عنه .. بل إنه ذهب مع عبد الله مرتين أو ثلاثا إلى اجتماعات عامة فى مبنى جماعة الإخوان .. وكان هو وعبد الله يجلسان صامتين يستمعان .. ولكنه كان يفهم مما يسمعه غير ما كان يفهمه عبد الله ..

ولكن معرفته بالأستاذ منصور أحمدين لم تصل إلى حد الصداقة الشخصية التى تجمعهما وترفع الكلفة بينهما .. ولكنها كانت معرفة تحمل تقدير كل منهما للآخر .. وظلت الصداقة الشخصية الخاصة قاصرة على

عبد الله وحده .. إنه وحده الذى يطمئن إليه منير ويسعى إليه ليرتاح ويهنأ بحبه واحترامه لا ليناقشه أو ليزداد معرفة ويتفرج ..

وعندما عاد من الإسكندرية ورأسه يضج بكل هذه الزوابع هرع إلى عبد الله وجلس معه فى الدكان بعد تبادل قبلات الشوق بعد غيبته الطويلة وإن كانت لم تستمر سوى عشرين يوما .. إلى أن صحبه عبد الله إلى البيت ليفرح بلقاء العائلة .. إنها عائلته أيضا وليست عائلة عبد الله وحده .. وبعد تناول طعام الغداء انفرد منير وعبد الله يتناولان الشاى .. وقال منير مترددا على غير عادته عندما يحادث عبد الله وإن كان يخفى تردده بابتسامة مفتعلة :

ــ لقد بدأت أفكر فى الزواج ..

وقال عبد الله فى فرحة صارخة :

ــ يا ألف مبروك .. إن الزواج نعمة وستر .. سأنادى أمى لتزغرد لك .. ولكن ما الذى دفعك إلى التفكير فى الزواج بعد أن كنت تعايرنى به ؟..

وقال منير وهو يحنى رأسه كأنه خجل من نفسه :

ــ لقد وجدت من دفعتنى إلى التفكير فى الزواج ..

وقال عبد الله بفرحته :

ــ من أى عائلة ؟..

وقال منير كأنه يحادث نفسه :

ــ إنها ابنة يحيى باشا الروزنامجى .. عضو الوفد الذى كان وزيرا ..

وانضمرت فرحة عبد الله وقال كأنه صدم :

ــ وكيف عرفت الباشوات ؟..

وقال منير بصوته الخافت :

ــ رأيتها وعرفتها فى الإسكندرية وأخوها أصبح صديقا .. صديقا جدا ..

وقال عبد الله جادا :

ــ إذا كنت تفكر فعلا فى الزواج من ابنة الباشا .. فاعدل حالا عن هذا التفكير ..

وقال منير فى حدة كأنه يدافع عن كرامته :

ــ هل أعدل لأنها ابنة باشا .. وهى غنية وأنا فقير ؟..

وقال عبد الله وهو أيضا يحتد :

ــ سواء كنت غنيا أو فقيرا فهذا الزواج لا يصلح لك .. الزواج ليس مجرد الجمع بين رجل وامرأة .. إنه الجمع داخل مجتمع واحد .. بل داخل حى واحد .. حتى يمكن أن يحقق الألفة بين الزوجين وكل منهما يسعد الآخر .. فأين هذا المجتمع الواحد الذى يضمك أنت وابنة الباشا ؟.. وأين الحى الواحد الذى نشأتما فيه .. أو حتى الحب المتقارب ؟.. لقد عرض علىَّ أن أتزوج من بنات أفندية .. ومن أحياء بعيدة عن حينا .. ولكننى كنت أرفض .. وحتى لم أفكر فى أن أطلب منك الزواج بإحدى أخواتك رغم أنى أشيد بهن أمام أمى ورغم أن صداقتنا وعشرتنا التى أعتز بها تتأكد بأن أناسبك بالزواج .. ولكنى لم أفكر أبدا فى أن أناسبك .. لأن عائلتك تعيش مجتمعا آخر ، ولأن حيكم ليس حينا .. واخترت زوجتى فاطمة لأنها تعيش معنا ولأنها من حينا .. حى الحسين .. ربما لو كانت فاطمة من حى السيدة لما تزوجتها ..

ودهش منير مما يسمعه .. إن صديقه عبد الله متحزب طبقيا .. إن

الإحساس الطبقى لدى الناس العاديين أقوى منه لدى أولاد الذوات .. لدى الطبقة العليا .. وربما كان الناس العاديون يريدون إنزال الطبقة العليا إليهم لا أن يرتقوا هم إليها .. بل إن عبد الله يتحزب حتى للحى الذى يقيم فيه حتى يرفض الزواج من حى آخر .. وقال وهو يحاول أن يكون هادئا :

ـــ إنك تبالغ .. لا فارق بين المجتمعات ولا بين الأحياء .. إنما الفارق بين كل شخص وآخر فى عقليته وشخصيته وفيما استطاع أن يحققه فى حياته .. إن والدك كان عاملا ولكنه الآن من رجال الأعمال .. وصداقتنا التى أعتز بها قامت رغم الفارق بين مجتمع أولاد البلد ومجتمع الأفندية .. واستمرت رغم أنك أصبحت تعمل وأنا لا أزال طالبا .. كل من فى الدنيا يمكن أن يلتقى ..

ولم يرد عليه عبد الله بل لعله لم يهتم ولم يفهم ما يقول ورفع صوته محتدا :

ـــ هل فاتحت أخاها فى طلب الزواج ؟..

وقال منير وهو يحادث عبد الله كأنه يرتاح بالحديث مع نفسه :

ـــ لا .. إن أخاها يحيرنى أكثر منها .. إنه رغم أنه ابن باشا فهو شيوعى ..

وصرخ عبد الله :

ـــ شيوعى ..!!.. أى كافر ..؟!

وقال منير فى بساطته :

ـــ إن ما أوحى إلىَّ به هو أنه فعلا كافر .. إنه كافر حتى بوجود الله ..

وعاد عبد الله يصرخ :

ـــ وماذا يريد منك الكافر ؟.. يريد قطعا أن يضمك إلى الكفار ..

وقال منير وهو يتنهد فى هدوء :

ـــ إنك تعلم أنى لا أنضم إلى أى حزب أو تجمع ولا حتى إلى أى مذهب سياسى .. وأنت من الإخوان ورغم حبى لك والصداقة التى جمعتنا العمر كله لم أنضم معك إلى الإخوان .. واطمئن إلى أنى لن أنضم إلى الشيوعيين أبدا ..

وقال عبد الله ساخرا :

ـــ ربما لو كان لى أخت لأغريتك بالزواج بها حتى تنضم معى إلى الإخوان .. كما قد يفعل صديقك الجديد ..

وقال منير كأنه يتحايل على عبد الله أن يرأف به :

ـــ إن صداقته لا يمكن أن تصل إلى درجة صداقتنا .. وأخته لا يمكن أن تغرينى بأن أخرج عن حريتى كما حددتها لنفسى ..

وقال عبد الله كأنه ضاق بهذا الكلام ولم يعد يحتمله :

ـــ قم بنا لأفتح المحل ..

وخرجا من البيت .. وانفصل منير عن عبد الله عائدا إلى بيته .. إنه لم يكن ينتظر أن يسمع رأيا من صديقه .. كان كل ما يسعى إليه هو أن يرتاح بالكلام عن الزوابع التى تعصف به ليخفف منها حتى يرتاح .. ولا شك أنه ارتاح قليلا بعد لقائه بصديقه عبد الله ..

« سهر الليل » ليلاس «
www.liilas.com

(٥)

كان منير غانم قد أصبح وكأنه يعيش مع دلبر .. إحساسه كله وأفكاره كلها معها .. ومهما شغل نفسه فهو لا يبعد عنها .. وكان قد بدأ يقرأ كثيرا .. إن الأحداث التى صادفته خلال هذا الصيف فتحت شهيته أكثر للفرجة على العالم من خلال قراءة الكتب .. وكان يقرأ وهو يحس كأن دلبر سمحت له بالانشغال عنها بالقراءة .. ثم بدأ يتردد على كلية الحقوق بعد أن بدأت الجامعة ويذوب فى تقصى تفاصيل الدراسة وفى اكتشاف خبايا الكلية وفى لقاءاته مع زملائه الذين كانوا معه فى الدراسة الثانوية والتعرف على زملاء جدد .. ولكنه كان دائما يحس كأنه سيخرج من الكلية ليعود إلى دلبر .. إلى فكره وإحساسه بها .. كأنها تنتظره فى بيته الذى يتوهمه بخياله .. وأحيانا كان يتردد على صديقه عبد الله عبد اللطيف ويجلس معه فى محل بيع الأقمشة .. ولم يكن يحاول أن يعود إلى التحدث مع صديقه عن دلبر .. ولكنه كان يزوره وكأنه يتعمد الابتعاد عن دلبر حتى يمتع نفسه بإحساس الشوق إليها .. الشوق إلى مجرد تخيلها ..

وكان آخر حديث جرى بينه وبين دلبر يتردد دائما فى ذهنه ويكاد صوتها وهى تتحدث يرن فى أذنيه .. كأنه أنغام لحن موسيقى لا يستطيع أن ينساه .. لقد تحدثا كأنهما يرسمان المستقبل .. مستقبل حبهما .. إنها ستبقى فى الإسكندرية وفى شهر سبتمبر ستسافر مع العائلة كلها إلى باريس كعادتهم لشراء ثياب ومطالب الموسم القادم .. وبعد أن تعود من باريس فعليه أن يتصل بها بالتليفون فى الساعة الثامنة صباحا من أى يوم .. وهى

الساعة التى تستطيع فيها أن تنفرد بالرد على التليفون قبل أن يفيق أفراد العائلة من النوم وقبل أن يبدأ الخدم نشاطهم .. وقد سألته كيف تستطيع هى أن تتصل به وهى بعيدة عنه .. وقد فرح بسؤالها .. إنها تريده كما يريدها .. وقد أجابها بأن الوسيلة الوحيدة للاتصال به هى إرسال الخطابات بالبريد فليس فى بيته تليفون .. وكتب لها العنوان ووضعه فى يدها وهما لا يزالان فى البحر .. وثنى أصابعها على الورقة التى كتب فيها العنوان وضغط عليها كأنه يسكب عنوانه فى دمها .. ومنذ تركها وهو فى انتظار خطابها .. ولكنها لم تكتب إليه وهى فى الإسكندرية .. ربما تكتب إليه من باريس .. ولكن لم يصل إليه منها ولا كلمة حتى اليوم ..

وكانت قد قالت له إن أخاها كمال لا يحب السفر معهم إلى باريس .. وكان قد اتفق معه على أن يكون لقاؤهما فى القاهرة فى مقهى ليس له اسم ولكنهم يسمونه مقهى الأسيوطى الذى يقع عند مدخل ميدان السيدة زينب .. ولا يدرى لماذا اختار كمال هذا المقهى البلدى الصغير للقاء أصدقائه .. ربما اختاره ليتبرأ من نفسه كابن الروزنامجى باشا ويظهر نفسه أمام الناس كابن بلد أو من الطبقة الشعبية العادية .. وقد تردد على هذا المقهى عدة مرات باحثا عن كمال .. ربما لا شوقا إليه ولكن ليحاول أن يعرف منه أخبار أخته دلبر .. وهل عادت العائلة من باريس .. ولكنه لم يكن يجد كمال فى مقهى الأسيوطى .. لعله لا يزال فى الإسكندرية أو ربما تغير هذا العام وسافر مع العائلة إلى باريس ..

وكانت أحيانا تنتابه ثورة على نفسه .. إنه ضعيف .. لماذا يعيش مستسلما لهذه الأوهام التى تجمعه مع دلبر ؟ .. لما يفترض أنها تريده كما يريدها .. تحبه كما يحبها ؟ .. ربما كانت من هواة الفرجة كما هو من هواتها ..

وهو يعلم أن الفرجة قد تنتهى سريعا بالنسيان .. وقد تطول وتتعلق بإحساس المتفرج فترة .. وقد تتمكن منه حتى تنقلب إلى واقع يعيش فيه المتفرج حتى ينقلب من متفرج إلى مؤد .. يؤدى دورا فى الحياة بدأ به كمتفرج فى الحياة .. وهو قد بدأ بالفرجة على دلبر ولكنه انقلب سريعا احساسه بالارتباط بها .. ارتباط الحب .. أما هى فقد تكون فرجتها عليه قد انتهت سريعا بالنسيان .. إنها ابنة الباشا وهو ابن الأفندى .. وقد قال له صديقه عبد الله عبد اللطيف إن اختلاف المستوى الاجتماعى أى اختلاف الطبقة لا يمكن أن يجمع بين فتى وفتاة لا فى حب ولا فى زواج .. لعله كان أصدق منه فى الاعتراف بالواقع .. وربما كان كل ما بينه وبين دلبر أن الطبقة التى تنتمى إليها أقوى إغراء واجتذابا من الطبقة التى ينتمى إليها هو .. لذلك تصور أنه يحب دلبر فى حين أن دلبر لم تكن تحس إلا بأنها تتفرج عليه .. تتفرج على الفقراء ..

وكان يخمد هذه الثورة سريعا ويطردها من فكره وإحساسه .. إنه لم يقتنع بما قاله صديقه عبد الله .. وهو يؤمن بأن الحب يرتفع ويرقى فوق الطبقات الاجتماعية .. وكل القصص التى قرأها وكثير من أحداث التاريخ تقوم على حب بين أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء .. بين بنات الباشوات وأولاد الأفندية .. فليصبر وينتظر ويهدأ ويتفاءل .. إن دلبر ستعود إليه .. ويشد كتابا من جانبه وكأنه يستأذن دلبر فى الانشغال عنها بالقراءة ..

وكان قد بدأ يقرأ كتاب كارل ماركس الذى أهداه إليه كمال الروزنامجى .. وربما لم يكن الدافع لاختيار قراءة هذا الكتاب الذى مضت شهور وهو ممتنع عن قراءته هو رغبته فى دراسة الماركسية .. ولكنه كان كأنه فى شوق إلى دلبر ويحاول الاقتراب منها بقراءة كتاب أهداه له أخوها .. وقد تعود وهو يقرأ أن

يحس كأنه يتفرج .. يتفرج على عقول الناس .. ولكنه وهو يقرأ هذا الكتاب أحس أنه ليس مجرد متفرج .. إنه يجادل ويتناقش مع كل كلمة يقرؤها ..

وكان قد وصل إلى أواخر شهر سبتمبر عندما فوجئ يوما ببرهوم ابن بواب العمارة يصعد إليه فى الشقة :

ـــ واحد اسمه سى كمال ينتظرك تحت .. فى الشارع ..

وقفز منير كأنه يطير أو كأنه استرد الحياة فجأة .. لقد عاد إليه كمال .. ووضع القميص والبنطلون والحذاء كأنه يقفز فى داخلهم .. ثم جرى يهبط السلم ..

لقد جاء إليه كمال فى سيارة يقودها .. وهى سيارة قديمة صغيرة .. فكمال يبعد نفسه عن السيارات الفخمة الحديثة التى تفضح مستوى طبقته وغناه .. وكلاهما يشد على يد الآخر فى إحساس جارف بفرحة اللقاء ويبتسم للآخر ابتسامة مرحة .. وقال منير لاهثا من شدة فرحته بلقاء صديقه :

ـــ أين كنت طوال هذه المدة ؟ .. لقد ذهبت إلى مقهى الأسيوطى مرات بحثا عنك ..

وقال كمال من خلال ابتسامته :

ـــ كنت مشغولا بأصدقاء جدد من الإسكندرية .. إن صداقة الإسكندرانية أتعب من صداقة المصاروة ..

وفتح له باب السيارة قائلا :

ـــ ادخل ..

وقال منير راجيا :

— ألا تصعد معى إلى بيتنا لتتم زيارتك ؟ ..

وقال كمال بلهجته المرحة :

— يا رأجل ادخل .. إننا على موعد .. وليس لدينا وقت الآن لاستكمال الزيارة ..

وقال منير وهو يجلس داخل السيارة :

— هل هو موعد فى مقهى الأسيوطى ؟ ..

وقال منير وهو يتحرك بالسيارة :

— لا .. إنى أقيم الآن وحدى فى البيت .. والأهل كلهم مسافرون فى الخارج .. ولما كنت أعتبر نفسى إنسانا استغلاليا فقد رأيت أن أستغل بيتنا ودعوت الشلة لأن نلتقى فيه .. ما دمنا وحدنا .. وحتى يشهد هذا البيت اجتماعات من نوع آخر غير الاجتماعات التى يلمُّها أبى وإخوتى .. أريد أن تدور مناقشاتنا فى عقر دارى .. ومن يدرى ربما أصبح هذا البيت عقب الثورة مركز قيادة ..

وتفتحت عينا منير كأنه عرف ما كان يبحث عنه .. عرف أن دلبر لم تعد بعد من باريس .. وقال وهو يضحك ضحكة يخفى بها خبثه :

— ومتى تعود العائلة من الخارج .. حتى يعود مركز القيادة إلى مقهى الأسيوطى .. ؟

وقال كمال وهو يضحك بصوت أعلى :

— كل الثورات تعيش متعرضة للمفاجآت .. وقد تعود العائلة غدا .. وقد تعود بعد شهر .. وقد لا تعود أبدا وتقرر الهجرة إلى هناك .. والمهم الآن أن يشبعوا من الطواف بالدكاكين .. وأتمنى ألا يشبعوا أبدا حتى يتركونى وحدى لدكاكين السياسة فى بلدنا الذى أعيش فيه كما يعيشون هم فى دكاكين

الأزياء فى باريس ..

ولم يكف كمال عن الكلام والأسئلة والأجوبة طوال الطريق .. ومنير يتحدث قليلا ويجيب عن الأسئلة باختصار .. وأهم ما يشغله أنه لا يعرف متى تعود دلبر ..

إلى أن وقف كمال بالسيارة داخل حديقة البيت ..

إنه ليس بيتا .. إنه قصر .. ويعرف باسم قصر الروزنامجى .. كل القصور فى أحياء الطبقة الراقية تعرف باسم العائلات التى تمتلكها .. قصر لطف الله وقصر شهاب الدين وقصر عائشة فهمى وقصر شريف باشا .. و .. و .. ودخل منير مع كمال إلى القصر وهو لا ينظر حوله وكأنه يخاف أن تصدمه الفخامة والأبهة التى تحيط به ..

ووجد فى صالة الاستقبال كل أفراد الشلة التى سبق أن التقى بهم فى مقهى بيترو مضافا إليهم أشخاص لم يكن قد التقى بهم .. لعلهم أعضاء جدد فى الشلة .. فى الجمعية .. فى الحزب ..

وبدأت المناقشات كما هى العادة باستعراض الأخبار والآراء التى يحملها كل منهم .. ومنير صامت مكتف بالاستماع .. ويحس فى الوقت نفسه أنه يحادث نفسه معلقا على كل ما يسمعه .. إلى أن التفت إليه صديقه خليل الذى كان زميلا له فى المدرسة قائلا :

— لماذا لا نسمع شيئا من الصديق منير ؟ ..

وقال منير مبتسما :

— لقد قلت لصديقنا كمال إنى أخاف المناقشات لأنى لم أتعودها .. واتفقنا على أن أكتفى بالاستماع ..

وقال خليل ضاحكا :

ــ إننا لا نتناقش ولكننا نتسلى بالكلام ..

وقال مصطفى وهو أيضا يبتسم كأنه يتعاون مع زملائه على اكتساب منير :

ــ إن الاستماع يؤدى إلى تكوين رأى .. فلا تحرمنا من رأيك ..

وقال عادل المانسترلى فى لهجة متعالية خشنة .. إنه ليس ذكيا ككمال الروزنامجى ويستطيع أن يخفى مظاهر الطبقة التى ينتمى إليها حتى فى اختيار اللهجة التى ينطق بها .. قال كأنه يبدأ فى محاسبة منير :

ــ هل قرأت كارل ماركس كما وعدت .. ؟

وقال منير وهو يركز عينه فى وجه المانسترلى كأنه يتحداه :

ــ أنا لم أعد بقراءة كارل ماركس .. وأخذت الكتاب من كمال دون أن أطلبه ودون أن أعد بشيء .. ورغم ذلك لقد قرأت كارل ماركس ..

وتفتحت كل العيون والتفت حول منير كأنها فى انتظار مناقشة ممتعة ..

وقال المانسترلى فى صوت ملهوف :

ــ وماذا خرجت به منه .. ؟

وقال كمال الروزنامجى وكأنه يشخط فى المانسترلى :

ــ ليس من حقك أن تسأل منير عما خرج به مما قرأه .. كأنك تعتبر نفسك أستاذا يمتحن التلاميذ فى علم مقرر .. فليس بيننا أساتذة .. وكل منا يختار ويتبرع لنا بما يقوله ..

وكان كمال يتكلم كأنه المسئول عن المانسترلى وعن توجيه كل كلمة ينطق بها ..

وقال منير وهو يبتسم هادئا كأنه يريد أن يثبت اعتزازه بشخصيته فى مواجهة كل الحاضرين :

ــ دعه يسألنى لأقول له .. إنى لا شك قد ذهلت من الواقعية التى عشت فيها وأنا أقرأ كتاب كارل ماركس .. ومن تحليله العلمى لهذا الواقع .. ولكنى بعد أن انتهيت من قراءته وجدت نفسى لازلت بعيدا عنه ..

وقبل أن ينطلق المانسترلى بكلمة سبقه خليل قائلا فى هدوء كأنه حريص على تأجيل إعلان الحرب :

ــ وماذا كان يحول دون أن تعيش معه ولا تبتعد عنه ؟ ..

وقال منير وهو أكثر راحة وهو يجيب عن سؤال لم يوجهه المانسترلى :

ــ أساس النظرية الماركسية .. أى أساس تقسيم المجتمع إلى طبقات .. فما هى الطبقة ؟ .. إنها مجموعة أفراد .. والحق الأساسى للفرد هو احتفاظه بحريته داخل طبقته .. إلى حد أن يكون من حقه أن ينتقل من طبقة إلى طبقة .. وأنا مثلا أعتبر من الطبقة المتوسطة ولكنى أعتمد على حريتى التى تشمل حرية الرأى وحرية العمل فى الوصول إلى الطبقة العليا الغنية .. أى أن أكون من أصحاب الملايين .. ولا أسمح بأن أجمد فى الطبقة الوسطى أو يفرض على نظام ينقلنى إلى الطبقة العاملة .. خصوصا وأن الطبقة العاملة كما فهمتها مما قرأت هى الطبقة التى تنتج بحصر فكرها وطموحها فى أصابعها .. أى طبقة تتكون من أفراد كالآلات .. تدور لتنتج ..

وقال خليل وهو لا يزال هادئا :

ــ لقد اخطأت فى فهمك لما قرأت .. فإن الانتاج الفكرى المجرد يعتبر عملا .. ويعتبر من يؤديه عاملا من الطبقة العاملة .. أى أن إنتاج الفكرة أو الاختراع يساوى إنتاج رغيف الخبز أو القماش أو السلاح .. والماركسية لا تنكر الفكر المجرد ولا تتجاهل حقه ..

وقال منير وهو أيضا يدعى الهدوء :

ــ إن الفكر المجرد فى حاجة إلى حرية مطلقة .. إنه لا يستطيع أن يصل إلى منتهى الإبداع والإعجاز وهو مقيد داخل طبقة .. أو وهو موظف حكومى يتقاضى مرتبا ثابتا .. أو وهو مجرد من الدوافع الشخصية مادامت دوافع شريفة نظيفة .. وانظر إلى ما وصل إليه الفكر الفردى فى دولة ماركسية تحكمها طبقة واحدة بالنسبة لما وصل إليه الفكر فى دولة تقوم على مجتمع حر متعدد الطبقات .. حتى إن الأدب الروسى الذى لا نزال نتلهف عليه حتى اليوم وقد وصل إلى قمة الإبداع .. هو أدب ما قبل الثورة الماركسية .. ولم يعد فى الإنتاج الأدبى الروسى بعد الثورة ما يشدنا أو يبهرنا أو حتى يثير اهتمامنا ..

وقال خليل مقاطعا :

ــ إن أدب ما قبل الثورة يبهرك لأنه أدب كان يدعو إلى الثورة الماركسية .. أى أنه أدب ماركسى ..

وقال منير وكأنه يتباهى بمعلوماته :

ــ كانت روسيا فى ثورة ولكنها لم تكن كلها ثورة ماركسية .. والذى حقق نجاح الثورة الروسية أنها قامت على حرية تعدد الآراء والاتجاهات إلى أن استطاع الاتجاه الماركسى أن يفرض نفسه وينفرد بالحكم .. ورغم ذلك .. فلماذا اختفى الإبداع الأدبى بعد الثورة ؟ .. لأن الفكر فقد حريته ففقد القدرة على الإبداع .. فقد حريته لمجرد حصره فى طبقة واحدة ..

وقال عادل المانسترلى كأنه لم يعد يستطيع أن يحرم نفسه من الكلام وصوته يتلجلج كأنه يقاوم أن ينطلق ثائرا :

ــ إنك تحتج بحرية الفكر وتضع حق الحرية فوق حق العدالة الاجتماعية التى لا يحققها إلا الاعتراف بالواقع .. وسأضرب لك مثلا قد تدهش من

سماعه على لسانى كأنى أعترف بجريمتى .. إن أبى مليونير .. كل العائلة مليونيرات بما فيهم أنا .. ونملك آلاف الأفدنة .. فما هى عبقرية أبى الفكرية التى حققت له ملكية هذه الأرض وملأت خزائنه بكل هذه الملايين .. إنى أعلن أمامك أن أبى ليس له القدرة على التفكير إطلاقا .. إنه أغبى الأغبياء .. وهو يعيش بكل هذه الثروة لأنه اكتسبها بالوراثة .. إن الطبقة المالكة تتوارث دون أن تبذل أى جهد فكرى أو عملى لمجرد أن المجتمع الذى أقامته يحفظ لها هذا الإرث حتى تحتفظ بكيانها وتفرض قوتها .. وهى الطبقة التى تحكم مصر حتى اليوم فلماذا لا تثور عليها وتمحوها من الوجود وتصل بالطبقة الأحق إلى الحكم . الطبقة العاملة .. الطبقة التى تمد الكيان الإنسانى بالحياة ..

ونظر منير إلى كمال الروزنامجى كأنه يريد أن يسمع رأيه فى هذا الكلام .. ولكن كمال ظل صامتا .. وطالت نظرة منير إليه كأنه يستأذنه أن يتولى هو الرد .. وقال وهو أيضا يحاول أن يكون هادئا دون أن يتنازل عن الصراحة :

ــ إن أباك يمثل فردا فى طبقة .. والقضاء عليه لا يفرض القضاء على الطبقة كلها .. حتى لو كان فى هذه الطبقة عشرات أو مئات مثل أبيك ، فالقضاء عليهم لا يفرض القضاء على الطبقة ..

وصاح المانسترلى :

إن الأفراد لا يمثلون أنفسهم ولكنهم يمثلون طبقة .. ولا يعتمدون على قوة خاصة أو مبادئ خاصة ولكنهم يعتمدون على قوة ومبادئ الطبقة ..

وقال منير وهو لا يزال قادرا على الهدوء :

ــ حتى هذه القوة يمكن دحرها وهذه المبادئ يمكن تعديلها .. بحيث يبقى تعدد الطبقات لتبقى حرية الفرد ..

وصرخ عادل المانسترلى :

ـــ كيف تتوهم أن تدحر القوة وتعدل المبادئ دون أن تقضى على الطبقة بحيث تصبح البلد كلها طبقة واحدة . طبقة الأغلبية .. الطبقة العاملة ..

وقال منير كأنه كان قد أعد الرد مقدما :

ـــ اسمع يا صديقى ويا زميل الشلة .. إنى أكان أن انتهى إلى رأى قد لا يقنعك .. وهو أن المجتمع الإنسانى ينقسم فى صورة أخرى إلى طبقتين .. ليس ثلاث طبقات .. أى طبقة غنية .. وطبقة متوسطة .. وطبقة فقيرة .. ينقسم إلى طبقتين فقط .. طبقة حاكمة .. وطبقة محكومة .. إن روسيا نفسها أصبحت اليوم تقوم على هذا التقسيم لا على التقسيم الماركسى .. طبقة حاكمة تشمل قيادة الحزب الحاكم .. وطبقة محكومة تشمل أغلبية الشعب السوفيتى .. وقد اختارت الطبقة الحاكمة فى روسيا أن تعتبر المجتمع كله طبقة واحدة كما كان يتمنى ماركس .. ولكن الطبقة الحاكمة تستطيع أيضا أن تبقى على تعدد الطبقات دون أن تخاف على نفسها .. أتدرى كيف ؟ .. بالدستو والقوانين التى تضعها .. إنها تستطيع أن تضع من القوانين ما يسحب من أبيك كل ما يملك .. ويسحب منك أيضا حق إرث ما يملك أبوك .. قوانين الضرائب .. وقوانين تحديد ملكية الأرض .. و .. و .. وفى الوقت نفسه تترك له ولك ولكل الناس الحرية الطبقية .. أى حرية التصرف والعمل فى حدود القوانين بحيث يحتفظ الفرد بحريته فى أن يكون غنيا .. أو لا يستطيع إلا أن يكون متوسط الحال .. أو قد لا يستطيع مهما حاول إلا أن يكون فقيرا .. والعدالة الاجتماعية هى فرض نسبة الغنى .. ونسبة الحال المتوسط .. ونسبة الفقر .. بمعنى ألا يكون هناك فقر قاتل بل تتحمل الطبقة الحاكمة مسئولية الفقراء

كما تتحمل النقابات مسئولية العاطلين عن العمل .. وقد تسألنى أيضا عن كيف تقوم وتتشكل هذه الطبقة الحاكمة .. إنها تقوم بالحرية أيضا .. حرية الفرد حتى فى الوصول إلى الحكم .. وهى حرية يرسمها أيضا الدستور والقانون ..

وسكت منير وهو ينقل عينيه بين من حوله .. إنهم كلهم يبدو عليهم أنهم قرروا عدم الرد عليه .. وكأنهم يئسوا منه وقرروا مقاطعته .. إلا عادل المانسترلى فلم يستطع الصمت وقال بصراحة :.

ـــ قل بصراحة إنك ضد الثورة .. وإنك مقتنع بالمجتمع السياسى الذى تعيشه .. وبما أنك قلت إنك تتمنى أن تصبح مليونيرا فلعلك لم تتفضل بزيارتنا إلا لأنك تعلم أن بيننا أبناء أصحاب ملايين .. دون أن تصدق أن هؤلاء الأبناء هم الذين يقودون الثورة على طبقتهم وعلى ملايينهم ..

وقال منير بصوت عال كأنه ينهر المانسترلى :

ـــ إنى لست ضد أى ثورة ما دامت ثورة شعبية .. ولست ضد أى ثورة ماركسية حتى لو قامت فى مصر .. ولكنى أحتفظ بحرية رأيى تجاه أو داخل أى ثورة .. سواء أتاحت لى هذه الثورة حق الاحتفاظ بحريتى أو قبضت على وحكمت علىّ بالإعدام .. أى قبضت على حريتى وأعدمتها ..

وتكلم كمال الروزنامجى بعد أن تعمد عدم الاشتراك فى المناقشات وقال :

ـــ إنى اعتبر الصديق منير من الأحرار .. ونحن يجب أن نتحالف مع الأحرار .. ومهما اختلفنا فهناك دائما الهدف الأكبر الذى يرتفع فوق كل خلاف .. إنى لا أسأل نفسى إذا كان منير يمكن أن يكون ماركسيا أو رأسماليا فإنى مكتف بثقتى فى أنه حر .. وأكثر من ذلك فإنى معتز وفخور بصداقته وأتمنى وجوده معنا كلما اجتمعت الشلة ..

وبلباقة بدأ كمال ينقل المناقشة إلى موضوع آخر لا يحتاج إلى رأى منير .. وجلس منير صامتا غارقا فى حيرته حتى لا يهتم بتتبع المناقشة .. إنه حائر من كل ما سمعه وحتى مع كل ما قاله هو .. إنه حائر مع نفسه وليس فقط حائرا مع الآخرين ..

وانتهى الاجتماع الذى تخلله تقديم الشاى فى معدات فخمة ومن خلال اتباع تقاليد على مظاهر الأرستقراطية يقوم بها كثير من الخدم الذين يرتدون أزياء رسمية .. حتى إن أغلب أفراد الشلة كانوا يمتعون أنفسهم بالبحلقة فى معدات الشاى المصنوعة من الفضة الخالصة أكثر مما يمتعون أنفسهم بشرب الشاى ..

وقال كمال الروزناجى مع ابتسامته التى يرسم بها دائما شخصيته وزعامته :

ـــ نجتمع بعد غد .. هنا فى البيت ..

وقال خليل ضاحكا :

ـــ تقصد القصر ..

وقال كمال وهو يضحك أيضا :

ـــ إننا نسبق الثورة ونعتبر القصر بيتنا .. بيت الشعب .. (ثم التفت إلى منير مستطردا) .. سنراك بعد غد يا منير ..

وقال منير ساهما :

ـــ بإذن الله ..

وعلت شفتى كمال ابتسامة ساخرة تحمل إحساسه بالإشفاق على منير .. ما دخل « إذن الله » فى أن يأتى إلى الاجتماع .. إنه إذنه لنفسه .. إذن شخصى ..

وخرج منير وهو يتعمد كما دخل ألا ينظر حوله فى أرجاء القصر .. إن هذه الفخامة تثير يأسه من الوصول إلى دلبر .. وخرج إلى الشارع واستأذن من باقى أفراد الشلة الذين خرجوا معه .. وسار وحده سارحا فى حيرته .. سار طويلا دون أن يحس بثقل قدميه حتى وصل إلى حى الحسين والتقى بصديقه محمد عبد الله عبد اللطيف فى محل بيع الأقمشة . إنه كلما أحس بالمعاناة لجأ إلى صديقه عبد الله ليرتاح .. ليرتاح بمجرد الجلوس فى هذا الشارع الضيق المزدحم بهذا النوع المريح من الناس ..

ولم يحاول أن يعيد على عبد الله شيئا مما رآه أو سمعه فى قصر الروزناجى .. ولا أن يشكو له مما يحيره كعادته عندما يتكلم لا فى انتظار رأى صديقه إنما فقط ليزفر أنفاسه المتجمعة فى صدره ككتل السحاب الثقيل .. وجلس صامتا تاركا عبد الله متفرغا لاستقبال الزبائن إلى أن بدأ موعد انتهاء العمل يقترب ويقفل الدكان .. فقال له عبد الله :

ـــ تعال الليلة نزور صديقنا الأستاذ منصور أحمدين ..

واعتذر منير وهو يبتسم .. إن الأستاذ منصور يمثل الإخوان المسلمين .. وهو لا يستطيع أن ينتقل مباشرة من اجتماع مع الماركسيين إلى اجتماع مع الإخوان .. على الأقل يجب أن يبعد بين الاجتماعين حتى لا يحمل عقله أكثر مما يحتمل ..

* * *

وجاء موعد اجتماع الشلة فى قصر الروزناجى .. إنه لا يريد أن يذهب إلى هذا الاجتماع .. إنه يتعب فى كل مرة يجتمع فيها بالشلة ويحس أنهم يحاولون

إلقاء قيود ثقيلة على فكره كأنهم يحاولون القبض عليه وتقييده ليعيش حياته فى سجنهم .. سجن الماركسية ..

ولكنه يريد أن يعرف متى ستعود دلبر .. وقد يعرف من خلال كلمات أخيها كال .. فيجب أن يذهب ..

وجلس صامتا مستمعا طوال الاجتماع إلى أن قال كال ضاحكا قبل أن ينصرفوا جميعا :

ــ سنلتقى مساء الخميس ولكن فى مقهى الأسيوطى .. فقد وصلتنى برقية بأن العائلة ستصل غدا .. وستستولى على بيت الشعب وتعود به ليكون قصرا للروزنامجية ..

وخرج منير يسير طويلا دون أن يحس بثقل قدميه وهو يعانى الحيرة من جديد ..

إن دلبر ستعود ..

هل يتصل بها فى التليفون فى الساعة الثامنة صباحا كما اتفقا ؟!

ولكن من أدراه أنها لا تزال تذكر ما اتفقا عليه .. بل من أدراه أنها لا تزال تحس به إحساسها الذى كان يجمعهما فى مياه شاطئ ميامى كل صباح .. وربما كان كل إحساسها هو إحساس المتفرج .. تتفرج عليه .. تتفرج على الشبان الفقراء .. وقد انتهى العرض وخرجت المتفرجة من حياته .. ولم تحاول أن ترسل له كلمة واحدة فى خطاب كما وعدته ..

ولكن لماذا يستسلم لليأس .. ؟!

لماذا لا يرفض اليأس ويعيش كل دوافعه وأمانيه .. دوافع الحب الأول فى حياته .. حب دلبر ..؟

إن الحيرة تمزقه .. ويسير فى الشارع كأنه يغوص فى مستنقع عميق يكاد يغرقه ..

(٦)

كان قد مضى يومان على علمه بوصول دلبر .. وترك منير فراشه فى صباح اليوم التالى وهو مصمم على أن يحادثها فى التليفون .. سواء كانت تنتظره .. وسواء كانت لا تزال تذكره أو نسيته .. يجب أن يجد الجواب عن الأسئلة التى تحيره وتعصف داخل رأسه ..

وجرى على السلم وهو لا يزال مرتديا البيجاما التى ينام بها والشبشب فى قدميه .. ولكنه توقف قبل أن يخرج إلى الشارع .. إنه فى طريقه ليحادث دلبر ولا يصح أن يحادثها بالبيجاما . ولو كان يحادثها فى التليفون .. فعاد وصعد السلم ودخل البيت وأسرع إلى الحمام وغسل وجهه وصفف شعره ثم لبس قميصا وبنطلونا ووضع قدميه فى حذاء .. وجرى إلى دكان البقال الواقع عند ناصية الشارع .. ونظر فى الساعة .. إنها الثامنة وخمس دقائق .. وهى كما وعدته تنتظر حديثه من الساعة الثامنة .. من الأفضل له أن يتأخر عليها هذه الدقائق الخمس حتى لا يبدو كأنه متلهف عليها .. هذا إذا كانت تنتظره ..

وحيًّا البقال بحرارة أشد مما تعود أن يحييه بها .. ثم أمسك بالتليفون وهو ينظر إليه كأنه يعتذر له عن أنه سيرتكب وزرا .. وابتعد بالتليفون قدر ما استطاع عن موقف الزبائن .. وأدار الرقم الذى يحفظه عن ظهر قلب من كثرة ما ردده بينه وبين نفسه ..

وسمع صوتها .. وقال دون أن يردد اسمها :

ــ الحمد لله على السلامة ..

وقالت دون أن تردد اسمه كأنما هى أيضا تعرفه بمجرد سماع صوته :

ــ أين كنت ؟.. لماذا لم تتحدث أمس ؟..

قال فى صوت هامس حتى لا يسمعه البقال :

ــ كنت حائرا مترددا .. فقد غبت طويلا ..

قالت فى صوت رقيق كأنها تعتذر له :

ــ عائلتى غابت بى ..

قال فى لوم :

ــ كنت أنتظر منك خطابا ..

قالت وكأنها تعتذر :

ــ كنت أنتظر دائما يوم أن تحادثنى فى التليفون ..

قال وكأنه يتنهد :

ــ إن الخطابات لقاءات .. وقد كنت فى حاجة إلى لقائك ..

قالت وهى تضحك ضحكة خافتة حلوة :

ــ كان سيكون لقاء لا يفهم أحدنا الآخر فيه .. فأنا لا أكتب إلا بالفرنسية وأعرف أنك لا تقرؤها ..

قال فى صوته الهامس :

ــ أعرف أنك لا تكتبين إلا الفرنسية .. وكنت قد قررت أن أستعين بأختى بثينة لألتقى بك معها فهى تجيد الفرنسية ..

وقالت دلبر فى انطلاق فرح :

ــ هل حدثتها عنى ؟..

قال وهو يلتفت حوله خشية أن يكون البقال أو أحد من الزبائن يستمع إلى حديثه .. قال فى عجلة :

ــ سنتحدث طويلا عندما نلتقى .. متى ؟

قالت فى بساطة :

ــ حدثنى غدا فى نفس الموعد .. سأكون فى انتظارك ..

قال وكأنه لا يستطيع أن يقاوم :

ــ كنت أنتظر أن نلتقى اليوم ..

قالت فى نفس البساطة :

ــ لا أستطيع اليوم .. حدثنى غدا ..

وقال بسرعة وهو يعود ويلتفت حوله خوفا من البقال وزبائنه :

ــ إلى الغد ..

ووضع سماعة التليفون قبل أن يسمع ردها وترك للبقال قرشا صاغا كأنه يعوضه عن استعمال تليفونه فى ارتكاب الوزر .. ولكن البقال ناداه وردَّ له نصف القرش .. فقد كانت المكالمة لا تكلفه أكثر من خمسة مليمات .. وسار وهو يطلق نفسه لسعادته .. إنها كانت تنتظره .. لم تنس .. ولم يكن بالنسبة لها مجرد فرجة تتفرج بها على الشبان الفقراء .. ولكنه ما لبث أن بدأ يلوم نفسه .. كان لا يحب أن يطلب منها اللقاء وينتظر إلى أن تطلبه هى كما سبق وعودها منذ التقيا على شاطئ ميامى فى الإسكندرية ..

ومضى يومه وليله وهو لا يستطيع أن يستأذن دلبر بينه وبين نفسه لينشغل عنها بأى شىء آخر .. وقد ذهب إلى كلية الحقوق ولم يستطع أى شىء فيها أن يشغله عنها .. ويحاول أن ينشغل عنها بالقراءة فلا يكاد يفتح كتابا حتى تطغى صورتها على الصفحات فلا يستطيع أن يرى ما يقرؤه .. وفى صباح اليوم التالى خرج من البيت فى الساعة السابعة . إنه لن يتحدث من تليفون البقال حتى لا يثير شكوكه .. وركب الترام إلى الجيزة .. وقريبا من

الجامعة كان هناك مكتب بريد به تليفون للعامة .. وهو تليفون له حاجز زجاجي يحول دون سماع ما يجرى عليه من أحاديث .. إنه أكثر أمنا وهو يحدثها منه ..

وكانت فى انتظاره .. وكان حديثا أكثر انطلاقا .. وهى التى حددت موعد لقائهما .. فى السابعة مساء فى شارع الجبلاية بالزمالك .. إنه شارع على النيل قريب من قصر الروزنامجى ولكن القصر لا يقع فيه .. وقد كان معروفا أنه أهدأ شارع بالقاهرة وكله مظلل بالأشجار .. كان شارع فى جنة أولاد الذوات .. وجاءت إليه وهو فى انتظارها من بعيد تسير بخطواتها الرشيقة وقوامها يهتز مع خطواتها كأنه يعزف لحنا هادئا رائعا .. واحتضنت كلتا يديه واحتضن كلتا يديها .. وعيناه فى عينيها كأن كل عين ألقت نفسها فى الأخرى لتنام فيها .. وكل منهما على شفتيه ابتسامة صامتة هائمة كأنها تقبل الأخرى .. وسارا ساعة أو ربما كانتا ساعتين فهما لا يحسان بحساب الوقت .. وكأن كل الساعات توقفت منذ لحظة لقائهما ولم يعد لساعات الزمن حساب .. إلى أن تنبهت دلبر إلى أنها يجب أن تعود ..

وبدأ حبهما يعيش دنيا عجيبة .. دنيا غريبة على كل حب .. فهو يتصل بها كل صباح فى التليفون .. بلا وعد فحديث تليفون الصباح كان وعدا مستمرا بنفسه .. وفى كل مرة يبحث عن تليفون جديد حتى لا يثير شكوك من عندهم تليفون .. وغالبا ما يجدها فى انتظاره .. ولكن أحيانا لا تكون هى التى ترد عليه .. فيلقى السماعة أمام أى صوت آخر يرد عليه .. قد تكون قد قضت ليلة طويلة ولم تستطع أن تصحو فى موعده .. أو ربما سبقها إلى التليفون خادم استيقظ فجأة .. وكانا يلتقيان أحيانا يوما بعد يوم .. ثم قد لا يلتقيان إلا بعد أسبوع .. وقد يغيبا عن بعضهما أسبوعين .. واللقاء

دائما يتوقف على إرادة دلبر والظروف التى تحيط بها يلتقيان دائما فى شارع الجبلاية .. إن جمال الشارع الهادئ المظلل المطل على النيل أصبح يشعرهما بالحرمان ،. الحرمان من استكمال لقاءات الحب .. وهو لا يملك سيارة تجمعهما فى لقاء أكثر انطلاقا .. وليس لديه بيت يمكن أن يتستر داخله حبهما .. إلى أن فوجئ مرة بدلبر تأتى إليه وهى تقود سيارة .. وقالت ضاحكة وهى تفتح له الباب ليركب بجانبها :

ــ المفروض ألا أقود السيارة إلا والسائق بجانبى .. ولكننى استطعت اليوم أن أهرب من السائق ..

وانطلقت بالسيارة إلى شارع الهرم وهو لا يحس بالسعادة التى يحس بها عندما يلتقى بها .. يحس أنه التقى بالفتاة الغنية التى تملك سيارة فى حين أنه فقير لا يملك مثلها .. وهو يكره أن يحس بها فتاة غنية .. إن كل حبه قائم على تجاهل الفوارق بينهما .. حب يرتفع فوق الطبقات .. ولكن هذه السيارة تأخذه من طبقته لتضعه فى طبقتها .. طبقة أولاد الذوات .. إلى أن أوقفت السيارة فى جانب من رمال الصحراء .. والحديث لا ينتهى وإن كان يشوبه فى هذه المرة الافتعال .. ورغم ذلك خطر على باله أن يقبلها .. إنه يجب أن يبدأ من ناحيته بالوصول إلى القبلة .. كما بدأ بقبلته الوحيدة التى سبق أن جمعتهما عندما جاءت إليه فى عشته الخشبية التى كانت فى صحراء سيدى بشر أيام لقائهما فى ميامى .. وقد بدأ فعلا .. واقترب بشفته من شفتيها .. واستسلمت .. وتعمد كلاهما أن تستمر القبلة طويلا .. ولكنه لم يحس بالهيام والذوبان الذى أحس بهما فى القبلة السابقة .. ربما كان السبب أنه فى سيارتها وليس فى عشته ولا فى الصحراء الذى كان هو الذى اختارها وكان يعتبرها أرضه ..

وفى يوم آخر قالت له دلبر وكأنها لا تزال تبحث عن مكان آخر يلتقيان فيه غير شارع الجبلاية :

ـــ لماذا لا تعرفنى بأختك بثينة .. ما دامت تدرس الفرنسية فنستطيع أن ندرس معا .. ثم إنى أحب أن أعرف أختك ..

وقال منير ضاحكا :

ـــ فكرة .. إن بثينة هى أذكى أخواتى البنات وأقربهن إلى .. وهى تعلم أنى فى حالة حب وكثيرا ما تصب علىَّ التريقة والسخرية .. ولكنى أغيظها بألا أحدثها عنك .. إنها لا تعرف حتى الآن شيئا عنا .. وستفرح وتسعد عندما تعرف كل شىء .. وربما أحست أنها انتصرت على .. ولكن كيف تلتقيان ..؟

وقالت دلبر وذكاؤها يبرق فى عينيها كأنها تعودت أن تقدر كل شىء :

ـــ إنى أفضل أن تدعونى لزيارتها قبل أن أدعوها لزيارتى ..

إنها تذكره بيوم أن طلبت منه أن تزوره فى عشته الخشبية بعد أن أفلس وأصبح عاجزا عن أن يلتقى بها فى كازينو سان استفانو .. ربما كانت تريد أيامها أن تقنعه بأن البنت الغنية يمكن أن تزور الفقير الذى تحبه فى بيته .. وإن كانت يومها قالت له إنها جاءت إليه ليرى أن بنت الذوات يمكن أن تكون ست بيت تطبخ وتغسل وتمسح .. كما طبخت له الطعام يومها .. ربما كانت تريد الآن أن تقنعه بأنها تستطيع أن تنزل إلى مستوى عائلته كلها وتزوره فى بيت العائلة وتصادق أخته ..

وكانت عائلة منير تعلم أنه أصبح من بين أصدقائه كمال ابن الروزنامجى باشا .. فهو يتردد عليه كثيرا وينتظره بسيارته أمام باب العمارة .. وقد صعد إلى الشقة مرتين أو ثلاثا .. ولكن العائلة كانت تتركه منفردا بمنير فى حجرته

الخاصة ولم يلتق بأخواته البنات ولا بأمه أو أبيه .. وأبوه نفسه لم تكن من عادته أن يسأله كثيرا عن أبناء الباشوات ..

وعاد منير إلى البيت واختلى بأخته بثينة وقال لها فى لهجة تهتز حتى يكاد يهمس بها :

ـــ هناك فتاة تريد أن تتعرف بك ..

وقالت بثينة فى دهشة ساخرة :

ـــ من هذه التى فتنت بى ..؟

وقال منير :

ـــ إنها أخت صديقى كمال الروزنامجى ..

وقالت أخته وهى تنظر إليه نظرة مداعبة خبيثة :

ـــ هل هى ..

وبترت سؤالها وهى واثقة أنه سيفهم ما تسأل عنه .. وقال منير وهو يدير لها ظهره حتى لا ترى ارتعاشته :

ـــ إنها هى ..

وصاحت بثينة ضاحكة كأنها تزغرد :

ـــ الحمد لله .. عرفت أخيرا من هى .. الفتاة التى لطشت عقلك منذ مدة .. أين أراها ؟

قال منير وهو يتنهد متحملا مداعبة أخته :

ـــ إنها مستعدة أن تأتى لزيارتك إذا دعوتها .. وأعتقد أنها يكفيها أن تلتقى بها وحدك كأنكما أنتما الاثنتين تدرسان الفرنسية .. ولا داعى للقائها بباقى أخواتى ..

قالها كأنه لا يريد أن يغامر بكل أخواته البنات بتقديمهن إلى دلبر ..

وقالت بثينة ضاحكة :

ـــ ما دامت قد جاءت إلى البيت فيجب أن يستقبلها كل أخواتى .. وسأتفق معهن على طريقة هذا الاستقبال ..

وسكت منير مستسلما لأخته ..

وتحدد موعد استقبال دلبر .. وانقلب البيت كله استعدادا لاستقبالها .. استقبال ابنة الباشا .. كأن العائلة تعد لإقامة فرح زفاف ابنها منير .. وجاءت دلبر تحمل هدية .. صينية فضة محملة بحلوى المارون جلاسيه .. واستقبلتها أخوات منير الثلاث وكل منهن قد غالت فى انتقاء ثوبها وإعداد زينتها وإن كانت بثينة أقلهن مغالاة .. ولم تشترك الأم معهن فى الاستقبال واكتفت بأن أطلت على دلبر من خلال فتحة الباب .. والأب طبعا تعمد ألا يكون فى البيت ..

وكان الحديث مفتعلا .. وحتى الفرحة باستقبال الضيفة مفتعلة .. إنهن لا يستطعن تجاهل أن دلبر ابنة باشا ومن بنات الذوات .. وأحيانا يستسلمن لها وأحيانا يكن كأنهن يتحدينها .. إن الغلابة لسن فى حاجة إلى نفاق الأغنياء .. ثم انسحبت الأختان كما هو متفق عليه وتركن دلبر مع بثينة ومنير .. وكانت بثينة تخرج من الغرفة أحيانا معتذرة بأى عذر حتى تترك أخاها وحده مع حبيبته .. ثم تعود وتحاول رفع الكلفة بينها وبين دلبر .. ولكن الكلفة لم ترفع .. حتى بعد أن انتهت هذه الزيارة ولبت بثينة دعوة دلبر لزيارتها فى قصرها .. قصر الروزنامجى .. ظلت الكلفة قائمة بينهما .. بين ابنة الباشا وابنة الأفندى ..

ورغم كل ذلك استمرت حكاية منير مستمرة مع دلبر .. هذه الحكاية الغريبة .. يتصل بها كل صباح فى التلفون وقد تمر أيام لا يتصل بها .. ويلتقيان كل يوم أو كل أسبوع أو كل أسبوعين .. ويلتقيان فى شارع الجبلاية أو فى سيارة دلبر عندما تستطيع أن تهرب بها من السائق .. أو فى بيت منير بحجة زيارة أخته بثينة .. وهو غالبا لقاء محروم لا يحقق شيئا من أمانى الحب .. وربما كان ما وصل إليه منير بإحساسه بدلبر هو أنها رغم كل ما تعطيه فهى مرتبطة ارتباطا كاملا بعائلتها .. بطبقتها .. إن الحب لا يصل بها إلى حد المغامرة والتضحية بالطبقة التى تعيش فيها .. إنها كأخيها .. يؤمن بالماركسية ويعمل على فرض الماركسية على البلد كله ويعلن ثورته على الطبقة التى ينتمى إليها .. ورغم ذلك يعيش هذه الطبقة بكل ما فيها ولا يهجرها .. وعلى كل حال فإن منير أيضا ليس مغامرا ولا مجازفا ولا يفكر فى تحريض دلبر على المغامرة والمجازفة .. ربما كان مثلها يعتمد على طبيعة الفرجة على الحياة حتى لو كانت الفرجة قد انتهت بهما إلى الحب .. فهما فى حبهما مستسلمان للفرجة على الحياة .. وكان منير أحيانا يثور على نفسه .. كيف يكون بينه وبين أخت صديقه كل هذا الحب ولا يصارحه به .. حتى لا يكون مجرد لص يسرق شرف صديقه .. لماذا لا يصارحه بحبه لأخته وليكن ما يكون .. ولكن لعل الوقت لم يحن بعد لهذه المصارحة ..

وكان منير خلال هذه السنوات قد عاد إلى تعود استئذان دلبر فى أن يتغيب عنها بفكره وإحساسه حتى يتفرغ للدروس الجامعية وللقراءة خارج ما تقدمه له الجامعة ..

وكان يقرأ كثيرا .. وقد مرت به فترة كان يبحث فيها عن طريق يحقق العدالة الاجتماعية غير الماركسية .. وتعرف فى هذه الفترة بصديق جديد كان معروفا فى الكلية بسعة إطلاعه وتوسعه فى القراءة كما كان دائما من أوائل الطلبة : إنه الصديق حلمى محفوظ .. وقد دله الصديق حلمى على كاتب

إنجليزى لم يكن قد قرأ له .. وهو برنارد شو .. إنه كاتب سهل .. يعرض كل ما يدور فى العالم من أفكار بأسلوب يفهمه أى قارئ دون أن يحيره فى تعبيرات علمية لا يفهمها إلا المتخصصون .. وقد قرأ له كتابا صغيرا يضم بحثا عن الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية .. كأنه يحكى حكاية مسلية .. وقد أدمن قراءة برنارد شو .. وهو كاتب يدعو إلى حركة فكرية جديدة ظهرت فى إنجلترا تحمل اسم « الفيبيان » .. إنها حركة متحيزة لطبقة العمال ولكنها لا تطالب بثورة تلغى باقى الطبقات .. ولكنها تدعو إلى طريق معترف به يصل به العمال إلى الحكم بمنافسة بقية الطبقات .. طريق فى حدود الدستور والقوانين .. وهى الدعوة التى تكون حزب العمال البريطانى على أساسها .. ووصل الحزب إلى الحكم فعلا ..

وقد ظل عمرا طويلا مقتنعا بنظرية الفابيان إلى حد الإيمان .. إلا أنه صدم فيها عندما مرت السنوات وأصبح حزب العمال أضعف من النقابات العمالية .. وأصبحت النقابات هى التى تحكم العمال لا الحزب .. والنقابات يبلغ من تحيزها لأهدافها المحدودة أنها لا تستطيع وليس من صالح البلد أن تتولى الحكم العام ..

ومع استمراره طويلا فى هذه القراءات تحول فجأة وكأنه تذكر سؤالا هاما كان قد واجه به نفسه ثم نسيه .. لماذا هو مسلم ؟

إنه مسلم بحكم الوراثة .. ورث إسلامه عن أبيه وعن جده وعن جد جده .. ورغم أنه قرأ القرآن وكان حريصا على أن يؤدى فروض الإسلام ليؤكد إسلامه وإيمانه إلا أنه كان كابن صاحب الأرض الذى ورث الأرض عن أبيه وعاش حريصا على رعايتها وتنمية ارتباطه بها ..

لا .. يجب أن يتحدى كمال الروزنامجى بعد المناقشة التى دارت بينهما

ويثبت لنفسه أنه مسلم لأنه اختار الإسلام .. والاختيار لا يتم إلا بالاقتناع .. والاقتناع بالاختيار لا يتم إلا بعد استعراض وفهم كل الأديان .. بل وأيضا دراسة وفهم حجج الإلحاد .. ووجد نفسه يندفع إلى الحصول على الإنجيل والتوراة .. ويقرأ .. ويحاول أن يفهم .. بل وجد نفسه يكرر زيارة الكنائس .. وأيضا كنيس اليهود .. ويقدم على تساؤلات تبدو ساذجة يوجهها إلى القسس الذين يقوم على التعرف إليهم بكل بساطة .. وهو يزور الكنائس ويلقى التساؤلات كمتفرج لا يدرى مدى تأثير الفرجة على اقتناعه .. ولكن اقتناعه لا يبدأ من الصفر .. فهو اقتناع مستمر فى ارتباطه بالإسلام . ووجد نفسه يقع بفكره وخياله فى حيرة عنيفة .. حيرة فى فهم الدنيا وفهم الآخرة .. وحيرة بين الواقعية والخيال .. وحيرة بين إنقاذ النفس والتضحية بها .. إن الاديان كلها لم تصل إلى الإنسان لتدله على حياته فى الآخرة بل لتدله أولا على حياته فى الدنيا .. كيف يدخل الجنة بعد أن يكون سعيدا شبعان فى الدنيا ..

ووجد نفسه يعود إلى القرآن الذى كان يعتقد أنه عاش فيه منذ ولد وقرأ وحفظ منه الكثير .. إنه يعود ليقرأه بإحساس جديد .. إنه يقرأ ليفهم حتى يستكمل اقتناعه .. وقرأه كله ثم بدأ يستعين بكتب التفسير ويقرأ القرآن مرة ثانية .. واحتار مع كتب التفسير ويحس أحيانا بالعجز فى فهمها .. ثم قرر أن يتولى هو التفسير لنفسه وبدأ يقرأ القرآن مرة ثالثة .. إلى أن أحس بالراحة .. أحس بأنه استكمل اقتناعه ..

إنه الآن مسلم بالاختيار .. لا بمجرد الوراثة .

مؤمن باقتناعه .. لا باستسلامه ..

وقد استغرقت هذه الفترة شهورا طويلة من عمره تعدت العام .. ولم يكن

يتباهى بما وصل إليه من معلومات وفهم للإسلام .. كما أنه لم يتغير فى مظاهر إسلامه بالإفراط والمغالاة فيها .. ظل كما هو وإن كانت آراؤه فى الدين تنضج أحيانا فى أحاديثه الخاصة .. حتى عندما كان يتحدث فى لقاءاته مع حبيبته دلبر بدأ بلا قصد يفسر لها أحكام الإسلام فيما تقوم عليه حياتهما .. وقد قالت له مرة إن راهبات المدرسة الفرنسية التى تتردد عليها يجبرنها على أن تدخل الكنيسة مع بقية الطالبات كل صباح .. وأجابها فى بساطة :

ـــ تفرجى على ما يدور فى الكنيسة ..

وقالت دلبر فى سخط :

ـــ إنى لا أطيق هذه الفرجة .. إنى لست مسيحية .. إنى مسلمة ..

وقال وهو يبتسم ابتسامة هادئة :

ـــ إنك تدخلين الكنيسة كما تدخلين الفصل الدراسى مطيعة لنظم المدرسة .. وأنا أعلم أنك لا تطيقين كثيرا من الفصول الدراسية والعلوم التى تلقى عليك فيها .. لأنها لا تهمك ولست فى حاجة إليها .. أما إذا أحسست بالاهتمام والحيرة فأنت تلجئين إلى معلمة تلقى عليك دروسا خصوصية .. كذلك إذا أحسست بأن الفرجة على ما يدور داخل الكنيسة بدأ يحيرك مع إسلامك فالجئى إلى معلم إسلام .. إن الحيرة التى تؤدى إليها الفرجة هى الطريق إلى تقوية إيمانك ..

وقد تكون دلبر قد فهمته أو لم تفهمه ولكنها لم تتعرض لهذه الحيرة أبدا .. فكل حياتها لا تعتمد على الإسلام رغم كل المظاهر الإسلامية التى تحيط بها .. كما أنها لا تحس أبدا بحاجتها إلى المسيحية .. إن حياتها .. حياة أولاد الذوات .. تغنيها عن كل الأديان ..

وقد رفعت هذه الفترة من قوة ارتباط منير بصديقه محمد عبد الله عبد

اللطيف .. وزاد إحساسه بالراحة وهو جالس إليه .. وعبد الله مسلم كامل .. ويقيم كل حياته على الإسلام .. وإيمانه بالإسلام يغنيه عن فهمه ودراسته والتعمق فى تفاصيله .. إن قوة الإسلام كلها تقوم على هذا الإيمان ولم يتعرض المسلمون للفرقة والتمزق إلا وهم يحاولون الفهم والتفسير .. لذلك لم يكن منير يحاول أن يشغل صديقه عبد الله بالتفسيرات التى وصل إليها .. ولا يعرض عليه قراءاته .. كأنه يخاف عليه من تعكير صفو قوة إيمانه .. يكفى أنه مؤمن .. ولكنه كان قد بدأ يحس بقوة أكبر وهو يحادث صديقهما الأستاذ منصور أحمدين عضو جماعة الإخوان المسلمين .. ويدخل معه فى مناقشات واسعة كلما التقى به .. ولم يكن منير فى مناقشاته يحاول أن يفرض رأيه ولكنه كان دائما كأنه يريد أن يستقر على رأى .. وقد قال له مرة بصراحة :

ـــ لا أعتقد أن جماعة الإخوان المسلمين سيؤدى كيانها إلى تحقيق أهدافها ..

وسأله الأستاذ منصور وهو فى دهشة من صراحته :

ـــ كيف ترى هذا الكيان وكيف تتصور هذه الأهداف ؟

وقال منير فى هدوء ولهجة ليست معارضة ولكنها لهجة من يريد أن يفهم :

ـــ إن الاخوان يحصرون كيانهم فى الدعوة للإسلام .. وهى دعوة عامة ليست قاصرة على جماعة الإخوان وحدهم .. بل إن كل الحكومات القائمة والملك فاروق نفسه يساهم فى الدعوة للإسلام .. ويبرر حكمه ويغطى فسوقه بالدعوة للإسلام .. ويستند على قوة الأزهر ويتحكم فى وزارة الأوقاف ويلم حوله مشايخ الطرق الصوفية .. فإذا أفسد وثار عليه الإخوان المسلمون

رد عليهم بأداء صلاة الجمعة فى احتفال كبير .. كأنه يرد عليهم قائلا .. إذا كنتم تريدون الإسلام فهذا هو الإسلام .. ويخرج من مسجد الحسين ليقضى ليلته فى ماخور ملهى الأوبرج .. فكيف يستطيع الإخوان السيطرة على الملك فاروق وعلى كل حكوماته بالاكتفاء بنشر الدعوة ..

وقال الأستاذ منصور فى هدوء :

ــ إن الدعوة تجمع قوة المسلمين ليفرضوا إرادتهم على الملك وحكوماته ..

وقال منير وهو ساهم كأنه يستعيد ما اختزنه من آراء :

ــ إن الإسلام ليس مجرد دعوة .. ولكن الإسلام دين واقعى يشمل كل ما يواجه الإنسان مهما تطور إلى أن يحل يوم الدين .. والإسلام يدعو إلى مواجهة هذا الواقع مواجهة فعلية .. أى يفرض المسلمون إرادتهم المستمدة من الشريعة حتى فى أدق التفاصيل .. أى إذا شقت الحكومة مثلا شارعا فى الزمالك أو أقامت قصرا من قصور الأمراء بينما أحياء أغلبية المسلمين حوارى قذرة وأهلها يعيشون فى العراء أو فى عشش .. تحرك الإسلام .. ورفض شق الشارع أو إقامة هذا القصر حتى يحقق للمسلمين الواقع الذى يفرضه الإسلام .. فهل يستطيع الإخوان أن يحققوا ذلك ..

وقال الأستاذ منصور وهو ينظر إلى منير كأنه يشفق عليه :

ــ إن الإخوان يواجهون الواقع فى أدق تفاصيله .. ويعلنون حكم الشريعة على هذا الواقع ..

وقاطعه منير قائلا :

ــ لا يكفى إعلان الرأى فى محيط الدعوة .. يجب أن يكون الإخوان قوة تنفيذية فى مواجهة الواقع ..

وقال الأستاذ منصور مبتسما :

ــ ماذا تقصد بهذه القوة التنفيذية ؟ ..

وقال منير متحمسا :

ــ أى لا يكون الإخوان المسلمون جماعة بل يكونون حزبا سياسيا يصل بأغلبيته الشعبية إلى الحكم ويتولى تطبيق الواقع الشرعى .. الحزب الإسلامى المصرى .. وقد بدأ النبى محمد ﷺ وهو صاحب دعوة إلى أن ألهمه الله فأصبح صاحب قوة تنفيذية تحقق تعاليم الدعوة .. أى أصبح بلغة العصر حزبا سياسيا يفرضه الإسلام ..

وقال الأستاذ منصور بصوت يؤكد اقتناعه :

ــ إن دعوة الإخوان ستصل إلى أن يكون كل الحكام من المؤمنين بشريعة الإسلام .. ولكن أفراد الجماعة لا يتولون الحكم حتى لا يشغلهم عن مطالب الدعوة ..

وقال منير ساخرا :

ــ أنت تعلم أنى من المؤمنين ولكنكم لو عرضتم على الاشتراك فى وزارة إسلامية .. فلن أقبل إلا إذا كانت وزارة إخوان ورئيسها حسن البنا .. ثم ماذا حدث وأنتم لا تسعون إلى تحمل المسئولية التنفيذية ؟ .. لقد تعددت من حولكم الجماعات الإسلامية .. وانقسمتم فى داخلكم إلى جماعات سرية تمارس التطبيق التنفيذى لنشر الدعوة .. ومن أراد منكم أن يشترك فى الحكم فمن السهل عليه أن يستقيل من جماعتكم ويختلف معكم .. وكل هذا لأنكم لستم واقعيين .. تهملون مسئولية الواقع الذى يحقق تعاليم الإسلام .. ولو كنتم واقعيين داخل الواقع القائم لأعلنتم الجماعة حزبا سياسيا إسلاميا ..

وقال الأستاذ وهو أكثر حسما وجدية :

ــ لا يمكن أن نكون حزبا سياسيا لأننا لا نعترف بالواقع الذى تقوم عليه الأحزاب هذه الأيام .. لا نعترف بواقع نظام الحكم .. ولا بالدستور .. ولا بالقوانين السياسية .. ونريد أن نغير ونعدل كل ذلك .. وبعد ذلك قد نبدأ فى تحمل المسئولية التنفيذية كما تقول ..

وقال منير :

ــ أنا .. وربما كل الشبان .. يتمنون هذا التغيير والتعديل .. ولكن كيف ؟ ..

وقال الأستاذ منصور أحمدين :

ــ كن معنا ..

وقد ظل منير محتفظا بصداقته للأستاذ منصور أحمدين من خلال صداقته للصديق الدائم محمد عبد الله عبد اللطيف .. ولكنه لم يحاول أبدا ولم يفكر أبدا فى الانضمام إلى جماعة الإخوان أو حتى مجرد الانتساب إليهم .. إن أقوى ما يحتفظ به هو حريته .. والارتفاع بنفسه فوق كل الجماعات .. ولم يكن الأستاذ منصور يلح عليه للانضمام بعد أن سبق وعرض عليه .. ولكنه كان يكتفى بهذه المناقشات معه ويدعوه أحيانا لحضور اجتماعات عامة فى مقر الجماعة ليسمعه وهو يلقى خطابا ..

وفى نفس الوقت كانت صداقته بكمال الروزنامجى مستمرة .. إنه ليس صديقا لمجرد أنه شقيق حبيبته دلبر .. إنه فى أحاسيسه يكاد يبعد بين الأخ واخته .. إن دلبر بالنسبة له شىء وكمال شىء آخر .. حتى يكاد يتصور أن كلا منهما يعيش عالما آخر .. ومناقشاته مع كمال هى فرجة يتمتع بها ولا تنتهى متعته بها .. الفرجة على آرائه وكيف يفكر بين فكر باقى البشر ..

وهو لا يجتمع بالشلة إلا نادرا .. لا يحب أن ينتمى إليها أو يحسب كأنه منها .. ولكن اجتماعاته الدائمة مع كمال وحده .. اجتماعات قد تستمر دقائق وقد تمتد ساعات .. وكمال يطلب أكثر مما يطلب الصديق الدكتور منصور عضو الإخوان .. لقد طلب منه مرة أن يكتب منشورا ستوزعه الشلة قائلا :

ــ إنك لست من الشلة .. ولكنك أقدر من يفهم مبادئها وآراءها وأهدافها .. وليس بين الشلة من يستطيع أن يكتب على مستوى محترم .. كل المنشورات التى أصدرناها كانت مكتوبة بأسلوب ركيك تافه .. وأنا أعرف كما سمعت أنك تهوى الأدب ولك أسلوب كأنه فى مستوى أسلوب كاتب كبير .. فاكتب لنا هذا المنشور ..

واعتذر منير قائلا :

ــ إنى لا أستطيع أن أكتب إلا آرائى .. وآراء الشلة رغم أنى أعرفها إلا أنها ليست آرائى .. ولذلك لا أستطيع أن أكتبها وأوفيها حقها .. لا رفضا ولكن عجزا عن التعبير عن آراء غيرى ..

واصر منير على رفضه كتابة المنشور ..

وفى مرة أخرى فاجأه كمال بطلب غريب .. قال له إن إبراهيم عضو الشلة الماركسية يتتبعه البوليس للقبض عليه .. وهم ينقلونه من مكان إلى مكان حتى لا تصل إليه يد البوليس .. وكمال يرى أن خير مكان يمكن أن يختبىء فيه إبراهيم هو بيت منير .. إنه أبعد مكان يمكن أن يخطر على بال البوليس .. فمنير لا يعتبر من أفراد الشلة ولا يعرفه البوليس ..

وفكر منير طويلا .. إن البوليس لا يقبض على كمال نفسه وهو رئيس الشلة .. من يستطيع أن يقبض على ابن الباشا .. ولكن البوليس لا شك

يتتبع كل أفراد الشلة .. ولو قبل أن يخبىء إبراهيم فى بيته فهو لا يخبئه مشاركة له فى إيمانه بمبادئه أو لأنه ماركسى مثله ، ولكنه يخبئه تطوعا فى حماية الحرية .. حرية الرأى .. وحرية الاختيار بين الفكر السياسى .. إنه يعطى للشلة حرية الفكر الماركسى كما يعطى لنفسه حرية رفض هذا الفكر ..

وقال لصديقه كمال :

ـــ عندنا غرفة غسيل فوق سطح البيت يستطيع أن يختبىء فيها .. ولكن لا أكثر من يومين ..

واضطر أن يكذب على كل أهله .. قال لهم إنه زميل فى الكلية كان فى قريتهم وعاد ليجد نفسه مطرودا من الغرفة التى يستأجرها .. وتقبل الأهل كذبته فورا وتركوا له غرفة الغسيل .. وقد حرص على ألا يتولى أخواته البنات خدمة إبراهيم .. كان هو بنفسه الذى يقوم على خدمته ويقدم له الأكل ويشاركه فيه .. بل إنه تفرغ كله للصديق الهارب .. لم يكن يتركه أبدا وحده .. كأنه يخاف منه على بيته .. أو يخاف مما قد يتعرض له البيت .. من يدرى ؟ .. ربما عرف البوليس مكانه .. ولم يخرج من البيت إلا عندما صحب إبراهيم مرة بعد منتصف الليل ليتمشى به فى الشوارع القريبة تر فيها عنه .. كأن إبراهيم كان مسجونا وهو سجانه .. ويبرر هذا السجن أمام أهله بأنه يذاكر مع إبراهيم ..

وقد كان كمال الروزنامجى عند وعده .. فبعد يومين بالضبط أخذ إبراهيم الهارب وانتقل به إلى مكان آخر .. دون أن يحاول إبراهيم أن يعرف إلى أين انتقل به ..

* * *

والأيام تمر .. والشهور .. والسنوات .. وحياته مزدحمة بالفرجة على ما فى الحياة من آراء وأفكار ومجالات على قدر ما يستطيع أن يصل إلى الفرجة عليه من مشاهد الحياة .. وعلى قدر ما يسمعه وما يقرؤه من كلام يدور فى مجالات الحياة ..

إلى أن انتهى من كلية الحقوق .. حصل على الليسانس .. وكان متفوقا وإن لم يكن من الأوائل .. إن تطلعه إلى المعرفة لم يترك عقله متفرغا للمواد التى تدرس له فى الجامعة حتى يكون من أوائل الخريجين .. ولكنه متفوق كما هو متفوق دائما فى كل الامتحانات الدراسية التى مرت به ..

وكان مع الفرجة التى تحيط به بعد أن انتهى من الجامعة وحصل على الليسانس واثقا من أنه سيجد الطريق الذى يريده ليبدأ العمل .. ليبدأ فى الحصول على دخل خاص ويريح أباه من الإنفاق عليه .. إنه الآن شخصية مسئولة مسئولية كاملة .. وبدأ إحساسه بالمسئولية يتركز فى إحساسه بدلبر .. إن الحب مسئولية أيضا .. فكيف يحدد مسئوليته عن حبه .. عن دلبر ؟ ..

إن الطريق الطبيعى لتحديد مسئولية الحب هو الزواج ..

هل يتزوج دلبر .. ؟

وكيف .. ؟!

سهر الليل ليلاس
www.liilas.com

(٧)

لقد مر الآن أكثر من أربع سنوات على لقاء منير بدلبر .. سنوات حب عجيب لم يرسما خلالها أى صورة للمستقبل ولم يتبادلا أى وعد .. كأنه حب ليس له مستقبل يشغلان نفسيهما به أو يحسبان حسابه .. حب يعيش يوما بيوم .. وكل ما يحرصان عليه هو أن تستمر أيام اللقاء .. وهو حرص لا يدفعهما إلى مجازفة أو مغامرة ولكنه حرص هادئ كالحرص على لقاء الأصدقاء ..

وكان منير مؤمنا بكل فكره وكل إحساسه أن ما بينه وبين دلبر هو حب .. حب كامل .. وكان يطرد من فكره وإحساسه كل خاطر يدعو إلى اليأس .. ويطرد الصورة التى كانت تراوده أحيانا .. صورة ابنة الباشا تتفرج على ابن الأفندى .. وصورة ابن الأفندى يتفرج على ابنة الباشا .. كأن ما بينهما ليس حبا إنما مجرد فرجة يتمتع بها كل منهما بالآخر .. لا .. إنه متأكد أنه حب وإلا ما استمر كل هذه السنوات ولكانت الفرجة انتهت بعد لقاء أو اثنين .. وكان دائما يفكر فى رسم مستقبل هذا الحب .. وليس له إلا مستقبل واحد .. استمرار اللقاء العمر كله .. أن يعيشا حياة واحدة .. أى الزواج .. ولكنه لا يستطيع أن يبدأ فى عرض مشروع المستقبل .. مشروع الزواج .. وهو لا يزال طالبا يعيش معتمدا على أبيه الأفندى المتوسط الحال .. لا يستطيع أن يبدأ إلا وهو معتمد على نفسه .. مستقل بالمسئولية .. وهو فى الوقت نفسه لا ينتظر أن تبدأ دلبر فى مفاتحته برسم المستقبل .. أى تطالبه بالزواج .. لا .. لا يمكن .. ليس هذا من

طبيعة الفتاة المعتزة بنفسها القوية الشخصية .. إنها تفرض على الشاب أن يبدأ هو بعرض أمنيته بالزواج بها ..

والآن بعد أن تخرَّج فى الجامعة ونال الليسانس وبدأ استقلاله بنفسه واثقا أنه سيجد العمل الذى يريده .. ومهما كان هذا العمل فلا شك أنه يبدأ بدخل محدود .. فهل يستطيع بهذا الدخل المحدود أن يوفر مطالب الحياة التى تعيشها ابنة الباشا .. الحياة التى تعيشها دلبر ؟.. إنه يرفض تصور أنه هو الذى سينتقل إلى حياتها وليست هى التى ستنتقل إلى حياته .. ليس هو الذى ينتقل ليعيش فى قصر الروزنامجى ولكنها هى التى ستنتقل لتعيش فى بيت غانم أفندى .. وتعيش سعيدة كما تعيش أخته .. إن ما سيجمعه بدلبر ليس مظاهر الحياة وليس حسابات الدخل .. إن ما يجمعه بها هو الحب .. والحب أقوى من كل مظاهر الحياة .. الحب لا يقوم على نظريات حسابية .. تحسب بالأرقام قيمة ما يملك الآخر وما يصل إليه وما ينفق .. إن الحب يستمد قوته من نفسه .. ومتعته أن يبدأ المحبان بالاستقرار على الأرض .. أرض الحب .. ثم يبدءا الحياة معا .. إلى أن يقيما أفخم عمارة فى الدنيا .. عمارة الحب ..

ورغم ذلك مضت أيام وهو متردد فى أن يفاتح دلبر فى موضوع الزواج .. وقد التقى بها فى شارع الجبلاية كما تعودا خلال سنوات .. وأبلغها فى تواضع وهدوء خبر حصوله على الليسانس .. وانطلقت فرحتها حتى تعلقت بعنقه فى الشارع الهادئ الخافت الضوء وأخذت تقبله .. وكانت قبلات فرحة حتى إنه لم يكتف بها على خديه وشد شفتيها إلى شفتيه ومال بها على أرض شاطئ النيل يهيمان أكثر فى القبل .. كانت قبلات أحر من كل ما سبقها من قبلات وسرت فى خلجاتهما .. ورغم ذلك .. وبعد أن انتهت

القبل .. قبل أن يفترقا .. عجز أن يفاتحها فى موضوع الزواج .. موضوع المستقبل .. وهى هائمة فى فرحتها وكأنها تفضل الحب بلا مستقبل فلا تشده إليه ..

وقد عاد يومها إلى البيت واختلى بأخته بثينة التى من المفروض أنها أصبحت صديقة لدلبر وطلب منها بعد كلام طويل أن تبدأ هى فى عرض موضوع الزواج على دلبر .. وقالت بثينة وهى تنظر إلى أخيها كأنها مشفقة عليه :

ـــ إنى لو بدأت معها هذا الموضوع .. فكأنى أسعى إلى اتفاق بين العائلتين .. وأنت تعلم أن ليس بين العائلتين ما يمكن أن يحقق أى اتفاق أو نسب .. .. أين نحن وأين هم ؟..

وقال منير فى رجاء :

ـــ إنك لن تحادثيها باسم العائلة .. ولكنها صديقتك وكأنك تداعبينها بفكرة خطرت لك كأنك تلقين نكتة .. إن كل ما أريد أن أعرفه هو وقع هذه النكتة عليها قبل أن أحيلها أنا إلى موضوع جاد ..

وقالت بثينة من خلال ابتسامتها المشفقة :

ـــ إننا لم نصل بصداقتنا إلى حد تبادل النكت .. إنها صداقة لم ترفع الكلفة بينى وبينها فى عالم واحد .. وأنا أذهب لزيارتها فى قصر الروزناجى فأحس كأنى أمتع نفسى بالجلوس فى حديقة عامة رائعة .. وربما تأتى هى لزيارتى فتحس أنها تزور تحفة رائعة من تحف آثار القاهرة .. لا .. لا يمكن أن أفاتحها فى موضوع الزواج .. إن كل ما يربطنا بدلبر هو ما بينك وبينها .. هو حبكما .. ولا يستطيع أحد أن يقدر ما يمكن أن يصل إليه هذا الحب إلا أنت وهى .. فابدأ أنت بعرض موضوع الزواج عليها .. وأنت وحدك

الذى تتحمل النتيجة ..

وقال وهو يتنهد كأنه هو الآخر يشفق على نفسه :

ـــ هل تعلمين أننا طوال هذه السنوات ، لم نتحدث أبدا عن مستقبلنا معا .. زواج أم حب بلا زواج أم لا زواج ولا حب ؟..

وقالت بثينة ضاحكة :

ـــ ليس من حق طالب أن يفاتح فتاة فى موضوع الزواج .. ولو أن صديقتى علية تحب فتى لا يزال فى المدرسة الثانوية ورغم ذلك اتفقا على الزواج .. بعد عمر طويل .. وأنت الآن لم تعد طالبا فصارحها لتطمئن وتستريح برسم حياتك ..

ولم يستطع منير أن ينام ليلتها .. إن مسئولية تحديد مستقبل حبه هى مسئوليته وحده .. وقام فى الفجر وخرج من البيت وأخذ يطوف بالشوارع وهو تائه حائر إلى أن كانت الساعة الثامنة فذهب إلى دكان نفس البقال وأمسك بالتليفون فى عصبية بعد أن حيا البقال تحية عابرة كأنه لم يعد يهمه أن يتتبع هذا البقال ما يقوله فى التليفون .. وردت عليه دلبر وقال لها فى عصبية ودون تحية الصباح :

ـــ يجب أن أقابلك هذا المساء .. فى الجبلاية ..

وقالت دلبر فى دهشة :

ـــ ماذا حدث ؟

وقال فورا :

ـــ ستعلمين عندما نلتقى ..

وقالت فى صوت خافت كأنها حائرة :

ـــ فى الساعة السابعة ..

وكرر وهو تائه :

ـــ فى السابعة ..

ثم ألقى سماعة التليفون ..

وقضى يومه وهو يسير على قدميه دون أن يدرى أين يذهب .. ودون أن يخطر على باله أن يتردد على الأصدقاء الذى يحاول أن يستعين بهم فى تحديد العمل الذى يريده .. كل ما فى فكره هو ترديد الكلمات التى سيقولها لدلبر .. وتصور ما سترد عليه به من كلمات ..

إلى أن وقف فى انتظارها فى شارع الجبلاية .. وإلى أن رآها قادمة فى خطواتها الرشيقة وقوامها يهتز مع خطواتها كأنه يعزف لحنا هادئا ممتعا .. والتقت يداها بيديه كما تعودا ثم جذبها وجلس بها على السور الذى يمتد مع الشارع مطلا على النيل .. وقال وهو يبتسم ويحاول أن يضغط على أعصابه :

ـــ لقد مضى على أيام وأنا أفكر فى موضوع واحد .. حتى تعبت ولم أعد أستطيع أن أستمر فى التفكير .. إننا يجب أن نحدد مستقبلنا ..

وقالت دلبر فى دهشة بريئة :

ـــ ماذا يشغلنا بالمستقبل ؟.. مضت سنوات ومستقبلنا مستمر ولن ينقطع لقاؤنا أبدا ..

وقال وهو يلتقط يدها ويضغط عليها :

ـــ إن لقاءاتنا لا تحدد لنا مستقبل .. حتى ثقتنا فى عواطفنا ليست هى المستقبل .. المستقبل هو الحياة التى نعيشها معا .. ونحن لا نزال فى حاجة إلى تحديد صورة هذه الحياة .. (وضغط على يدها أكثر وخفت صوته كأنه يتنهد قائلا) .. دلبر .. هل تتزوجيننى ؟..

واتسعت عينا دلبر من شدة المفاجأة وسكتت فترة ثم قالت وهى تحنى رأسها كأنها تسائل نفسها :

ـــ لم لا ؟..

وقال بسرعة كأنه كان قد أعد كل كلمة :

ـــ أنت تعرفين الفارق الكبير بين حالتك وحالتى .. أنت من عائلة فى منتهى الغنى وأنا من عائلة ليست فى منتهى الفقر ولكنها ليست غنية ..

وقالت كأنها تطيب خاطره :

ـــ لا يهم .. قلت لك إن المرحوم بابا كان مفلسا عندما تزوج أمى ..

وقال منير وهو يبتسم متحسرا :

ـــ ولكنه كان ابن عائلة الروزنامجى .. عائلة توازى عائلة أمك .. ولكنى أنا من عائلات الأفندية ..

وقالت دلبر وهى تبتسم :

ـــ الدنيا تغيرت .. إن ابنة طبوزادة تزوجت من إنجليزى سائق تاكسى ..

قال وهو يقاوم نفسه :

ـــ هل تقبلنى العائلة زوجا لك ؟!..

قالت فى بساطة :

ـــ لا أدرى .. اطلبنى .. ونرى ما يحدث ..

وقال وهو يدور على وجهها بعينيه :

ـــ ولو رفضت العائلة ؟

قالت فى هدوء :

ـــ سنفكر فيما نفعله لو رفضت ..

وقال وهو يرخى عينيه كأنه مستسلم :

ــ ومن أحدثه من أفراد عائلتك ؟

قالت فورا :

ــ طبعا تبدأ الكلام مع أخى كمال .. إنه صديقك .. وهو الوحيد فى العائلة الذى لا يطيق تقاليد زمان ..

وقال وهو لا يزال مبتسما :

ــ لقد كنت مقررا أن أبدأ الكلام فعلا مع كمال ولكنى أردت أن أسمع رأيك أولا ..

إن يحيى باشا الروزنامجى كان قد مات منذ عامين .. وكان منير قد اشترك فى تشييع الجنازة ومواساة كمال .. وإن كان لم يجد كمال حزينا على وفاة أبيه .. وكان كأن وفاة أبيه حدث طبيعى لا يؤثر فى الكون ولا فيه فليس هناك ما يدعو إلى الحزن ولا حتى إلى كل هذه المظاهر التى اتخذت لتشييع جثمانه .. ودلبر أيضا لم تكن حزينة على موت أبيها وإن كانت قد حرصت على ارتداء الثوب الأسود .. رغم أن كمال هو الأخ الأصغر .. إنما لا شك أنه الأقرب إليه فى طلب يد أخته ليتزوجها ..

وذهب إلى الشلة الماركسية التى تجتمع فى مقهى الأسيوطى .. وفرح كمال به كما عوده بالفرحة كلما انضم إلى اجتماع الشلة .. وجلس يستمع إلى المناقشات دون أن يشترك فيها بل دون أن يبذل جهدا فى الاستماع إليها .. كان ساهما يعد الكلمات التى سيفاتح بها كمال بعد أن ينتهى هذا الاجتماع ..

وانتهى الاجتماع .. ومال منير على كمال هامسا :

ــ أريد أن أخلو بك .. تعال نتمشى وحدنا ..

وقال كمال ضاحكا :

ــ تعال نذهب إلى بيتنا .. إنى جوعان وأتمنى العشاء .. وتتعشى معى ..

وقال منير وهو يحاول الضحك :

ــ تعال أنت معى إلى بيتنا .. وتعرض لمفاجآت أمى عند تقديم العشاء كما أفاجأ أنا دائما ..

وقال كمال وهو يرد الضحكة :

ــ لا .. إنى جوعان إلى حد أنى لا أحتمل المفاجآت ..

وركب منير بجانبه فى سيارته الصغيرة القديمة التى يتعمد الظهور بها عندما يكون فى الأحياء الشعبية وهو ساخط .. لقد كان يفضل أن يفاتح كمال فى الموضوع وهم فى مقهى الأسيوطى ، أو وهما يتمشيان حوله .. إن شخصية كمال تتغير دون تعمد بمجرد دخوله إلى بيته .. إلى قصر الروزنامجى .. تصبح شخصية أقل تواضعا .. وأبعد قليلا عن الماركسية .. وكان يفضل أن يحادثه وهو فى منتهى التواضع .. وفى منتهى الماركسية التى تلغى الفوارق عن الطبقات .. وقال منير وكمال يقود السيارة .. وكان يتكلم فى لهجة حاسمة جريئة كأنه قرر أن يقتحم الحصن ..

ــ لن أنتظر حتى أفتح الموضوع ونحن نتناول العشاء .. اسمع يا كمال .. لعلك لا تعلم أنى وأختك دلبر أصدقاء .. وقد كان يجب أن نطلعك على هذه الصداقة منذ بدأت كما تفرض الأصول .. وحتى لا أخفى عنك شيئا لك فيه .. وكأنى أخافك أو كأنى أسرقك .. وقد حاولت فعلا منذ البداية أن أصارحك .. ولكن الظروف لم تسمح .. و ..

وقال كمال مبتسما وكأنه يسخر من منير الذى يعتقد أنه يستطيع أن يخفى عنه شيئا :

ـــ إنى أعلم بصداقتك لأختى منذ بدأت .. وإن كنت لم أهتم بتتبع تفاصيل هذه الصداقة ..

ودهش منير .. لقد كان كمال يعلم .. وطرد الدهشة وقال وهو يحاول أن يكون هادئا :

ـــ لقد تطورت التفاصيل خلال سنوات .. حتى إنى اليوم أطلب منك يد أختك دلبر ..

وضغط كمال على فرامل السيارة بعنف ووقفت وهى تطلق صوتا عاليا كأنه الصراخ .. ونظر إلى منير بعينين جاحظتين .. متسائلا وكأنه لا يصدق ما سمعه :

ـــ ماذا تقول ؟

وقال منير وهو يخفى ارتعاشة صوته :

ـــ أريد موافقتك على زواجى من دلبر ..

وهدأ كمال قليلا .. وركن السيارة التى يقودها بجانب الرصيف .. واسترخى على ظهر مقعده وقال كأنه ساهم مع فكره :

ـــ هل دلبر موافقة ؟

وقال منير وهو ينظر إلى كمال فى عينيه كأنه يعلن استعداده لأى مناقشة أو أى تحقيق :

ـــ طبعا موافقة .. كان لا يمكن أن أطلب موافقتك إلا بعد موافقتها ..

وسكت كمال لحظة يجمع فيها فكره ثم قال كأنه يعلن مبدءًا جديدا :

ـــ إن الصداقة بينك وبين دلبر هى موضوع خاص بينكما .. ولكن الزواج موضوع آخر ..

وقال منير مقاطعا :

ـــ إنها ليست مجرد صداقة .. إنه حب .. حب مضى عليه سنوات ..

وقال كمال وكأنه يحاول أن يكتم غيظه :

ـــ حتى الحب .. إنه علاقة بين اثنين .. ولكن الزواج هو علاقة بين هذين الاثنين والمجتمع الذى يحيط بهما .. لذلك فإنى عندما علمت أن بينك وبين أختى علاقة لم أحاول أن أحشر نفسى فيها .. لأنها علاقة خاصة .. وأختى حرة فى اختيار علاقاتها .. وحرة أيضا فى الاستجابة لأى علاقة اختارتها مهما تمادت .. ما دامت علاقة ليست عائلتها أو مجتمعها مسئولا عنها .. أما الزواج فلا يمكن أن ينفرد به الاثنان .. إنه إجراء يؤدى إلى وضع يدخل فى اختصاص العائلة كلها والمجتمع كله .. وأنا لا يمكن أن أشارككما فى تحمل مسئولية هذه العائلة وهذا المجتمع ..

وقال منير وهو يحاول أن يهدأ بابتسامته :

ـــ لقد كنت أنت المسئول عن حبنا .. فقد رأيت دلبر أول مرة من بعيد دون أن أجرؤ على الاقتراب منها .. فقد كنت أقدر أن الفارق الاجتماعى بينى وبينها يحول بيننا إلى الأبد .. لا يمكن أن تجتمع ابنة الباشا بابن الأفندى على أمل واحد .. حتى ولو كان مجرد أمل الحب .. هكذا كنت مقتنعا .. وكان لا يمكن أن أصل حتى اليوم بعلاقتى بدلبر إلى أكثر من الإعجاب من بعيد .. ولكنك ناديتنى وتعرفت بى .. وأحسست منذ اليوم الأول أن المجتمع يمكن أن يجمع بين أولاد الباشوات وأولاد الأفندية .. أقنعتنى منذ البداية بإزالة الفوارق بين الطبقات ولو عن طريق الماركسية .. فدفعتنى ماركسيتك إلى جرأة الإقدام على التقرب من أختك دلبر .. وربما هى أيضا لم تقبل جرأتى إلا بعد أن رأتنى معك .. فأنت المسئول .. وإذا كنت مسئولا عن تحقيق حبنا فأنت مسئول عن تحقيق النتيجة الطبيعية لهذا الحب .. أى تحقيق الزواج ..

وقال كمال ساخرا :

ـ إنى لم أحاول إقناع المرحوم أبى أو إقناع أمى أو إخوتى مبادئ الماركسية أو بالمجتمع الماركسى .. ولا حتى إقناع دلبر رغم أنها أقرب إخوتى إلىّ .. لأنى أعلم مقدما أن لا أمل فى إقناعها .. ولذلك لن أحاول إقناعهم بأن تتزوج دلبر ..

وقال منير كأنه يلومه :

ـ ولكنك أقنعت نفسك بالماركسية .. ويمكنك إقناع نفسك بزواجى من دلبر ..

وقال كمال كأنه وصل إلى حد المصارحة التامة :

ـ إنى مقتنع بالماركسية ولكنى لا أعيشها .. إنى لا أزال أعيش المجتمع الطبقى بكل ما فيه .. أعيش فى قصر الروزنامجى .. فى انتظار أن تقوم الثورة الماركسية الشاملة .. وبعدها أعيش .. أعيش الثورة .. وتستطيع أنت ودلبر أن تنتظرا الثورة ثم تتزوجا بعدها ..

وصاح منير كأنه لم يعد يحتمل :

ـ إن هذه الثورة لا تزال وهما .. ونحن لا نستطيع أن نعتمد على الأوهام .. نريد أن نعيش الواقع ونتزوج ..

وقال كمال وهو يتنحنح كأنه يقاوم نفسه :

ـ ليس أمامكما إلا أن تتحملا شرعية زواجكما وحدكما كما تحملتما مسئولية الحب .. ولن أتدخل ما دامت دلبر موافقة على ما يتم بينكما ..

كأن كمال يترك له حرية الزواج من أخته دون موافقة العائلة ولا موافقته .. كأنه يحرضه على الهروب بأخته .. لا .. لا يمكن .. إنه يتزوج دلبر لأنه يحبها .. ولكنه لا يتزوجها إلا وعائلتها أيضا تحبه وتعتز به وبأنه يشرفها أن

يتزوج ابنتها .. إنه فقير ولكنه أنظف وأقوى من عائلة الروزنامجى ..

وقال منير وهو يحنى رأسه بأسى ويمد يده إلى مقبض السيارة :

ـ لا أدرى ما يمكن أن يتم بينى وبين دلبر .. لقد علقنا كل آمالنا عليك .. واسمح لى .. إنى لا أستطيع أن أتناول معك العشاء ..

وفتح باب السيارة ونزل منها وكمال يصيح وراءه ضاحكا ضحكة مفتعلة :

ـ إنك ترحمنى من هذا الموضوع حتى أستطيع أن أشبع بطنى بطعام العشاء فإنى أكاد أموت جوعا .. مع السلامة ..

وانطلق كمال بسيارته بسرعة كأنه يقفز بها بعيدا عن منير .. وسار منير طويلا كعادته دون أن يحس بثقل قدميه .. ودخل البيت وألقى بنفسه على فراشه دون أن يفكر فى النوم .. وعقله لا يرتاح من التفكير فى الماضى والحاضر والمستقبل .. وتطوف به ابتسامات ساخرة .. إن الماركسى يرفض أن ينقل أخته من طبقة إلى طبقة .. إنه مهما تمادى فى ماركسيته فهو أساسا ابن باشا ويرفض أن يناسب الأفندية ..

وفى صباح اليوم التالى اتصل بدلبر فى التليفون دون أن يهتم باختيار المكان الذى يتحدث منه وقال لها فورا :

ـ لقد التقيت أمس بأخيك وحادثته فى كل شىء ..

وقالت فى بساطة دون أن يبدو فى صوتها رنة ثائرة ولا حتى آسفة :

ـ أعلم .. وأعلم أنه رافض .. لقد حدثنى طويلا ليلة أمس ..

قال وهو لا يقدر أنه يتحدث فى التليفون وإن كان حريصا على صوت خفيض :

ـ لقد طلب منى أن نتحمل مسئولية الزواج وحدنا ..

وقالت ساخرة :

ـــ إنه يطلب المستحيل .. فهى حياة لا نستطيع أن نتحملها وحدنا ..

وقال بسرعة وهو يلهث :

ـــ إن الحب قد يصل أحيانا إلى درجة الجنون ..

وقالت كأنها تضحك :

ـــ لننتظر إلى أن نجن .. وسأراك غدا ..

وترك التليفون بعد أن اتفقا على موعد ومكان اللقاء .. شارع الجبلاية أيضا .. وفى نفس اليوم فوجئ بكمال يمر عليه فى بيته وينتظره فى سيارته بعد أن أرسل إليه ابن البواب .. ونزل إليه وصافحه فى برود وجلس بجانبه صامتا .. وقال له كمال وهو يحلق فى وجهه بكل عينيه :

ـــ إنى أعتبر الموضوع الذى تحدثنا فيه أمس قد انتهى .. وقد تركت لك الحرية الشخصية التى أعرف أنك تؤمن بها .. وهناك الآن موضوع فى منتهى الأهمية .. إن خطاب بك عضو مجلس الشيوخ سيقدم مشروعا بتحديد ملكية الأرض الزراعية بخمسين فدانا .. ونحن طبعا نؤيد هذا المشروع ونبذل كل جهدنا فى فرضه .. وقد اتصلنا بخطاب بك واتفقنا على الكثير مما يجب أن نقوم به .. وأنا أعرف أنك صديق لبعض الصحفيين وأتمنى لو استطعت أن تجندهم فى خدمة المشروع .. إنه ليس مشروعا ماركسيا حتى تعتذر كعادتك عنه ولكنه لا شك خطوة نحو الماركسية ..

وقال منير ساخرا وبلا اهتمام بعد أن تعب فى الاستماع إلى كمال :

ـــ إنه مشروع وهمى .. لعله مجرد دعاية يقوم بها صاحبه لنفسه .. فإن كل أعضاء المجلس يملكون أكثر من خمسين فدانا ولا يمكن أن يقبل واحد منهم التنازل عن شبر واحد من أرضه ..

وقال كمال فى حماس :

ـــ حتى لو كان مجرد دعاية .. فهى دعاية لنا ..

وقال منير وهو يتلفت إلى الطريق الذى يقود فيه كمال السيارة :

ـــ إلى أين ؟

وقال كمال فى بساطة :

ـــ إن الشلة تنتظرنا فى مقهى الأسيوطى ..

وقال منير فورا وبحدة :

ـــ آسف لن أستطيع أن أحضر اجتماع اليوم ..

ولم يجادله أو يتحايل عليه كمال وقال فى بساطة :

ـــ سأعود بك إلى بيتك ..

وقاطعه منير بسرعة :

ـــ لا .. سأتركك هنا ..

وأوقف كمال السيارة بلا تردد وهو يقول له :

ـــ مع السلامة .. يجب أن أراك غدا لنتفق على ما نفعله ..

وقال منير وهو ينزل من السيارة :

ـــ بإذن الله ..

وانطلق كمال بالسيارة وهو يلوى شفتيه .. ما دخل إذن الله هنا ؟ .. إنه إذن منير نفسه .. إنه لا يحتمل ذكر الله حتى فى هذه الكلمات الروتينية ..

وسار منير وهو مقتنع بأن كمال لم يأت إليه لأهمية المشروع الجديد .. إنما أتى ليطمئن إلى استمرار صداقته بعد الحديث الذى جرى معه أمس .. ورغم ذلك لم يكن كمال صادقا عندما قال إنه ترك الحرية له ولأخته ليتحملا مسئولية ما يريدان .. وكان قد مضى حوالى ثلاثة أسابيع فى لقاءات بين منير

ودلبر .. لقاءات فى كلام لا يصلان به إلى قرار . كان منير أيضا لم يصل به جنون الحب إلى حد أن يقدم على تحمل مسئولية الزواج وحده .. إلى أن التقيا آخر مرة .. وقالت له دلبر فى رجاء :

ــ أرجو أن تفهمنى عندما تفاجأ بما سأقوله لك ..

وقال مبتسما فى مرح :

ــ إنى افهمك أبعد مما أسمعه منك ..

قالت وهى ترخى عينيها :

ــ لقد قبلت أن تعلن خطوبتى ..

وفغر فاه من دهشة المفاجأة وقال كأنه لا يصدق أذنيه :

ــ خطوبتك إلى من ..

وقالت فى بساطة :

ــ إنى اعرف أنك تعرفه .. إنه عادل السلانكلى ..

واتسع فمه الذى تعفره الدهشة .. إن هذا السلانكلى هو أتفه شخصية فى الشلة الماركسية .. إنه بلا شخصية رغم أنه ينتمى إلى هذه العائلة القديمة سليلة الغزو التركى فهو يملك مئات الأفدنة .. إنه دائما مستسلم استسلاما كاملا لصديقه كمال الروزنامجى ويردد كلماته كالببغاء .. كل الشلة تعرفه وتعامله على أنه تافه .. وهو شخصيا لا يطيقه ويرد عليه عندما يحاول أن يثير معه مناقشة باحتقار شديد ..

وصاح منير فى وجه دلبر :

ــ لماذا اخترت هذا التافه ؟ ..

وقالت دلبر وعيناها معلقتان فى عينى منير :

ــ إن أخى كمال رشحه لى .. وقبلت لأنى أعرف عنه أنه سهل ..

وقال ساخطا :

ــ ماذا تقصدين بأنه سهل .. ؟

قالت مبتسمة وهى تقترب منه أكثر :

ــ إنى واثقة أنه لن يمس حريتى .. أنت تعلم أنى رفضت كل من رشحوه لى حرصا على حريتى ولكنى وصلت إلى اليأس من أن أتزوجك أنت ووجدت عادل السلانكلى لن يؤثر فى حريتى معك .. فقبلت ..

وقال من خلال سخطه :

ــ ستكونين لرجل آخر فماذا تفعلين بحريتك معى ؟ ..

وقالت كأنها تنطلق فى فرحة :

ــ ستكون حرية أوسع .. ستتصل بى كل يوم فى التليفون دون أن تتقيد بموعد الساعة الثامنة صباحا .. وسنلتقى دون أن تتقيد بشارع الجبلاية .. ربما أصبح لنا مكان نتمتع فيه بحرية الحب .. إنى لم أقبل الزواج بعادل إلا بعد أن اطمأننت على حياتى معك ..

وقال ساخرا :

ــ طبعا .. صاحبة السمو الأميرة من حقها وهى زوجة أن تختار الشماشرجى والسائق والسفرجى وأيضا تختار المرافق .. وشكرا لأنك قررت أن أكون مرافقا لسيادتك .. رفيق .. عشيق ..

وصاحت دفاعا عن نفسها :

ــ لقد قررت أن أعيش الحب .. وأنا أحبك ..

وقال كأنه يحادث نفسه :

ــ إن الحب يحصن نفسه ولا يسمح لرجل غريب أن يدخل فيه .. كيف يكون الحب وأنت لرجل آخر وأنا لامرأة أخرى ؟ ..

وقاطعته وكأنها تتوسل إليه أن يفهمها :

ــ كن واقعيا .. لقد حاولنا أن نتزوج ولم نستطع .. وانتظرنا أن نجن حتى نتحدى العائلة وكل المجتمع ونتحمل المسئولية وحدنا ولكننا لم نجن .. ولم يبق لنا إلا أن نستسلم للواقع ونحتفظ فى الوقت نفسه كل منا بالآخر .. نحتفظ بالحب ..

وقال فى هدوء كأنه يرثى نفسه :

ــ إن واقعى يختلف عن واقعك .. إنى لا أعتقد أن هذا طريق الاحتفاظ بالحب .. إنه طريق تشويه وتلويث الحب .. فالحب ليس مجرد لقاء ولكنه حياة .. وقد كنا نلتقى فى انتظار أن تبدأ حياتنا .. حياة الحب .. ولكنك خنقت الحب وتريدين أن تنتقلى بجثته لا إلى قبر بل إلى فراش يجمعنا حولها .. حول الجثة ..

وقالت وكأنها بدأت تيأس :

ــ إن الواقع هو الذى يفرض علينا شروطه .. ومن حقنا أن نتحايل على هذه الشروط حتى لا نكون عبيدا .. إننا أحرار .. وأنت تؤمن بالحرية ..

وقال فورا وفى لهجة حادة كأنه يلقى عليها درسا :

ــ الحرية مذاهب تشمل كل ما فى الحياة .. فالقاتل حر .. واللص حر .. والزانية حرة .. كما أن الماركسى حر .. والرأسمالى حر .. ونحن مختلفان فى اختيار مذهب الحرية ..

ولم ترد .. سكتت واليأس ينهار بها ..

وعاد يقول فى لهجة حاسمة :

ــ هل أنت مصممة على هذا الزواج ؟ ..

وقالت دون أن تنظر إليه :

ــ إنى مقتنعة إلى حد التصميم ..

وقال فى حدة :

ــ إذن لا تسأليني شيئا .. ولن أسألك شيئا .. ولنترك المصير للقدر .. ومع السلامة ..

وهم أن يتحرك مبتعدا عنها .. فصاحت به :

ــ ألن تسير معى حتى آخر الشارع ؟ ..

قال فى جفاء :

ــ تقدمينى .. وسأكون خلفك ..

وصاحت فى غيظ :

ــ لا أريدك أن تسير معى ولا خلفى .. اذهب أنت ..

وتقدمها مبتعدا عنها .. ولكنها عندما بدأت بعد دقائق تسير فى الشارع خافت الضوء كان لا يزال مختبئا خلف شجرة ليطمئن عليها حتى تصل إلى بيتها .. إلى قصرها ..

وهو وحده تعصف به الزوابع .. إن كمال هو الذى حرض أخته على الزواج من السلانكلى .. ربما لأنه من أعضاء الشلة الماركسية ومستسلم له .. ربما لو كان هو قد انضم إلى الشلة كان هو الذى اختاره كمال لأخته .. ولكن لا إن كمال لم يختر السلانكلى لأنه عضو الشلة .. عضو الحزب .. ولكن لأنه من عائلة السلانكلى .. عائلة موازية اجتماعيا لعائلة الروزنامجى .. إن أساس شخصية كمال ليست قائمة على أنه ماركسى ولكنها قائمة على أنه ابن ذوات ..

وفى صباح اليوم التالى لم يبحث منير عن تليفون ليتصل بدلبر .. مر أكثر من أسبوع وهو لا يتصل بها .. كان قد قرر أن يقضى على كل ما بينه وبينها .. يقضى على حبه مهما عانت عواطفه ومهما عانى من حرمان .. إنه

لن يحتمل ما تعده به دلبر .. إنه طريق لا يستطيع أن يعيش فيه .. إنها لم تكن بالنسبة له مجرد امرأة يشتهيها حتى يقبل وعدها بإشباع شهيته .. كانت بالنسبة له حياة كاملة .. وقد انتهى الأمل فى هذه الحياة .. ويجب أن يستسلم لليأس ..

وفوجئ بعد أن مرت الأيام بسيارة دلبر تصل إلى البيت ويصعد السائق ويسلم خطابا منها إلى أخته بثينة ..

إنه خطاب قصير مهذب بكلمات فرنسية ترجو فيه دلبر صديقتها بثينة أن تبلغ أخاها بانتظارها أن يتصل بها بالتليفون ..

وتردد .. لن يحدثها بالتليفون .. وأخته بثينة تلح عليه .. إنها تؤيد أن يهجر حبه لها .. فهى أيضا متأكدة بأنه حب بلا أمل .. ولكن ليحدثها فى التليفون بلا حب ..

وفى نفس موعد الثامنة صباحا حادثها فى التليفون وهو يضغط على كل أعصابه المرتعشة .. إنه يحبها .. ولكن يجب أن يقاوم هذا الحب ويبدو قويا وهو يحدثها .. وقال فورا بمجرد أن سمع صوتها :

ــ هل حدث جديد ؟ ..

وقالت وصوتها ينبض مع قلبها :

ــ أى جديد تقصد ؟ ..

قال فى حدة :

ــ جديد بالنسبة لزواجك ؟ ..

قالت فى رنة إغراء :

ــ لم يحدث جديد .. ولكنى أريد أن ألقاك ..

قال فى حسم :

ــ لا داعى لأى لقاء ..

قالت كأنها ترجوه :

ــ مهما حدث بيننا فإن هناك ما يمكن أن يستمر إلى الأبد .. صداقتنا ..

وقال بسرعة :

ــ إننا فى حاجة إلى مدة طويلة حتى يتحول كل ما كان إلى مجرد صداقة .. مع السلامة ..

وتركها .. وعاد يعيش معاناة قاسية وهو يقاوم كل ذكرياته وآماله .. لا أحد ممن يعرف منير يتصور أنه يربط نفسه بالمبادئ العامة إلى هذا الحد .. الشرف .. الأصول .. الشرع .. التسامى .. حتى الذين كانوا يعتبرونه أنه مجرد متفرج على كل ما يجرى فى الحياة لا يعلمون أن هناك نواحى فى الحياة يرفض التفرج عليها .. إنه إلى اليوم ورغم أنه وصل إلى الخامسة والعشرين لم يتفرج على امرأة يمارس الجنس معها .. حتى فى صباه عرض عليه صديقه محمد عبد الله عبد اللطيف أن يذهبا معا إلى وش البركة ليمارسا الجنس مع إحدى البغايا المحترفات .. فرفض رغم أن صديقه وعده بأن يدفع له العشرة القروش التى كانت تأخذها البغى .. إنه إلى اليوم لا يزال من هذه الناحية بكرا .. وعندما غلبه حبه لدلبر كان كل ما أباحه لنفسه معها هو القبلات .. وكان قادرا دائما على أن يقاوم ما هو أكثر .. ولا يمكن أن يقبل أن يصل إلى ما هو أكثر بعد أن تزوجت دلبر رغم أنها تقول إنها تزوجت لتصل معه إلى هذا الذى هو أكثر ..

وكمال يتردد عليه .. بل إنه كأنه يتعمد أن تتلاحق لقاءاته به .. ومنير يرفض أن يصحبه فى اجتماعات الشلة .. بل ويرفض أيضا أن يلتقى به فى

قصر الروزنامجى .. إنما يكتفى أن يطوف معه بالسيارة فى الشوارع .. أو يجلسا فترة فى مقهى آخر غير مقهى الأسيوطى .. ويدعوه منير أحيانا إلى زيارته فى بيت العائلة ليقدم له القهوة أو الشاى أو زجاجة الكازوزة ولم يعد يدعوه إلى الغداء أو العشاء .. فمنير أصبح يكره أن يحس ويواجه الفارق بين ما يستطيع أن يقدمه على مائدته وما يستطيع كمال أن يقدمه على مائدة الروزنامجى .. ولو أن كمال يتعمد أن يثبت عدم اعترافه بهذه الفوارق إعلانا لمذهبه الماركسى ..

وفى كل هذه اللقاءات لم يكن الحديث يشمل من بعيد أو قريب أى إشارة إلى مصير موضوع دلبر .. إلى أن مضى حوالى ثلاثة شهور وقال له كمال فى لقاء :

ـــ هناك حدث يجب أن أصارحك به .. فصداقتنا أقوى من كل الأحداث .. خصوصا وأنه حدث عادى طبيعى .. إن أختى دلبر ستتزوج صديقنا عادل السلانكلى ..

وقال منير وهو يضغط على أعصابه :

ـــ أعرف ..

وقال كمال فى دهشة :

ـــ كيف عرفت .. ؟

وقال منير فى بساطة وكأنه لم يعد هناك شيء يخفيه :

ـــ دلبر قالت لى ..

وابتلع كمال ريقه كأنه يبتلع حيرته فى كيف يعلق على اتصال أخته به ثم قال وهو يفتعل البساطة أيضا :

ـــ إن الزفاف يوم الخميس القادم .. وأنت مدعو .. قد تعود إلى البيت

فتجد الدعوة فى انتظارك ..

وقال وهو ساهم :

ـــ يشرفنى .. ومبروك لأختك وصديقنا عادل وأنت وكل العائلة ..

وتركه بسرعة لينفرد بما يعانيه بعيدا عنه ..

وفى اليوم التالى جاءت سيارة الروزنامجى وصعد السائق ليبلغ أخته بثينة أن دلبر هانم ستأتى لزيارتها فى الساعة الخامسة .. تجيء إليه وهو رافض أن يذهب إليها .. وتجيء إليه قبل الزفاف لعل الشوق يكون قد تغلب عليه فيقبل ما عرضته عليه .. أن يستمر لقاؤهما .. أن يستمر حبهما ..

وخرج من البيت مصمما ألا يعود ويراها .. وجاءت دلبر بحجة دعوة أخته بثينة وأفراد العائلة إلى حفل الزفاف .. ولم تستمر الزيارة طويلا بعد أن اكتشفت أن منير ليس فى البيت .. وخاب أملها فى أن يكون قد تعمد انتظارها ..

ورفضت العائلة كلها الدعوة .. ليس بين العائلتين ما يبرر أن يشتركا فى فرح .. وقالت له أخته بثينة :

ـــ لا أريد أن أتفرج عليهم أو يتفرجوا على ..

وقالت أمه ضاحكة :

ـــ إنه فرح يجب أن تذهب إليه كل بنت بفستان جديد فلنوفر ثمن ودوشة الفساتين ..

ولكن منير ذهب هو وحده إلى حفل الزفاف ..

ذهب وكأنه مصمم على تحدى دلبر وإقناعها بأن الأمر لم يعد يهمه ..

إنه حفل كبير يتزاحم فيه المدعوون من رجال ونساء وجمع أغلب باشوات مصر من رجال حزب الوفد .. وجمع أيضا كل أفراد شلة كمال الماركسية ..

بل إنه دعى عبد الباسط الذى يقوم على خدمتهم فى مقهى الأسيوطى .. ومنير محشور وسط الزحام صامتا .. إلى أن بدأت الزفة ودخلت العروس تتأبط ذراع العريس .. ولاحظ منير أنها وهى تخطو نحو الكوشة تتلفت بين المدعوين كأنها تبحث عن واحد .. ربما كانت تبحث عنه .. وابتسم ساخرا من نفسه .. إنه لا يمكن أن يخطر على بال دلبر فى زفافها .. لعلها تتلفت فقط لتعرض على الناس ابتسامتها الحلوة ..

ووقف العروسان فى الكوشة والمدعوون يمرون بهما ويهنئون .. وتعمد أن يصل إليها .. وحاول وهو يصافحها أن يقول مبروك .. ولكنه لم يستطع .. ولمس يدها لمسة سريعة كما لمس يد السلانكلى .. ودون حتى أن يرفع عينيه إلى عينيها .. وقبل أن يخطو سمعها تقول :

ــ أين بثينة ؟ ..

ورفع عينيه إليها .. إن عينيها تحملقان فيه كأنها تريد أن تلقى نفسها عليه .. ولكنه أرخى عينيه عنها وخطا دون أن يرد عليها .. ثم سار يزاحم حتى خرج من القصر كله دون أن ينتظر كما هو المفروض ليسمع غناء أم كلثوم ..

وعاد إلى البيت كأنه يلقى بنفسه فى جحيم معاناته .. إن جحيم الآخرة أخف من جحيم الدنيا .. وقد انتقل بحبه إلى الآخرة ..

وبعد يومين من الزفاف سافر كمال إلى لندن ليتم دراسة الماركسية كما يقول ..

وقد ارتاح لسفره ..

ارتاح من كل عائلة الروزنامجى ..

(٨)

كان أول ما طرأ على بال منير بعد أن تخرج وحصل على الليسانس هو أن يكون وكيلا للنيابة .. فأبوه يتمنى أن يتفاخر ويتباهى بأن ابنه وكيل للنيابة .. وهو قد حصل على مجموع يؤهله ليكون وكيلا للنيابة وله من المعارف ممن يمكن أن يعتمد عليهم فى السعى للوصول إلى هذه الوظيفة .. ولكنه كان فى قرارة نفسه لا يريد أن يكون وكيلا للنيابة .. حتى لو كان قد تخرج وهو من الأربعة الأوائل لما تمنى أن يكون معيدا فى الجامعة ليصل إلى درجة أستاذ .. إنه لا يريد أن يكون موظف حكومة .. ولن يطيق أن يعيش حياته كموظف .. إنه يتمنى أن يعيش محتفظا بحريته .. حتى حرية أكل العيش .. والطريق الوحيد الذى يضمن له هذه الحرية هو أن يتفرغ للمحاماة .. وفى الوقت نفسه لا يشعر برغبة فى الاستمرار فى دراسة القانون حتى يحصل على الدكتوراة كما يلح عليه أبوه وكل معارفه بعد أن عرفوا عنه تفوقه فى الدراسة .. إن أغلبية ثقافته حصل عليها من خارج الجامعة .. حصل عليها من إطلاق حريته فى اختيار ما يقرؤه .. لم يكن أبدا يحصر نفسه داخل قراءة مقررات الجامعة متخصصا فى دراسة القانون .. لقد بنى شخصيته على حرية التفرج على كل ما فى الحياة من أفكار وآراء سياسية وأدبية واجتماعية واقتصادية .. وهى حرية تضمن له أن يستفيد بها فى بناء نفسه أكثر مما يستفيد لو تفرغ للحصول على الدكتوراه ..

ولقد استطاع أن يقنع أباه بأمنياته التى يريد أن يحققها لنفسه .. وربما لم يقتنع الأب ولكن حبه لابنه وثقته فيه كانت تدفعه فى النهاية للاستسلام له

ولكل ما يريده .. وربما زاد اطمئنانه عندما علم أن ابنه سيقضى فترة التمرين فى المحاماة التى تنص عليها الإجراءات فى مكتب الأستاذ المحامى الكبير عبد الهادى مرعى .. إنه من أكبر المحامين فى مصر ومن أكثرهم احتراما .. وهو محام ليس له حياة سياسية .. ليس عضوا فى حزب من الأحزاب .. ولا يعتبر نفسه سياسيا مستقلا .. ولم يقبل أن يكون وزيرا رغم كثرة المرات التى عرضت عليه الوزارة مع الإلحاح الشديد .. إنه أستاذ متفرغ للمحاماة .. وإن كانت مرافعاته أمام المحاكم فى القضايا التى يقبل الترافع فيها تدوى كلماتها شعبيا وتؤثر فى كل المجالات السياسية .. حتى إن كثيرا من كلماته تردد كأنها شعارات .. وقد كان منير معجبا بل مبهورا بالأستاذ مرعى منذ كان طالبا .. وقد سبق أن جمع اثنين من زملائه الطلبة والتقوا بالأستاذ مرعى ليأخذوا رأيه فى مشكلة من مشاكل القانون الذى يدرسونه .. واستقبلهم بما هو معروف عنه من بساطة وأبدى إعجابه يومها بطريقة عرض منير لآرائه القانونية .. وهو ما شجع منير على أن يطلب لقاءه مرة ثانية بعد فترة طويلة .. وفرح بأن الأستاذ لا يزال يتذكره .. ولم يتردد الأستاذ بعد أن تخرج منير فى أن يقبله تحت التمرين فى مكتبه ..

وأصبحت كل حياته داخل مكتب الأستاذ مرعى .. كان يذهب فى الصباح الباكر لينتظر الأستاذ ثم يذهب معه إلى المحكمة أو يكلف بالذهاب إلى محكمة أخرى ليؤدى إجراءات سهلة كطلب التأجيل .. ثم يعود إلى المكتب ويبقى فيه إلى المساء ويقوم بكل ما يطلب منه أو ما يسعى إلى القيام به حتى بدأ يعرف عنه الأستاذ وبقية زملائه المحامين فى المكتب قدرته الرائعة على كتابة المذكرات القانونية .. وإن كان قد احتاج إلى فترة طويلة قبل أن يعرف بأنه يجيد الترافع أمام المحاكم .. إن المرافعة هى إلقاء خطاب أمام

القضاة وجمهور المحكمة وهو لا يهوى الخطابة ولم يحاول منذ كان طالبا أن يكون خطيبا .. لذلك ظل طول حياته متفوقا فى كتابة المذكرات عن تفوقه فى خطب المرافعات .. وبجانب كل هذا أصبح معروفا بالجهد الكبير الذى يبذله فى عمله حتى كان الحاسدون يقولون عنه إنه حمار شغل ..

وكانت الفرحة الكبرى التى أحاطت به منذ احترف المحاماة هى فرحة صديق العمر عبد الله عبد اللطيف ..لقد أصبح يستقبله فى المحل بترحاب كبير كأنه يستقبل شخصية رسمية .. حضرة المحامى .. ويتباهى به أمام كل أهل الحى وأصحاب الدكاكين ومن يعرفهم من جماعة الإخوان المسلمين .. وأصبح يسعى ليحيل عليه كثيرا من القضايا .. حتى الأستاذ منصور أحمدين عضو الإخوان أصبح يعهد إليه بقضايا بينها قضايا سياسية للإفراج عمن يقبض عليهم من الإخوان .. وهو يحتار فى قبول مسئولية هذه القضايا .. لا شك أنهم لم يلجئوا إليه إلا لأنه يعمل فى مكتب الأستاذ عبد الهادى مرعى .. والأستاذ مرعى يقبل القضايا نظير أتعاب ضخمة .. وهو لا يستطيع أن يفرض عليهم نفس الأتعاب .. كما أنهم يلجئون إليه ليدفعوا أتعابا أقل جدا .. وكان يحاول أن يقنعهم بأن ليس من حقه بعد قبول قضايا باسمه لأنه لا يزال تحت التمرين .. ولكنهم كانوا يصرون حتى بدأ يغلبه التأكد بثقتهم فيه وتقديرهم له .. ويزداد حيرة .. إلى أن حل له المشكلة الأستاذ مرعى نفسه ..

كان الأستاذ مرعى قد أظهر تقديره للجهد الذى يبذله منير فى عمله بعد فترة قصيرة من انضمامه إلى مكتبه .. فخصص له منذ الشهر الأول عشرة جنيهات كمكافأة شهرية .. وقد فرح بهذه الجنيهات العشرة فرحة هائلة .. كانت أول جنيهات يكسبها بنفسه ويحصل عليها بعمله .. وقد حملها كما هى

وذهب بها إلى أبيه ووضعها فى يده دون أن يتكلم .. وفرح أبوه واحتضن ابنه إلى صدره .. لقد بدأ ابنه يكسب ويتحمل مسئولية نفسه .. وابتعد الأب قليلا ثم عاد وأعاد العشرة الجنيهات إلى يد ابنه بعد أن أضاف إليها جنيهين .. ومال منير يقبل يد أبيه .. إنه صاحب الفضل عليه وسيبقى دائما صاحب الفضل .. وعرفت الأم وأخواته البنات بأنه حصل على أول كسب فى حياته فهللن مباركات صائحات ضاحكات .. لم يكن ينقصهن إلا إطلاق الزغاريد .. وصاح فيهن منير :

ـــ كل واحدة تحدد الهدية التى تريدها .. ما عدا أمى فأنا الذى سأختار لها ..

واشترى لكل أخت ما تريده كهدية واشترى لأمه طرحة غالية توضع على الرأس كان منذ سنوات قد سمعها وهى تبدى إعجابها بها عندما رأتها على رأس إحدى صديقات العائلة .. وكانت فرحة استمرت أياما .. كأنه زف إلى عروس .. زف إلى الحياة ..

ولم يلبث الأستاذ عبد الهادى مرعى بعد فترة قصيرة أن رفع مكافأة منير إلى خمسة عشر جنيها فى الشهر وإعجابه به يتزايد .. إلى أن اكتشف حيرته مع القضايا التى تجيىء إليه وكيف يعهد بها إلى المكتب .. فناداه فى جلسة خاصة وقال له :

ـــ إن كل القضايا التى تصل إليك مباشرة اعتبرها قضايا خاصة بك .. وتحمل وحدك كل مسئوليتها .. وأعطيك الحق فى أن تتقدم بها إلى القضاء باسم المكتب .. أى باسمى .. دون أن تعرضها على .. ودون أن يكون للمكتب أتعاب فيها .. وأنا واثق أنك تستطيع أن تجمع بين قضايا المكتب والقضايا التى تخصك ..

وعجز منير عن إيفاء الأستاذ حقه من الشكر .. إنه أستاذ عظيم يتعهد بناء مستقبل الشباب كأنه يبنى مستقبل مصر ومستقبل المهنة بعده ..

وأصبح منير يتلقى القضايا الخاصة التى يحرص صديقه عبد الله على إرسالها إليه .. ولم يكن يهتم بتحديد أتعابه مقدما .. إنه يقبل أى مبلغ يريد صاحب القضية أن يدفعه له .. إلا طبعا قيمة الرسوم عن القضايا فلم يصل إلى حد التبرع بها ويفرض على المتقاضى دفعها .. ورغم ذلك بدأ يجمع إيرادا كبيرا من هذه القضايا .. ليس إيراد محام كبير .. ولكنه إيراد أكبر مما كان يريده فى سنوات البداية بالنسبة لنفسه .. خصوصا وأنه لا يزال تحت التمرين ..

وكان تفرغه لعمله فى المحاماة يشغله عن مجرد خاطر يخطر له ويحمل صورة حبيبته التى تخلت عنه وتزوجت غيره .. دلبر .. ورغم ذلك فكان يعود إلى البيت ويلقى نفسه على السرير متعبا فلا يغمض عينيه إلا بعد أن تمر عليه صورة دلبر .. إنها لا تزال تعيش فيه .. وكان بعد سفر أخيها كال قد انقطع نهائيا عن شلة الماركسية .. لم يحدث إلا أن خليل عضو الشلة والذى كان زميلا له فى المدرسة الثانوية قد اتصل به مرة فى تليفون مكتب المحاماة فلم يشجعه على لقاء .. وكانت المحاماة قد فتحت له مجالا أوسع فى الفرجة على الحياة التى تسيطر على طبيعته .. إن القضايا فرجة .. وأصحاب القضايا فرجة .. والمواضيع التى تثار فى المكتب تشده إلى مواضيع خارج المكتب .. وقد وجد نفسه مشدودا أكثر إلى مجالات كل الأحزاب السياسية التى تتبادل حكم مصر .. لم يعد يحصر اتصالاته بشلة الماركسية وجماعة الإخوان .. ولكنه أصبح له القدرة على الاتصال بكل الحركة السياسية .. ولكنه كان يفضل أن يكون اتصاله بشباب هذه الحركة .. إنهم يمثلون الجيل

الجديد الذى يجمعهم به .. فيصبح من السهل أن يفهمهم وأن يفهموه .. حتى الخلافات والمناقشات التى تثور داخل الجيل الواحد يمكن أن تستمر مع الفهم .. وإن كان قد أصبح معروفا عنه أنه هادئ فى مناقشاته ولا يصل بها أبدا إلى حد إثارة خناقة سياسية .. كما أصبح معروفا عنه أنه لا يقبل الانضمام الكامل إلى أى حزب أو تجمع أو شلة .. إنه فقط يؤيد عن إيمان حرية الجميع محتفظا هو الآخر بحريته .. وكان يؤمن أيضا بأن الجيل الجديد يجب أن ينفرد بالمسئولية وحده .. إن سر تشتت وضياع الحركة السياسية كلها أن الجيل الجديد لا يزال تحت قيادة الجيل القديم .. ربما لو كان الأستاذ منصور أحمدين عضو الإخوان المسلمين من نفس جيله لاقتنع بما عرضه عليه من أن تكون الجماعة حزبا سياسيا .. ولكنه من الجيل القديم ..

وفوجئ منير وهو يعيش هذا الزحام فى عمله وفى أفكاره وفى مجالات الفرجة بخطاب يصل إليه من لندن .. من صديقه كمال الروزنامجى .. إنه هو الذى حرض أخته على أن تتزوج غيره ورغم ذلك فهو لا يزال مصرا على الارتباط به .. وهو خطاب طويل يحدثه فيه عما اكتشفه بدراسته فى كمبردج من تفسيرات جديدة للماركسية .. ويحدثه عن تطورات التنظيمات الماركسية فى بريطانيا وغيرها .. وابتسم منير وهو يقرأ كمتفرج .. إن الحركة الماركسية تنشط وتتسع فى مصر أيضا حتى إن سفير مصر فى موسكو البندارى باشا قد أعلن عن ماركسيته وأصبح يسمى الباشا الأحمر .. إن كمال عندما يعود سيجد المجال أمامه أوسع مما تركه وربما أصبح يسمى هو الآخر .. ابن الذوات الأحمر .. أو الروزنامجى الأحمر ..

وجلس يكتب ردا على خطاب كمال .. إنه هو الآخر لا يريد أن يفقد صداقته رغم كل ما ناله من طغيانه .. طغيان طبقة أولاد الذوات رغم أنه ماركسى ..

ثم فوجئ مفاجأة أكبر عندما اتصل به عادل السلانكلى بتلفون المكتب .. ماذا يريد منه هذا الحقير ؟.. أنه يعلم أنه يحتقره حتى من قبل أن يتزوج دلبر .. فماذا يريد منه ؟.. وقال له السلانكلى فى صوت طبيعى :

ـــ إن عندى قضية .. وقد اتفقنا على أن خير من يتولاها هو أنت ..

وقال منير ساخرا :

ـــ مع من اتفقت ؟..

وقال السلانكلى فى بساطة :

ـــ مع زوجتى .. إنها تعرفك وصديقة أختك كما قالت لى .. ويظهر أن أخاها كمال كان يحدثها عنك كثيرا ..

واهتز منير وأحس ارتعاشة تزحف على صدره وقال وهو يضغط على كلماته حتى لا ترتعش مع ارتعاشته :

ـــ تفضل فى المكتب الساعة السابعة ..

وقال السلانكلى فى هدوء :

ـــ ألا يمكن أن نلتقى عندى فى البيت حتى نوفر على زوجتى المشوار .. إنها قضية تخصها ..

وقال فى حسم :

ـــ إنى أفضل أن أستمع إليك هنا فى المكتب ..

وقال السلانكلى بلا مبالاة :

ـــ سأحاول أن أكون عندك فى السابعة ..

وانتهت المكالمة .. ومنير يلوى شفتيه كأنه قرفان .. إن السلانكلى تافه .. وزوجته دلبر تستغل تفاهته قطعا .. إنها لا تريد أن تتركه حتى ينساها ..

وجاء إليه السلانكلى وجلس مرتاحا على مقعد بجوار مكتبه كأنه ينوى أن يطول الحديث .. وقال :

ـــ إنك لم تعد تسأل عن الشلة أو ترانا كمجرد زيارة ..

وقال وهو ينقل عينيه بين زميليه اللذين يقضيان فترة التمرين معه فى مكتب الأستاذ عبد الهادى مرعى يشاركانه نفس حجرة المكتب حتى إنه كان يضطر عندما يأتيه صاحب قضية خاصة ليست من قضايا المكتب أن يخرج به إلى صالة الاستقبال ويجتمع به هناك .. وقال كأنه يقطع حرية الحديث على السلانكلى :

ـــ بإذن الله عندما يعود صديقنا كمال نعود إلى الشلة .. خيرا .. ما هى القضية التى تشغل بالكم ؟..

وربما تنبه عادل السلانكلى إلى أنه لا يجب أن يتحدث عن الشلة لأنهما ليسا وحدهما .. أو ربما كانت طبيعته فى الاستسلام للأوامر .. فبدأ يتحدث عن القضية .. إنها قضية عمارة فى شارع عدلى بوسط البلد وقعت من نصيب زوجته دلبر عند تقسيم التركة .. وقد مضى أكثر من ثلاث سنوات ولم تسجل هذه العمارة بعد باسم دلبر .. وبدأ يعرض عليه الأوراق التى تثبت تقسيم الإرث .. وقال منير :

ـــ ولكنى أعلم أن هناك محاميا يتولى كل شئون العائلة ..

وقال السلانكلى دون أن يبدو عليه اهتمام :

ـــ إن زوجتى تعتقد أن إخوتها يتدخلون وأنهم لا يريدون أن يتركوا لها العمارة .. لذلك قررت أن تعتمد عليك ولو لتقنع هذا المحامى الآخر باستكمال تسجيل العمارة باسمها ..

وقال منير كأنه ينهى الجلسة :

ـــ اتصل بى بعد يومين وأكون قد انتهيت من دراسة الموضوع ..

وقال السلانكلى كأنه يغريه إغراء ساذجا :

ـــ هل نبدأ بتحديد الأتعاب ؟..

وقال منير وهو ينظر إليه نفس نظرة الاستهانة التى ينظر بها إليه دائما :

ـــ ليس الآن .. إننى لم أقرر بعد أن أتحمل المسئولية ..

وقام واقفا ومد يده إلى السلانكلى مصافحا وكأنه يطرده ويكرر قائلا :

ـــ بعد يومين تفضل بالمرور على ..

وجلس يقلب فى الأوراق التى تركها له السلانكلى وهو يعيش فى كل ورقة مع صورة دلبر .. وكانت قد مرت حوالى ساعة عندما دق تلفون المكتب يطلبه .. وسمع صوتها .. وقالت بمجرد أن سمعت صوته ودون تحية :

ـــ هل أقول لك من أنا أم تعرف الصوت الذى تسمعه ؟..

وقال وهو يكتم رعشته :

ـــ أعرفه ..

وقالت بصوتها الهادئ الحلو الذى مضت سنوات وهو يملأ أذنيه به دون أن يسمعه :

ـــ لقد مضى أكثر من عام ولم يجمعنا تلفون ..

وقال والابتسامة التى تعلو شفتيه ترتعش معه :

— إنها ظروف ..

وقالت ورنة صوتها تخفت كأنها ارتاحت :

— وهل توافق الظروف التى وجدتها حتى نعود إلى حديثنا ؟..

قال وهو يحاول ألا يخرج عن حديثه :

— تقصدين القضية ؟.. إنى لم أنته بعد من بحثها ..

وقالت بسرعة هادئة :

— لن يكفى بحثها بما سمعته من عادل .. يجب أن تسمع منى .. وأفضل أن تزورنى .. إنى أصبحت صاحبة قضية ..

وتلفت حوله .. إنه لا يستطيع أن يجادلها فى هذا التلفون وسط هذا الزحام من رجال وعملاء المكتب .. ثم إنها فعلا صاحبة حق فى أن تطلب منه أن يزورها .. زيارة عمل .. إنها صاحبة قضية .. وقال وهو يحاول أن يصد حيرته :

— متى ..؟

وقالت فورا :

— غدا ..

قال :

— إنى مرتبط بمواعيد بالمكتب .. إما أن آتى إليك فى الساعة الرابعة بعد الظهر .. أو بعد التاسعة مساء ..

قالت ورنين صوتها يزداد حلاوة :

— بعد التاسعة حتى نستطيع أن نتحدث أكثر .. هل تعرف العنوان ؟..

وقال وكأنه ساهم :

— أعرفه ..

وكان بطبيعته التى تدفعه لأن يعرف كل شىء حتى يزداد علما قد عرف أنها منذ تزوجت وهى تقيم فى شقة بالعمارة الفخمة التى بنيت فى شارع الجبلاية .. نفس الشارع الذى عاشا فيه سنوات حبهما .. كأنها تعمدت أن تبقى معه .. على الأقل مع ذكرياتها معه .. وقد قضى يومه وليله وهو حائر مع نفسه .. إنه يعلم أنه لن يذهب إليها فى زيارة عمل .. إنه يعود إليها .. يعود إلى حبه الوحيد الذى كان يعيش فيه .. فهل يعود ؟.. إنه لم يعد يطيق المقاومة .. وإن كان قد قضى عمره وهو يتفرج على الحياة فدلبر كانت الوحيدة التى لم يستطع الاكتفاء بالفرجة عليها وعلى طبقتها.. لقد تسللت الفرجة فى كل أعصابه حتى أصبحت حبا .. أصبحت حياة .. وابتسم ساخرا من نفسه .. إنه لن يستطيع أن يتفرج على قضيتها كما يتفرج على باقى القضايا حتى وهو يتحمل مسئوليتها .. إن قضية دلبر هى قضية عودته إليها ..

والتقيا .. ومنذ اللحظة الأولى كان لا يمكن أن يكون مجرد محام .. وتكون هى مجرد زبونة لهذا المحامى وصاحبة قضية .. التقيا وكأنهما لم يفترقا أبدا ..

وقال وهو يتلفت حوله :

— أين زوجك عادل ؟..

وقالت بصراحة من خلال ابتسامتها الهادئة التى تحمل حبها الهادئ :

— تركته يسهر مع أصدقائه حتى نبقى وحدنا ..

ولم يرد ذكر هذه القضية بينهما .. إنه حديث يشمل الماضى كله والواقع الذى وصلا إليه .. وقد أصبحا كأنهما يستسلمان لهذا الواقع ولا يريدان أن يضحيا بنفسيهما فيه بل يتحايلان عليه حتى يعيشاه .. إنه واقع فرضه

الفارق بين ابنة الباشا وابن الأفندى .. وفرض زواجها من غيره .. وهو يحس أنه بدأ يرتفع بنفسه فوق طبقة الأفندية .. إنه ليس موظف حكومة .. إنه يبنى نفسه حرا ويخطو بسرعة فى طريق النجاح .. قد يستطيع يوما ما أن يكون باشا لو أراد .. ثم إن زواجها بغيره لا يبرر حرمان كل منهما من الآخر ما دامت لا هى ولا هو كانا يريدان هذا الزواج .. إنه زواج فرضه عليهما المجتمع الطاغى .. ومن حقهما أن يتحديا الطغاة دفاعا عن حقهما فى الحب ..

ووجدا نفسيهما فى قبلة .. إنها قبلة أقوى من القبلات التى يذكرانها .. إن قبلة المرأة تختلف عن قبلة الفتاة .. وهى قد أصبحت امرأة .. والرجل فى سن العشرين يختلف عن الرجل الذى تعدى العشرين .. وهو قد تعدى الرابعة والعشرين .. ولذلك وجدا القبلات تشدهما إلى ما هو أكثر ..

وفضت بكارته لأول مرة فى حياته .. إن دلبر هى حبه الوحيد وهى المرأة الوحيدة التى أصبحت له كلها .. وربما حدث هذا مع أول لقاء بعد الغيبة الطويلة لأنه لم يكن لهما إحساس بأنه لقاء أول .. لقد عاشا أيام الغيبة الطويلة وكل منهما مع الآخر .. وعادا كأنهما لم يفترقا أبدا .. أو ربما كانت الوحشة والحرمان الطويل دفعهما لأن يأخذ كل منهما كل ما فى الآخر ..

وانتقل منير إلى حياة جديدة .. إن التلفون يجمعه كل يوم بدلبر .. قد تتصل به هى فى تلفون المكتب بكلمات قصيرة مراعاة لجو المكتب .. ويتصل بها هو فى كلمات طويلة من خارج المكتب .. فقط من أجل أن يعيش أكثر مع دلبر .. وقد حدث التغيير أيضا فى علاقته بزوجها السلانكلى .. إنه لم يعد يستهين به أو يحتقره بل أصبح ينافقه ويبدى نحوه اهتماما كاذبا .. إنه يعترف بأنه أصبح منافقا كاذبا .. والسلانكلى لا يشعر

بشىء ولا يهتم بشىء ..

ولكن دلبر لم تأخذه من الشهوة المتأصلة فيه .. شهوة الفرجة على الحياة .. شهوة العمل .. وشهوة اكتشاف الجديد .. وكانت لقاءاتهما تخضع دائما لما يتيحه له عمله من فراغ .. قد تتباعد اللقاءات حتى لا يبتعد عن عمله عن انطلاقاته داخل الحياة السياسية .. وقد كسب قضية عمارة دلبر وسجلها باسمها ورفض طبعا أن يأخذ أتعابا .. إنه يرفض أن يأخذ مليما واحدا من دلبر .. بل إنه اتفق معها على ألا يتبادلا الهدايا .. حتى لا يقع فى مشكلة المساواة بين ما تهديه وما يهديها .. ولكنه كان قد أتم فترة التمرين على المحاماة .. وكان يستطيع أن يستمر فى مكتب الأستاذ عبد الهادى مرعى .. بل إن الأستاذ مرعى يلح عليه أن يستمر معه .. ولكنه يحلم بأن يكون محاميا كاملا حرا له مكتب خاص .. فأين يجد شقة خالية يقيم فيها مكتبه ؟.. وعرضت عليه دلبر أن يأخذ شقة فى العمارة التى كسب قضيتها حتى لو اضطر أن يطرد منها أحد السكان .. وقبل منير ولكنه اشترط أن يدفع لها الإيجار .. إنه لا يقبل أن تمن عليه .. وقالت دلبر ضاحكة :

ــ تدفع إيجارا بشرط ألا تحدده .. تدفع كل شهر ما تريد .. فإنى أريدك أن تتركنى أحس بأن هذا المكتب مكتبى ما دام مكتبك ..

وكانا يلتقيان هذا اللقاء المتباعد فى عمارة الجبلاية .. فى شقة الزوجية .. وأصبحا يلتقيان أكثر فى المكتب الجديد ..

ومنير يزداد نجاحا فى عمله .. لقد أصبح محاميا معروفا .. ويزداد نشاطا فى مجال الحياة السياسية التى تجمع الجيل الجديد .. أصبحوا كلهم يثقون به رغم أنه لا ينتمى إلى أى تجمع منهم ويستشيرونه فى كثير من آرائهم

وتحركاتهم .. وقد عاد كمال الروزنامجى من لندن .. إنه لم يكتف بلندن بل سافر أيضا إلى موسكو .. وقد عاد وهو متطور فعلا .. إنه يتبع أسلوبا جديدا فى تنظيم وتوجيه الشلة الماركسية .. وفى اتصالاته بكل التجمعات الثورية التى أصبحت القاهرة مزدحمة بها .. وقد عاد وهو أشد حرصا على الاحتفاظ بصداقة منير ولم يعد يحاول أن يضمه إلى الشلة أو يقنعه بالماركسية ولكنه أصبح كأنه يعتمد عليه ، كأنه مستشار يعينه فى تكوين رأيه وتحديد تصرفاته .. وكان منير هو الذى بدأ بفكرة الدعوة إلى توحيد القوى الثورية .. يجب أن تكون قوة واحدة حتى تستطيع القيام بثورة تنفيذية تصل بها إلى حكم مصر .. بعدها .. بعد الثورة يبدأ تحديد الأدوار .. دور كل مذهب وكل جماعة .. وبدأ فعلا بأن استطاع أن يجمع صديقه كمال الروزنامجى الماركسى بالأستاذ عضو الإخوان المسلمين منصور أحمدين فى محل بيع الأقمشة الذى يملكه صديق العمر عبد الله عبد اللطيف .. وتركهما يتحدثان معا دون أن يتدخل .. يريدهما أن يقررا ما يمكن أن يجمعهما .. ولا يمكن أن يجمعهما سوى الاشتراك فى ثورة واحدة متجاهلين علاقتهما .. وكل منهما وافق على أساس اعتزازه بقوته وثقته بأن يستطيع أن يمحو الآخر بعد أن تنجح الثورة .. وقد بدأ يسعى بين باقى التجمعات الثورية .. وكلها توافق على مبدأ الوحدة الثورية وكل تجمع يرحب بالاجتماع بالتجمع الآخر .. وكان يجمعهم فعلا فى مكتبه .. ويبدو كأنهم اتفقوا على كل ما يحقق الوحدة .. ولكن آماله كانت تنهار سريعا .. فالاجتماع لا يكاد أن ينفض حتى يعتزل كل منهم بنفسه فى تحركاته عن الآخر .. إن كل منهم يخاف الآخر .. كل منهم يريد الثورة لنفسه وبقيادته .. يريدها على الأقل أن تنسب إليه ..

وكان منير كلما التقى بكمال يبدؤه بنظرة صامتة كأنه يسأله .. هل عرف شيئا .. هل عرف أنه عاد إلى أخته ؟.. لا شك أنه عرف أنه أصبح على صداقة مع عادل السلانكلى .. فالسلانكلى دعاهما أكثر من مرة للاجتماع فى بيته .. فى شقة شارع الجبلاية .. وكانت دلبر ترحب به أمام أخيها .. فهل يعلم أنه وصل مع أخته إلى أكثر من الصداقة .. إلى كل شىء ؟.. ربما لم يعرف .. وربما عرف ولم يهتم فقد قال له مرة إنه لا يهتم بالحياة الخاصة لأى فرد من عائلته .. ومن حق أخته دلبر أن يكون لها حياة خاصة حتى وهى متزوجة .. حياة لا تمس حياة العائلة .. حياة الطبقة العليا التى لا يمسها إلا الزواج .. وهو لم يتزوج أخته ..

وكان كمال بعد أن عاد من رحلته قد تطور أيضا من هذه الناحية .. فلم يكن معروفا عنه أنه على علاقة بأى امرأة أو فتاة .. بل كان كما كان منير لا يحس بإحساس الجنس الذى يدفعه للبحث عن امرأة .. ولكنه بعد أن عاد بدأ يظهر مع عائشة .. إنها فتاة مثقفة من عائلة متوسطة غير معروفة .. وكان يظهر معها كثيرا ويصحبها حتى فى لقاءاته مع أصدقائه وأفراد الشلة .. ويبدو أنه قد أقنعها بالماركسية أو ربما كانت ماركسية من قبل أن تلتقى به .. وقد أصبحت عضوا رئيسيا من أعضاء الشلة .. والجميع يعرفون أن ما بينها وبين كمال أبعد من الماركسية .. إنه يملكها .. وهى تملكه .. دون أن يعترض أحد على ما بينهما .. كل منهما حر مع نفسه .. وقد سألها منير مرة بعد أن عرفها فترة طويلة .. وكانا جالسين فى انتظار كمال :

ــ هل تتزوجان ؟

وقالت مبتسمة فى بساطة :

ــ تقصد أنا وكال ؟.. لماذا نتزوج ؟.. إن الزواج وضع اجتماعى مفروض للاعتراف بالإنجاب .. أى الاعتراف بالأولاد .. وأنا وكال لا نريد أولادا ..

وقال منير معارضا :

ــ ولكن الزواج هو الوضع الشرعى الذى يعترف به المجتمع حتى بلا إنجاب .. أى أن المجتمع لا يعترف الآن بوضعكما أنت وكال ..

وقالت عائشة بلهجة فتاة مثقفة تتباهى بثقافتها :

ــ ما هو الوضع الشرعى ؟.. إنه الإعلان .. أى أن يعلن الرجل والمرأة أن كلا منهما أصبح للآخر .. ونحن قد أعلنا وضعنا أنا وكال عليكم وعلى كل المجتمع .. كلكم تعلمون أنى لكمال وكال لى .. ولسنا فى حاجة إلى المأذون ليسجل هذا الإعلان رسميا .. إن الإعلان الشعبى له قوة الإعلان الرسمى ..

وسكت منير ..

إن هذه هى آراء كال التى رفض بها زواجه من أخته دلبر .. وربما لا يهمه الآن ما بينه وبين أخته ما دام لا يعلن رسميا حتى ولو كان معلنا شعبيا ..

* * *

ومضى يعيش فى هذا الزحام ولا يكون وحده أبدا إلا عندما تكون دلبر بين أحضانه فى هذه اللقاءات المتباعدة .. وهو واثق أن الثورة الوطنية ستقوم قريبا .. قريبا جدا .. ربما غدا أو بعد غد .. فكل السلطات فى مصر أصبحت مفتتة .. الحكم الملكى تفتت وفاروق أصبح أضحوكة كأنه بلياتشو فاشل فى سيرك السياسة .. والإنجليز أصبحوا حريصين على الانزواء فى منطقة القناة .. والأحزاب السياسية كلها مفتتة .. حتى الحزب المحترم حزب الوفد .. أصبح كأنه دكان فى سوق الكانتو يتاجر فى الملابس

القديمة .. وقوة البوليس أصبحت مفتتة .. وقوة الجيش أكثر تفتيتا حتى أصبحت الثكنات العسكرية كأنها مقاه تدور فيها المناقشات السياسية أثناء تناول أقداح القهوة والشاى ..

إن الثورة ستقوم حتما .. كل مصر أصبحت معدة للثورة .. ولا شك أن الجيل الجديد هو الذى سيقوم بهذه الثورة ويتحمل مسئوليتها .. ولكنه لا يستطيع أن يحدد كيف يعد هذا الجيل الثورة .. وكيف يخطط لها .. وكيف يقوم بها .. وقد قامت عدة محاولات ثورية ولكنها فشلت كلها .. ربما لأن حلمه فى توحيد القوى الثورية لم يتحقق ..

إلى أن فوجئ ذات صباح بالمفاجأة الكبرى ..

لقد قامت الثورة ..

واشتدت دهشته ..

إنها ثورة عسكرية ..

« سهر الليل » ليلاس «
www.liilas.com

(٩)

وقضى منير أياما وهو يتخبط فى محاولة فهم وتحليل هذه الثورة مع فرحته بها .. كل الشعب يتخبط وهو فرح .. واعتقد فى البداية أنها ليست ثورة .. إنها مجرد ظهور قوة تستطيع أن تفرض إرادتها على الملك وعلى الحكومة لتحقيق مطالب خاصة برجال الجيش .. ثم بدأ تفكيره يتطور .. إنها ليست مجرد قوة لتحقيق مطالب خاصة .. إنها انقلاب عسكرى سيشمل كل نظم الحكم .. ثم يستمر فكره فى التطور السريع من الأحداث السريعة التى تقع ساعة بعد ساعة .. إنه ليس مجرد انقلاب عسكرى .. إنها قوة تحقق ثورة شعبية بدليل أن القادة العسكريين يعتمدون على الشخصيات المدنية التى تمثل القوى الثورية ..

وربما زاد فى تخبطه أنه لم يجد بين قادة الثورة الذين يسمع بأسمائهم ويرى صورهم فى الجرائد أحدا يعتبر صديقا له أو يعرفه معرفة كاملة .. إنه يرى فى صور الجرائد وجوها يتذكر أنه سبق أن رآها فى بعض الاجتماعات أو الجلسات السياسية .. ولكنه لم يكن بينه وبين أى واحد منهم أى ارتباط شخصى أو حتى ارتباط برأى سياسى .. ربما لأن طبيعة فكره كانت تبعد الجيش عن السياسة .. إن أساس كل ما يؤمن به هو الحرية الشخصية .. وليس من حق أى عسكرى أن يكون حرا .. إن مسئولية ومهنة العسكرى تفرض عليه أن يكون خاضعا خضوعا تاما لأوامر رؤسائه .. أن يخضع للأوامر العسكرية والسياسية .. أيضا .. لقد خرج رجال الجيش عدة مرات ليصدوا ثورات شعبية سياسية إطاعة للأوامر .. وهو نفسه رفض الالتحاق

بالكلية العسكرية بعد أن انتهى من دراسته الثانوية رغم إلحاح كثير من أصدقائه أهل الحتة الذين التحقوا بها .. فقد كان يعتقد أن الالتحاق بالجيش قاصر على نوعين من الشباب .. أولاد الذوات الذين يريدون التباهى بالبدلة العسكرية والتباهى بأنهم يتولون حماية طبقتهم التى تتولى الحكم .. أو أولاد الطبقة العادية الذين يفضلون الهرب من الدراسة الجامعية والاعتماد على مرتب ثابت محترم حتى لو تنازلوا عن حريتهم .. وهو لا يقبل أن يتنازل عن حريته .. لذلك لم يلتحق بالكلية الحربية .. ولم يحاول أن يكتسب صداقة أحد من رجال الجيش .. ولكنه فوجئ عندما وجد بين الصور التى تنشرها الصحف صورة الصديق القديم معتز الجنيدى .. إنه صديق منذ أيام الطفولة وكان يقيم فى نفس الحى وفى البيت الملتصق ببيته وزامله فى المدارس من روضة الأطفال حتى الثانوى .. ولكنه كان صديقا من نوع غريب .. كان معروفا عنه الانزواء والخجل حتى إنه كان لا يشترك مع باقى الأولاد فى ألعابهم .. ولا حتى يشترك مع أحد فى المذاكرة بعد أن كبر .. لذلك كانت صداقته به صداقة عائمة لا تجمعهما فى شىء مشترك .. وربما أدخله أهله الكلية الحربية ليأسهم من أنه يستطيع أن يتحمل الحياة أو الدراسة الجامعية أو يعيش حياة أسعد بعد الجامعة .. وهو لم يره أبدا منذ التحق بالكلية الحربية فعائلته نفسها انتقلت من الحى لتقيم فى حى مصر الجديدة البعيد ..

وقد دهش وهو يرى صورته بين رجال الثورة .. لم يكن ينتظر أن يكون بينهم هذا النوع من الشخصيات .. ولكنه استنتج أنه ليس قطعا من أعضاء مجلس القيادة ولكنه بلا شك لا بد أن يكون من الضباط الأحرار فهو يتولى مهمة لا يعرفها داخل مجلس القيادة .. وفكر أن يتصل به معتمدا على الصداقة القديمة ويحاول أن يفهم منه اتجاه الثورة وبعض خباياها .. ولكن

مستحيل .. إنه لن يشترك فى هذا الزحام الذى أصبح يحيط برجال الثورة .. زحام الشخصيات التى تحاول أن تستغل الثورة وتحقق من خلالها أغراضا خاصة ولو مجرد الوصول إلى وظيفة أكبر .. إنه لو اتصل بصديقه القديم معتز فسيستقبله على أنه واحد من المحتاجين المنافقين .. لن يتصل به إلا إذا كان اتصال صدفة ..

وفى هذه الأيام الأولى من الثورة قال له صديقه عبد الله عبد اللطيف :

ــ إنها ثورة الإخوان المسلمين .. كل هؤلاء الضباط من الإخوان ..

وكان قد بدأ يتتبع الاتصالات المستمرة بين قيادة الثورة وقيادة الإخوان .. ولكنه لم يستطع أبدا اكتشاف دور الإخوان فيها .. وكثير من الضباط الذين يتحركون يعلم أنهم فعلا من الإخوان ولكن ليس بينهم من يعتقد أنه يتحمل مسئولية قيادية ..

وفى نفس اليوم فوجئ بصديقه كمال الروزنامجى يقول له :

ــ إننا نؤيد الثورة واشتركنا فيها منذ البداية ولنا ممثلون ماركسيون فى مجلس القيادة .. لم أكن أقول لك شيئا لأن كل شىء كان يتم فى منتهى السرية ..

ودهش منير .. كيف يكون الإخوان والماركسيون قد اشتركوا فى ثورة واحدة ؟.. لعلهم قد تحالفوا سرا كما كان هو نفسه يسعى إلى تحالفهم وهو يسعى إلى توحيد القوى الثورية .. أو ربما كانت قيادة الثورة قد تكونت على أساس الارتفاع فوق كل المذاهب والتجمعات السياسية حتى تجمع بينها .. أو ربما كان صديقه كمال يبالغ فى ادعاء أن الماركسيين اشتركوا فى الثورة .. إن من طبيعته المبالغة ..

ومرت الأيام وهو يتخبط فى أفكاره ولا يحاول أبدا أن يسعى إلى اتصال بأحد من قادة الثورة ويكتفى باستمرار اتصالاته بالتجمعات التى يعرفها ..

تجمعات الجيل الجديد .. إلى أن قال له صديقه كمال :

ــ لقد قررنا أن يتحرك العمال كقوة قائمة بذاتها ..

وقال متعجبا :

ــ كيف ؟..

وقال كمال فى لهجة القائد الأعلى :

ــ سيتحركون فى دمنهور وفى شبرا الخيمة وفى أسيوط وطبعا فى القاهرة مطالبين بحقهم فى تولى إدارة مصانعهم ..

وقال منير كأنه ينصحه :

ــ ولماذا لا تبدأ هذه التحركات بالاتصال بين القيادات وقد تصل إلى تحقيق مطالب العمال دون أن يتحركوا ..

وقال كمال فى صوت عال كأنه يلقى خطابا :

ــ لا .. إننا نعيش الفترة الوحيدة التى يستطيع العمال فيها أن يثبتوا وجودهم كقوة .. إن الثورة إلى الآن مركزة فى قوة الجيش .. وكل القوى الأخرى تحاول أن تثبت وجودها بجانب قوة الجيش .. الوفد يبرز قوته .. والإخوان المسلمون يبرزون قواهم .. وكل تجمع يبرز قواه .. وهى الفرصة الوحيدة التى يبرز فيها العمال قوتهم .. قوة الطبقة العاملة التى تعترف الثورة بها ..

لم يستجب منير لرأيه ..

وكان منذ بدأت الثورة قد ترك بيت العائلة وأقام فى مكتبه .. مكتب المحاماة .. الذى كان قد خصص فيه حجرة تعود أن يلتقى فيها بدلبر .. وهى لا تزال تحادثه فى التلفون وتتردد عليه فى مكتبه .. ولكن لقاءها وحديثها أصبح شيئا آخر .. إنها خائفة حتى لا يستطيع حبها أن يتغلب

على خوفها .. خصوصا بعد أن عزل فاروق عن الحكم .. إن كل الحياة التى تعيشها بدأت تنهار .. وهى تسمع أن الثورة ستقضى على كل العائلات المالكة القديمة .. وطبعا من بينها عائلة الروزناجى .. وهى تسمع أنهم سيأخذون منهم الأرض .. إن أرضها هى أساسا أرض أمها قبل أن ينقلها أبوها إلى اسمه .. وأمها من عائلة الملك حتى لو كانت تنتمى إليها من بعيد .. فكيف يتركون لها الأرض أو أرض زوجها السلانكلى ؟.. وكيف يعيشان بعد أن يفقدا الأرض ؟.. ومنير يقضى اللقاء كله فى تهدئتها .. إن من حظها أنها وإخوتها قسموا الأرض بعد وفاة أبيها .. وقد سمع أن الثورة ستحدد ملكية الأرض بثلاثمائة فدان .. ولن تكون هذه الثلاثمائة فدان ملكا لهم جميعا بل سيكون كل واحد فيهم مالكا لثلاثمائة فدان .. وإيرادها يمكنها لتعيش كما هى .. بل إنها ستكون أغنى من زوجها لأن أولاد السلانكلى لم يقسموا الأرض بينهم .. ثم إن العمارات لم يأت ذكرها فى أى مشروع .. وهى تملك هذه العمارة التى تضم مكتبه وسيدفع لها الإيجار إذا احتاجت .. ثم من يدرى ما يمكن أن يحدث ؟.. كل هذا الكلام مجرد مشروعات لا تزال الثورة عاجزة عن تحقيقها .. ولا تدرى بعد كيف تحكم حتى تغطى عجزها .. ولكن دلبر لا تطمئن أبدا .. ولا تتوقف فيها ارتعاشة الخوف حتى وهى بين أحضانه يحاول أن يوقف بشفتيه ارتعاشة شفتيها ..

وفوجئ منير بعد أيام بثورة داخل مصانع دمنهور استولى بها العمال على إدارة المصانع .. تحققت أهداف كمال الروزناجى .. ولكن مجلس القيادة فى القاهرة واجه هذه الثورة العمالية بعنف فاق عنف حكومات ما قبل الثورة حتى إنه أرسل قوات من الجيش احتلت دمنهور وقبضت على العمال المضربين الثائرين .. ولم تستمر هذه الثورة إلا يوما واحدا .. وقد تم بعدها

بأيام الحكم على اثنين من قادة هؤلاء العمال بالإعدام .. لأول مرة تصل أحكام الإعدام فى مصر إلى رقاب الثوار ..

وبعد ما حدث فى دمنهور بيومين اثنين فوجئ منير فى ساعات أخيرة من الليل بباب مكتبه يدق بعنف حتى أيقظه من النوم .. وفتح الباب ليجد أمامه ضابطا من ضباط البوليس ومعه أربعة عساكر وقال له فى هدوء :

— تفضل معنا ..

وقال منير فى دهشة :

— هل تقبضون على ..؟

وقال ضابط البوليس وهو يبتسم كأنه يشفق عليه :

— إنك مطلوب .. ربما لسؤالك بضعة أسئلة ..

وقال منير بلهجة المحام :

— أريد أن أعرف حتى أعد نفسى ..

وقال ضابط البوليس من خلال ابتسامته :

— أنا نفسى لا أعرف ..

وقال منير كأنه يستجيب لهدوء الضابط :

— هل تسمح لى بارتداء البدلة ؟..

وقال الضابط :

— تفضل ..

ولكنه دخل وراءه إلى الحجرة الداخلية التى يبدل فيها ملابسه .. وعاد منير يقول له :

— هل آخذ معى حقيبة ملابس ..؟!

وقال الضابط فى صوته المهذب :

ـــ خذ .. من باب الاحتياط ..

وتعمد أن يراقب ما يضعه منير فى الحقيبة الصغيرة التى حملها .. ثم صحبه بين العساكر إلى سيارة البوليس .. وسأل فى أدب والسيارة تتحرك به :

ـــ إلى أين ؟..

وقال الضابط فى إشفاق واعتذار :

ـــ ستعرف عندما تصل ..

ولم يلح منير فى سؤاله .. إنه يقدر لهذا الضابط معاملته المهذبة .. إنه يطبق الأوامر فى رفق .. ولعله لا يعلم فعلا لماذا يقبض عليه .. إنها ليست ثورة البوليس .. إنها ثورة الجيش .. وضباط البوليس لا يعلمون شيئا مما يجرى فى الثورة إلا تنفيذ الأوامر ..

وسارت السيارة طويلا حتى بدأت السماء تتفتح على نور الفجر .. ودخلت السجن الكبير .. إنه سجن أبو زعبل ..

وقال منير وضابط البوليس يسلمه إلى ضابط السجن ويقدم إليه الأوراق الخاصة به .. قال فى أدب :

ـــ هل أستطيع أن أعرف الاتهام الموجه إلى ..؟

ورفع إليه ضابط السجن عينيه فى دهشة .. ثم عاد وأطل فى أوراقه .. ثم قال له ساخرا :

ـــ اسأل نفسك يا حضرة المحامى ..

ثم قام وأخذ يفتش جيوبه ويخرج منها كل شىء حتى منديله ويأمره بأن يخلع الرباط عن حذائه ويأخذ منه ساعة يده ثم شده من كتفه وسار به إلى داخل السجن ومعه مجموعة من العساكر إلى أن وقف يفتح بالمفاتيح باب

زنزانة كبيرة .. كأنها ملجأ أيتام .. ودفعه كأنه يلقى به داخلها ثم أغلق الباب وراءه دون أن يلفظ بكلمة ..وشهق منير دهشة .. إن صديقه كال الروزنامجى يقف أمامه داخل الزنزانة .. ومعه عادل السلانكلى .. وخليل .. وكل أفراد الشلة الماركسية .. ومعهم عدد كبير من أفراد لا يعرف معظمهم .. لعلهم ماركسيون .. واحتضنه كال وهو يقول ضاحكا :

ـــ الآن أنت ماركسى بحكم الواقع ..

ورفع منير عينيه إلى وجه كال وهو يتنهد فى سخط واستسلام .. فرأى على وجهه كدمات تشق انفه وصدغيه ويبدو أنها كدمات حديثة فلا تزال تحمل لون الدم .. فقال فى جزع :

ـــ ما هذا .. هل كنت فى معركة ؟ ..

وقال كال مع ضحكته :

ـــ لا .. كنت فى مناقشة ..

وأفسحوا لمنير مكانا على الأرض يفرش عليه البطانية التى ألقاها العسكرى وراءه بعد أن زج به .. واستلقى عليها وكلهم من حوله يسألونه عن آخر الأخبار .. ثم انهالت عليه النكات لأنه جاء إليهم وهو مرتد بدلة كاملة وقميص ولا بد أن ضابط السجن قد نزع منه رباط العنق .. ومنير سارح بعقله وسط كل هذه الضجة التى أقامها زملاء الزنزانة ترحيبا به .. إن من السهل عليه أن يعرف أنه ليس مقبوضا عليه فى قضية محددة .. إنه معتقل ضمن المعتقلين الماركسيين .. ولكنه ليس ماركسيا .. ثم إنه لم يشترك فى أى تحرك أو أى عمل قام به الماركسيون .. إنه كان يعرفهم كمتفرج .. حتى الآراء التى يبديها هى مجرد آراء متفرج على ما يخطر أمامه دون أن يكون له دور فيه... وأغلب آرائه كانت دائما آراء رافضة معارضة .. فلماذا

يعتقلونه ؟ .. هل لأنه صديق كمال الروزناجى ؟ .. إن الصداقة كالأخوة وهم لن يعتقلوا فؤاد أخا كمال .. كيف يدافع عن نفسه ويقول لهم كل هذا الكلام .. ويقوله لمن ما داموا لم يحققوا معه ؟ ..

وبدأت أيام السجن ..

أيام تستمد فيها الحياة من تعمد إثارة المناقشات .. إنهم يتناقشون دائما كأنهم يتنفسون الهواء .. إن السجن ليس فيه ما يرمز إلى الحياة إلا المناقشة بين الزملاء المساجين .. وهو قد بدأ يعجب بأفراد الحركة الماركسية .. إنهم بسرعة استطاعوا أن ينظموا أنفسهم داخل السجن .. ويتفقوا على أسلوب للتعامل مع إدارة السجن ومع السجانين بحيث يكسبونَ رضاءهم ويطمئنونهم على استسلامهم .. وهم مستسلمون فعلا .. لا يحاولون تحدى ما يفرض عليهم .. ولا يخطر على بالهم أى تفكير فى الهرب .. وكل آمالهم معلقة بما يمكن أن يحدث خارج السجن لا ما يحدث داخله .. الوحيد الذى كان يخرج على هذا الاستسلام هو كمال الروزناجى نفسه .. ربما لأنه عاش طوال عمره سيدا .. ابن باشا .. فلا يستطيع أن يستسلم ليعيش عبدا للضابط والعساكر .. فكان يثور فى وجه أى ضابط وأى عسكرى .. ويتحداهم فى تصرفاته كأنه لا يزال مقتنعا بأن هؤلاء هم العبيد وهو السيد .. ولذلك كان الضابط يعتدون عليه كثيرا بالضرب .. وأحيانا يعزلونه فى زنزانة منفردة كأنها قبر تحت الأرض .. بل إنهم أكثر من مرة أصدروا قرارا بجلده .. وكان يجلد بعنف أمام المساجين بعد أن تصفهم الإدارة حوله كأنها تدعوهم لحضور حفل كبير .. حفل للجلد .. وكان كمال يتعذب .. والسياط تركت آثارا ثابتة دامية على جلده الأبيض .. وأصابع العساكر ترقد على وجهه إثر الصفعات التى تنهال عليه .. وكان كمال يعانى

ويتعذب ويرقد أياما عقب كل علقة دون أن يستطيع الحركة .. وربما حاول أن يعدل عن طبيعته .. طبيعة السيد .. ولكنه كان لا يلبثَ أن يعود إليها .. وكان أشد ما يحرص عليه هو أن ينفرد بكل تصرفاته بحيث تنسب إليه وحده .. حتى لا يعرض أحدا من زملائه المساجين إلى معاناة ما يعانيه من وسائل التعذيب .. ولم يفكر أبدا فى القيام بعمل جماعى داخل السجن ربما لأنه لم يجد خطة يمكن أن يحققها بعمل جماعى .. أى بثورة .. إنه مهما كان فهو إنسان شهم .. زعيم ماركسى شهم ..

وقد حاول عادل السلانكلى مرة أن يتحدى السجن تقليدا لكمال .. إنه طول عمره شخصية مقلدة تافهة .. ولكنه بعد أول علقة انصبت عليه أصبح مستسلما ولم يعد يقلد كمال فى شخصية السيد ..

ومنير مستسلم منذ أن خطا بقدميه داخل السجن .. ويعينه على الاستسلام متعته كمتفرج .. إنه يتفرج على مسرحية جديدة من مسرحيات الحياة ..

ولم تذكر الصحف شيئا عن الاعتقالات أو أسماء المعتقلين .. ممنوع .. والعائلات لا تعرف كيف اختفى أولادهم ولا أين اختفوا .. وفى كل بيت مأتم يستقبل المعزين مع اختفاء جثة الميت .. وطبعا كان محرما تبادل الخطابات بين المعتقلين وأهلهم .. ولكن كان هناك بعض العساكر يتطوعون بتهريب هذه الخطابات نظير أتعاب سخية يقبضونها من كل عائلة يصلون إليها .. إنها سوق رائجة للكسب ..

ولم يحاول منير أن يهرب خطابا إلى أبيه وعائلته .. إنه يتصور العذاب الذى يعيشون فيه .. وهو الذى يعذبهم .. ربما لو كان قد حسب حسابهم منذ البداية لما أقدم على حياة الفرجة التى يعيشها .. أو لاختار ما يتفرج

عليه حتى لا يعرضهم للعذاب من أجله .. وهو مهما عانى من وحشة إليهم ومن الوجود داخل السجن فهى معاناة أرحم من أن يتفرغ دقائق بمواجهة أبيه وأمه وأخواته وهو يكتب لهم خطابا .. كيف يخفف عنهم ما صبه عليهم من عذاب ؟ .. كيف يواجه المجرم ضحاياه ؟ .. أما حبيبته دلبر فشىء آخر .. إن لها حياة وله حياته .. ولن تتأثر حياتها بعد أن انتقل بحياته إلى داخل السجن .. لذلك لم يفكر أبدا فى إرسال كلمة لها .. إلى أن وجد صديقه عادل السلانكلى يكتب خطابا ليهديه لزوجته دلبر .. فقال له باختصار :

— قل لزوجتك أن تتصل بأختى وتطمئنها ..

واستمرت أيام أبو زعبل شهرين .. إلى أن فوجىء الماركسيون المعتقلون بإيقاظهم فى الليل وإخراجهم من الزنازين وتحميل كل منهم حاجاته المسموح بها واتخاذ اجراءات سريعة معهم انتهت بحشرهم فى سيارات أوتوبيس مع عدد من الحراس ونقلهم إلى محطة السكة الحديد ثم حشرهم فى قطار تحرك بهم .. إلى أين ؟ .. واستطاعوا بسهولة أن يستنتجوا أن القطار يسير بهم فى اتجاه الصعيد ..

وهم رغم حيرتهم التى تنطلق مع جزعهم يحاولون التخفيف عن أنفسهم بالغناء وتبادل النكات وبالرقص البلدى وأحيانا تنهد قواهم فيسودهم صمت حزين .. صمت الاستسلام .. أو ربما بدأ يهدهم الجوع .. فهم منذ أخذوهم من أبو زعبل لم يقدموا لهم شيئا من الطعام .. ولا هذا الخبز الأسود العطن .. وفى آخر النهار وصل بهم القطار إلى أسيوط .. ووجدوا المحطة يحتلها قوات ضخمة من قوات البوليس .. كأن كل بوليس الصعيد تجمع فيها .. وأنزلوهم كأنهم يلقون بهم على الأرض .. وعادوا وجمعوهم فى سيارات

ضخمة سارت بهم طويلا فى طريق الصحراء .. إنه الطريق إلى الواحات .. إلى أن وجدوا أنفسهم أخيرا أمام مجموعة من الخيام ملقاة وسط الصحراء .. هنا سيعيشون .. إنه اعتقال جديد أقامته الثورة خصيصا لهم .. وما داموا قد ألقوا بهم وسط الرمال بعيدا عن كل مظاهر الحياة .. فمعنى ذلك أن الثورة نقلتهم إلى عالم آخر .. حكمت عليهم بالاختفاء من الدنيا إلى الأبد .. بالموت .. وربما لم تنفذ فيهم الإعدام لأن عددهم كبير وقد تستغل جثثهم الصحف الأجنبية للتشهير بالثورة ..

وانهار معظمهم ملقيا بنفسه فوق الرمال .. وظهر أمامهم المسئول عن المعسكر .. إنه من ضباط البوليس أيضا وليس من ضباط الجيش .. ضباط الثورة .. وأمر فورا بتوزيع أرغفة العيش عليهم .. كل فرد رغيفا واحدا من هذه الأرغفة السوداء العطنة .. ثم طلب اثنين من المندوبين عنهم يتولون توزيعهم على الخيام .. إنه ضابط يبدو معقولا رغم جديته .. ويصدر أوامره كأنه يفضل التفاهم .. على كل حال فلا شك أنه مطمئن على تحمل مسئوليته فلا أحد من المعتقلين يمكن أن يفكر فى الهرب إلا إذا فكر فى الانتحار بإلقاء نفسه فى رمال الصحراء ..

وبدأت أيام معتقل الواحات ..

وقد ازداد إعجابا بالعقلية الماركسية .. العقلية العلمية .. فقد استطاعوا أن ينظموا أنفسهم بشكل جديد بعد أن انتقلوا إلى الواحات .. كانوا كأنهم يقيمون لأنفسهم دولة لها نظمها ولها قوانينها ولها تقاليدها .. ووصلوا إلى أن تحملوا مسئولية العمل كله داخل معسكر الاعتقال .. وملئوا كل فراغهم بإقامة فرق ومباريات رياضية .. وانطلقت المواهب الفنية بينهم تكتب وترسم وتنحت تماثيل .. وقد كتبوا أكثر من مسرحية وشيدوا مسرحا يمثلونها عليه

ويدعون قائد المعسكر والضباط والعساكر ليكونوا بين المتفرجين .. بل إن القائد ورجاله اندمجوا بين المعتقلين كأنه تجمعهم حالة واحدة ومصيبة واحدة .. مصيبة الإلقاء بهم جميعا فى عمق الصحراء .. وربما كان الضابط أو الجندى يتعذب بهذه المصيبة أكثر من المعتقل .. فهو لم يرتكب جريمة أو لم يكن يؤمن بمذهب سياسى معين أو يحاول تحقيق أهداف هذا المذهب حتى يكون هناك ما يبرر إلقاءه فى الصحراء ويعينه على التحمل كالمعتقلين .. ولكنه ألقى به فى الصحراء بحكم وظيفته .. وقد أصبح يكره هذه الوظيفة ويندم ويتهم نفسه بالغباء لأنه اختارها لنفسه .. اختار أن يكون رجل بوليس ..

ولم يكن كال الروزنامجى هو رئيس أو زعيم هذه الدولة الجديدة .. دولة صحراء الواحات .. إن الشلة الماركسية التى كونها وتزعمها لا تمثل أغلبية المعتقلين .. إنها شلة تمثل أقلية صغيرة .. وربما كان السبب الأقوى أن كل المعتقلين لا يزالون يعتبرونه ابن باشا .. ومهما بلغت ثقتهم فى إيمانه بالماركسية فهم يحسون بأن دوافع إيمانه تختلف عن دوافع إيمانهم .. ورغم ذلك كانوا يعاملونه باحترام كبير ويضفون عليه بعض مظاهر عظمة الزعامة حتى يشبعون طبيعته .. أى طبيعة السيد .. دون أن يتركوا له حرية الزعامة .. والواقع أنه لم تقم فى المعسكر .. أو فى الدولة الجديدة .. أى خلافات أو معارك يثيرها التناحر على فرض سلطة الرئاسة أو الزعامة رغم تعدد التشكيلات والتجمعات أو الأحزاب الماركسية المعتقلة .. كانت الدولة الجديدة تعيش فى وحدة كاملة .. وحدة المصيبة .. وتنظيمات ثابتة مستقرة تحقق القدرة على الاحتمال .. احتمال الدفن فى رمال الصحراء التى تمتد على مدى النظر من جميع الجهات ..

وكان منير مستمرا فى حياة الاستسلام الهادئ .. استسلام المتفرج .. ولكنه لم يكتف بالفرجة فقد كان يشترك فى مناقشات تحديد التنظيمات .. بل كان كأنه يكلف بوضع قانون غير مكتوب للدولة الجديدة .. وتوسع فى وضع هذه القوانين إلى حد أنها شملت فرض عقوبات على المخالفين للنظم من المعتقلين .. عقوبات نفسية .. أشدها عزل المخالف عن التعامل مع المجموع .. مع المجتمع المعتقل .. أى أن يفرض عليه الخصام .. كان المعتقلون قد قرروا الاعتماد على أنفسهم مستقلين عن قوة البوليس الذى يحكمهم ..

وكان منير قد مضى عليه أربعة أشهر فى معتقل الواحات بعد الشهرين اللذين أمضاهما فى سجن أبو زعبل .. مضت ستة شهور على اعتقاله .. وفوجئ بقائد المعتقل يدعوه يوما إلى لقاء فى مكتبه .. يدعوه وحده .. ثم فوجئ بأن وجد فى مكتب القائد رجلا فى ثياب مدنية تولى هو كل الحديث معه .. ورجح منير بعد كلمات أنه لا شك من رجال المخابرات .. وهو لا يتكلم بأسلوب رجال البوليس .. إنه من رجال المخابرات العسكرية .. إنه ضابط جيش ..

وقال له ضابط المخابرات :

ـــ هل لازلت ماركسيا .. أم استفدت من الدرس الذى تلقيته ؟ ..

وقال منير فى هدوء :

ـــ أنا لم أكن أبدا ماركسيا .. ولم أكن عضوا فى أى تنظيم ماركسى ..

وقال رجل المخابرات ساخرا :

ـــ إننا نعلم أنك كنت الرجل الثانى فى شلة كال الروزنامجى ..

وقال محتفظا بهدوئه :

ـــ كل ما بينى وبين الروزناجى صداقة قديمة لا علاقة لها بالشلة الماركسية ..

وصاح ضابط المخابرات كأنه يشتم منير :

ـــ إن امثالكم لا تجمعهم صداقة .. لا يجمعهم إلا تدبير المؤامرات ..

وقال منير وهو يتنهد حتى يخفى سخطه :

ـــ أنا لم أشترك أبدا فى أى عمل يمكن أن تسميه مؤامرة ..

وقال الضابط ساخرا أكثر :

ـــ وهل لازلت مصمما على صداقة الروزناجى .. صداقة ابن الباشا ..

وقال منير وهو يشد نفسه حتى لا يقع من الغيظ :

ـــ لم يقع بينى وبين كمال ما يعكر صداقتنا .. فليس هو الذى اعتقلنى ..

وصاح ضابط المخابرات :

ـــ هو الذى اعتقلك .. وما تعتبره صداقة هو ما أدى إلى اعتقالك ..

وقال منير وهو يزفر أنفاسه :

ـــ إن الصداقة حالة تخضع لظروفها .. وتتغير مع تغير الظروف .. أى لو لم يكن كمال ماركسيا لما اعتقلت أنا رغم أنى لم أكن أبدا ماركسيا ..

وقال الضابط وهو يبتسم ابتسامة رسمية كأنه يبلغ منير الخبر السعيد :

ـــ لقد قررنا أن نساعدك على تغيير حالتك .. سنبعدك عن كمال حتى تبتعد عن صداقته .. سنفرج عنك ..

واتسعت عينا منير دهشة مصحوبة بالفرحة :

ـــ هل سيفرج عنى ؟ ..

وقال الضابط من خلال ابتسامته الرسمية :

ـــ فعلا .. سيفرج عنك ..

وقال منير وقد انقبضت فرحته :

ـــ هل سيفرج عنى وحدى ؟ ..

وقال الضابط وهو يلوى شفتيه قرفا :

ـــ وحدك .. إلا إذا فضلت أن تبقى معتقلا مع أصدقائك ..

وصاح منير فى رجاء :

ـــ لا .. إنى منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه السجن وأنا أتمنى الإفراج .. لم أقتنع أبدا بأن هناك سببا يدعو إلى دخولى السجن ..

وتاه منير مع أفكاره .. إنه فعلا فرح بالإفراج حتى لو أفرج عنه وحده .. ولا يدرى كيف سيستقبل بقية المعتقلين هذا الخبر .. ربما اعتبره بعضهم كأنه كان جاسوسا عليهم لحساب المخابرات .. ولكن أغلبيتهم تعلم أنه ليس منهم .. ليس ماركسيا .. وأنه اعتقل معهم لمجرد صداقته للروزناجى وتردده على شلة مقهى الأسيوطى .. ربما فرحوا بالإفراج عنه بدافع الإنسانية وإشفاقهم عليه .. وقد انقسم المعتقلون حوله فعلا .. بعضهم هنأه بالإفراج مع فرحة صادقة .. وبعضهم لوى شفتيه احتقارا له وابتعد عنه .. واحتضنه صديقه كمال الروزناجى قائلا :

ـــ لقد كنت دائما أتمنى الإفراج عنك حتى دون أن يفرج عنى ..

وأقاموا فى المساء حفلا من حفلاتهم بمناسبة الإفراج عن واحد منهم .. ولكنه كان حفلا هادئا لم يشترك فيه كل المعتقلين .. ومنير يتلقى مطالب كل معتقل التى يريد أن يحققها له فى القاهرة .. ويكتب العناوين وأرقام

التليفونات .. ولكنه كان يعتذر عن أى مطلب يحققه لأى منهم خارج الاتصال بعائلته .. ويقول ضاحكا :

ــ إنى متأكد أنى سأعيش طول عمرى تحت المراقبة .. ولن أتمكن من حرية الاتصالات ولو باسم الصداقة ..

وسؤال يرن فى رأسه منذ سمع خبر الإفراج عنه من ضابط المخابرات .. لماذا أفرج عنه ؟ .. لقد أفرج عنه وحده أى لم يفرج عنه نتيجة اتجاه سياسى جديد لمجلس قيادة الثورة .. ربما تأكدت المخابرات أنه ليس ماركسيا وأنه مظلوم .. ولكنه لا يعتقد أن البحث عن العدالة يمكن أن يخطر على بال المخابرات .. ربما توسط له أحد المقربين من القيادة .. ولكن من يتوسط له ؟ .. إنه لا يعرف أحدا من هؤلاء المقربين ..

ولم يجد جوابا على تساؤله .. ولكن الحمد لله .. لقد أفرج عنه ..

وفى فجر اليوم التالى صحبه أحد ضباط المعتقل فى سيارة إلى أسيوط .. وعلى محطة أسيوط وجد ضابط بوليس آخر فى انتظاره وركب معه القطار إلى القاهرة .. وكان ضابطا مهذبا يعامله باحترام وإن لم يطل الكلام معه .. لم يعد الناس يتكلمون كثيرا ولكن السعادة كانت تعلو وجهه طوال الطريق .. ليس سعيدا لأنه يصاحب مظلوما أفرج عنه ولكنه ربما كان سعيدا لمجرد أن صادفته مهمة تحمله لزيارة القاهرة ..

وصاحبه ضابط البوليس بمجرد وصولهم إلى القاهرة إلى مبنى وزارة الداخلية .. ودخل به إلى مكتب موظف كبير .. وما كاد يدخل هذا المكتب حتى شهق من الدهشة ..

إن مع الموظف الكبير صديقه عبد الله عبد اللطيف والأستاذ منصور أحمدين .. وقفز صديق العمر مهللا بمجرد أن رآه واحتضنه يقبله والدموع

فى عينيه وهو يردد كأنه يلهث :

ــ الحمد لله على السلامة .. الحمد لله على السلامة ..

واحتضنه وقبله أيضا الأستاذ منصور .. وصافحه الموظف الكبير باحترام كبير .. وتم ما بقى من إجراءات الإفراج سريعا وخرج من مبنى الوزارة مع عبد الله ومنصور .. إنهما هما اللذان سعيا للإفراج عنه .. أى أن الإخوان المسلمين هم الذين أفرجوا عنه .. وقد كانوا فى السنة الأولى من الثورة لهم نفوذ كبير لدى مجلس القيادة .. وقال للأستاذ منصور :

ــ لا أدرى كيف أشكرك ..

وصاح صديقه عبد الله :

ــ إن الشكر لكل أفراد مكتب الإخوان .. لا تدرى كم بذلوا وتعبوا حتى وصلوا إلى الإفراج عنك .. إننا سنمر عليهم جميعا واحدا واحدا .. ولا نستطيع لا أنا ولا أنت إيفاء حقهم من الشكر ..

ونظر منير إلى وجه صديقه الدائم فى حب وقال :

ــ الفضل لك ..

وقال عبد الله كأنه يعلن القرار النهائى :

ــ الفضل لهم ..

وسار معهما منير وأفكاره تحيطها ابتسامة متعجبة ..

لقد أدخله الماركسيون السجن .. وأفرج عنه الإخوان ..

(١٠)

وكانت مفاجأة زلزلت العائلة كلها بالفرحة عندما رأوا ابنهم منير معهم فى البيت .. لقد عادت الجثة المدفونة إلى الحياة .. والفرحة تعبر عن نفسها بالدموع تروى القبلات .. ولكنهم بدءوا بسرعة يخفون فرحتهم .. وعدلوا عن فكرة دعوة الأقرباء وأهل الحى لتوزيع الشربات عليهم بمناسبة الإفراج عن منير .. إن كثيرين منهم لا يعلمون أنه كان سجينا معتقلا .. والذين كانوا يعلمون جاءوا للتهنئة فى هدوء كأنهم يشاركونهم فى التستر على السر .. وقد قضى منير فى البيت أياما يعيش الحنان والحب العائلى الذى افتقده شهورا طويلة ويختار الكلمات المضحكة التى كانت تحدث داخل السجن ويحكيها لهم ليضحكوا معه .. يريد أن يخفف عن أمه وأخواته البنات صورة ما كان يعانيه .. ولم يكن والده يهتم بحكايات السجن .. كان ينظر فى وجه ابنه بعينيه المتعبتين العجوزتين ويردد .. يجب أن تكون حريصا على نفسك أكثر .. إن الدنيا فى مصر تتغير كأننا مقبلون على حياة جديدة .. والحياة الجديدة فى حاجة إلى طريق جديد تسير فيه ..

وكان منير مقتنعا بأن مصر بدأت تعيش حياة جديدة .. ولكنه لم يكتشف الطريق الجديد الذى يسير فيه .. إنه لا يسير داخل الأحداث ولكنه يتفرج عليها فما حاجته إلى البحث عن طريق جديد .. إن طريق الفرجة لا يتغير .. ولكنه رغم ذلك بدأ يعانى الحيرة فى أيامه .. ربما ما جد عليه هو ما يفرضه عليه الخوف .. الخوف من أن يعود إلى السجن ..

وقد بدأ يخرج من البيت إلى شوارع الحياة .. وكل من يصادفه ممن

يعرفونه يصيحون فيه .. أين كنت يا رجل ؟ .. مضت شهور ونحن لا نراك ولا نسمع عنك .. هل كنت مسافرا إلى الخارج ؟ .. ويرد منير ساخرا .. تقريبا .. كنت مسافرا ..

وذهب إلى صديقه عبد الله الذى يدين له بفضل الإفراج عنه .. يدين لشهامته التى عاش فيها طول حياته منذ كان طالبا فى المدرسة الابتدائية وتحولت زمالته له إلى صداقة العمر .. وألح عليه عبد الله أن يبدأ فى زيارة شخصيات الإخوان الذين سعوا للإفراج عنه .. وقال منير مترددا :

ـــ إنهم سعوا لك ويكفى أن تزورهم أنت ..

وقال عبد الله مصمما :

ـــ إنهم كانوا يسعون لك أنت وليس لمجرد أنك صديقى .. إنهم يعرفونك ويقدرونك .. بل إن الأستاذ منصور أحمدين يعتبرك من الإخوان رغم كثرة مناقشاتك معه ..

وقال منير فى رجاء :

ـــ إنى خرجت من السجن متعبا وأريد أن أبتعد عن المجالات السياسية على الأقل إلى أن أستريح ..

وقاطعه عبد الله ببراءته التى تصل إلى حد السذاجة :

ـــ إن الإخوان ليسوا مجال سياسة .. إننا مجال الإيمان بديننا وما يفرضه الله على المسلمين ..

وقال منير فى أسى :

ـــ حتى المؤمنين قد يصل إليهم الاعتقال والسجن لمجرد أنهم مؤمنون بالله ..

وصاح عبد الله بسذاجته :

ـــ لن تستطيع يد كافر أن تمس أحدا من الإخوان .. إن هذه الثورة هى ثورتنا ولم يعد ينقصها إلا إعلان شريعة الإسلام .. ولنا مندوبون عنا فى مجلس القيادة .. وكل الضباط والجنود الذين منا أصبحوا هم أصحاب الكلمة .. علاوة على أن الإخوان هم كل المسلمين .. هم الأغلبية الشعبية الكاسحة ..

واستمع منير إلى كلام عبد الله وهو مشفق عليه .. إنه يعلم أن فكره لا يتسع لأى تقدير سياسى صحيح .. وهو لم ينضم إلى الإخوان سياسيا ولكنه انضم إليهم تبركا .. ويحضر اجتماعاتهم بنفس الروح التى يحضر بها اجتماعات المصلين فى جامع الحسين .. ويكرر ما يسمعه منهم كأنه يكرر أحاديث شريفة .. ويتبرع لهم بأمواله كأنه يدفع الزكاة .. إنه مجرد شخصية متدينة عميقة الإيمان بالدين .. وقد اضطر أن يستجيب لإلحاحه بأن يزور الشخصيات الإخوانية بعد أن اقنعه باختصار بعضهم .. وكان خلال هذه الزيارات يكتفى بكلمات الشكر ولا يدخل فى أى مناقشة كما كانت عادته .. ويستمع إلى كل منهم كأنه يستمع إلى محاضرة يلقيها أستاذ فى الراديو دون أن يستزيد الأستاذ أو يسأله أو يناقشه .. وقد أراد صديقه عبد الله بعد ذلك أن يقيم دعوة غداء يدعو إليها الشخصيات الإخوانية وبعض تجار الحى احتفالا بالإفراج .. ولكن منير رفض إقامة هذه الدعوة أو هذا الحفل وأصر على الرفض واكتفى بدعوة خاصة للأستاذ منصور أحمدين لتناول الغداء على مائدة عبد الله .. إن منير أصبح يعانى الخوف .. والخوف يدفعه إلى كل هذا الحرص فى تحركاته واتصالاته .. وقد استطاع فى هذه الأيام أن يقنع صديقه عبد الله بأن يتولى بعض موظفى الدكان وعماله توصيل الخطابات التى حملها من السجن إلى عائلة كل سجين .. إنها لا شك

عائلات مفروض عليها الرقابة وهو أيضا مراقب وقد تتصور المخابرات أنه يتصل بها لتنفيذ خطة مؤامرة جديدة .. كما أنه كلف صديقه عبد الله بأن يقوم بالاتصال تليفونيا بعائلات المساجين الذين أعطوه أرقام تليفوناتهم .. لا شك أن كل هذه التليفونات مفروض عليها الرقابة .. وهو واثق أن صوت صديقه عبد الله ليس معروفا ولا مسجلا لدى المخابرات ..

وبدأ منير يتردد على مكتبه .. مكتب المحاماة .. لقد مضت سبعة شهور فقط منذ غاب عنه ولكنه أحس بعد أن دخله كأنه غاب عنه سنوات .. بل أحس كأن شخصيته كمحام قد ضاعت منه وأن عليه أن يبحث عنها حتى يستعيدها .. وأخذ يقلب فى أوراق القضايا ويتصل بأصحابها ليبلغهم أنه عاد إلى العمل .. واحتار بينهم .. إن بعضهم يعتقد أنه كان مسافرا إلى الخارج ويتركه على اعتقاده .. وبعضهم يعلم أنه كان معتقلا ولكن ما دام قد أفرج عنه سريعا فالثورة اعتبرته بريئا أو غفرت له .. وهناك البعض الذين سحبوا قضاياهم من مكتبه وحولوها إلى مكاتب أخرى .. ثم إن منهم ـــ وخصوصا من رجال الأعمال ـــ متفائلين جدا ويحاولون توسيع أعمالهم .. ومنهم وخصوصا من أصحاب الأرض متشائمون جدا وكل ما يسعون إليه هو بيع الأرض قبل أن تؤخذ منهم .. وهو وسط هذه الحيرة العامة يحس أن مهنة المحاماة كلها تهتز وتكاد تسقط وتختفى فى قاع كما بدأت تختفى محال صناعة الطرابيش بعد أن ألغى الطربوش كغطاء الرأس المصرى .. لعله كان يتنبأ بالغيب عندما أصبحت المحاماة بكل جلالها مجرد وظيفة حكومية .. عندما أصبحت العدالة كلها ليست حقا إنسانيا ولكنها أصبحت أيضا مجرد مصلحة حكومية ..

وخلال هذه الأيام كانت دلبر تعيش فى فكره وإحساسه .. حبه

الوحيد .. لعلها لا تعلم أنه قد أفرج عنه .. ويجب أن يتصل بها .. ولكنها أخت كمال الروزنامجى وزوجة عادل السلانكلى وكلاهما معتقل .. وقد اعتقل هو بسبب صداقته لهما .. ربما اعتقل بسبب حبه لها .. ثم لا شك أن تليفونها مراقب .. تليفون عائلة من أكبر العائلات الإقطاعية وأفراد منها تحت الاعتقال .. ثم إنه لا يدرى إذا كانت لا تزال تقيم وحدها فى بيت الزوجية أم انتقلت إلى قصر الروزنامجى لتعيش مع أمها .. فأين يتصل بها ؟ ..

وقاوم معاناته .. معاناة الحب .. حتى لا يتصل بها .. ولكنه كان يسير يوما فى الشارع ودلبر مسيطرة على فكره وإحساسه ودون أن يحاول المقاومة دخل إلى أقرب تليفون صادفه واتصل بها .. وسمع صوتها .. إنها لا تزال تقيم فى شقتها بعمارة شارع الجبلاية .. شقة الزوجية .. وما كاد يقول .. آلو .. حتى صرخت :

— منير ..

وقال بصوت أعلى من صوتها كأنه يحاول أن يغطى على ذكر اسمه الذى نطقت به :

— أختى تحييك .. وتقول إنها فى انتظارك اليوم الساعة الثامنة فى آخر الشارع لتذهب معك فى سيارتك لزيارة والدتك .. ومع السلامة ..

ولا يدرى هل فهمته أم لا .. لقد أراد أن يتحايل حتى لا تفهم الرقابة المفروضة على التليفون أنه يريد لقاءها فى آخر شارع الجبلاية .. وأن تأتى إليه بسيارتها كما كانا يلتقيان أيام زمان .. أيام بكارة حبهما .. فهل فهمته ؟ ..

وذهب إلى انتظارها .. لقد فهمته فعلا وجاءت إليه تقود سيارتها .. وكانت فرحتها فرحة يغلبها الأسى والهموم والضياع والحيرة .. فرحه يضج فيها

الأنين .. وقد بدأ يطمئنها على حال أخيها وزوجها وهما فى معتقل صحراء الواحات .. ولكن لا يبدو عليها الاهتمام بحال أخيها أو زوجها .. إن كل ما تهتم به هو حالها هى .. لقد أصبحت فى منتهى حالة اليأس .. وهى تريد أن تهرب من مصر كلها .. تريد أن تسافر إلى الخارج .. حتى لو سافرت بلا ولا مليم تحمله معها .. إنها تعرف بعض الناس فى لبنان وفى باريس .. وفى لندن .. وتريد أن تسافر حتى لو اضطرت أن تعمل خادمة فى الخارج .. وقال مشفقا عليها :

— لم تعد هناك حرية السفر إلى الخارج ..

وقالت وهى تكاد تهم بالبكاء :

— أعرف .. ولكن الأميرة فايزة استطاعت أن تسافر من مصر .. وقيل إن الذى ساعدها ضابط من القيادة اسمه البكباشى عزت ..

وقال فى قرف ساخط :

— دعى البكباشى عزت يساعدك أنت أيضا ..

وقالت وقد بدأت دموعها تنزف على خديها :

— إنى مستعدة أن أرتمى على أى رجل حتى أسافر .. ولكنى قبل أن أعانى ما عانته فايزة حاول أن تساعدنى أنت .. ابحث لى عن طريق آخر للسفر .. لقد كنت قد فقدت الأمل فى أى طريق آخر ولكن بعد أن عدت إلىّ عدت أتعلق بالأمل ..

وقال بصوت يائس بعد أن جفف دموعها بشفتيه :

— سأحاول ..

واستمر حديثهما الممزق الحائر وهما مختبئان فى السيارة واتفقا على موعد للقاء آخر حتى لا يضطرا إلى حديث التليفون ..

واتفق منير مع زميل قديم يعمل فى مكتب محاماة الأستاذ الكبير عبد الهادى برعى الذى قضى فيه فترة التمرين على المحاماة .. اتفق معه على البحث عن طريق قانونى سليم يوفر لدلبر السفر إلى الخارج .. وأوصى دلبر بالاتصال به .. إنه لا يريد أن يقوم بهذه المهمة بنفسه حتى لا يعرض نفسه للشبهات ويعتقل من جديد ..

وقد استمرت اللقاءات بينه وبين دلبر .. بل إنهما فى مرة اتفقا على أن يلتقيا فى مكتبه .. وكان قد ترك بيت العائلة وأقام فى المكتب حتى يبعد عن أفراد العائلة خوفه وحيرته وما قد يتعرض له من احتمالات .. وكان لقاء أعدا له وخططا حتى يهربا من المراقبة .. إن كلا منهما يحس بحاجته إلى الآخر بعد هذا الحرمان الطويل .. ولكنهما عندما التقيا فوق الفراش أحسا كأن جسد كل منهما يبكى مع جسد الآخر .. حتى لو كانت الدموع دموع متعة ..

ولم يستطع زميله المحامى أن يحصل لدلبر على إذن بالسفر إلى الخارج .. مستحيل .. وتلقت دلبر الخبر صامتة ثم قالت لمنير وهى تبتسم ابتسامة مرة :

— إن أختى نسليار تعرفت إلى ضابط اسمه الصاغ هاشم .. وتقول إنه ضابط مهم وسيحصل لها على إذن بالسفر ..

ثم لم تزد ولا كلمة وابتسامتها المرة معلقة فوق شفتيها ..

حتى أختها نسليار التى كانت معروفة بالعجرفة والتكبر على كل البشر نزلت إلى السوق الجديد تبحث عن ضابط إلى أن وجدت واحدا .. هل تلقى دلبر أيضا بنفسها فى السوق .. سوق الرقيق .. سوق الجوارى .. بعد أن وصلت إلى منتهى اليأس ؟.. إنها لا تقول شيئا .. ومنير لا يسألها ولا يحاول أن يعرف .. حتى حبه أصبح مستسلما للقدر ..

ومرت شهور ومنير يتفرج من بعيد على ما يجرى فى مصر .. إن الاعتقالات بدأت تشمل كل الأحزاب .. وكل الشخصيات التى عاشت الحركة الوطنية .. إنه يستنتج أن الثورة بدأت تقضى على كل ما كان موجودا قائما .. دون أن يستطيع أن يتصور ما أعدته من جديد مكان القديم .. إلى أن بدأ الانقسام داخل مجلس قيادة الثورة نفسه .. قامت معركة فى داخلها .. معركة عنيفة .. والأحداث والقرارات تتغير يوما بعد يوم .. يوم تقضيه مصر وشعبها فى منتهى الحرية .. ويوم يقضيه كل فرد من أفراد الشعب مكبلا بالأغلال .. وهو مع كل هذه الأحداث لا يؤيد ولا يعارض .. إنه فقط متفرج .. بل إنه حرم على نفسه التفكير السياسى فلم يجد ولو خيطا رفيعا يستطيع أن يطلق به فكره ليصل إلى التنبؤ بالمستقبل .. بل إنه توقف عن الاتصال بأحد من أصدقائه أو ممن يعرفهم وأبعدهم جميعا عن زيارته فى مكتبه .. لم يعد يتردد إلا على صديقه عبد الله عبد اللطيف .. إنه رغم أنه من الإخوان المسلمين إلا أنه ليس شخصية هامة ولا معروفة بينهم .. ولا علاقة له بأى تحرك من تحركاتهم .. إنما فقط يتبرع لهم من أمواله .. وهو يستريح إلى التردد عليه فى محل بيع الأقمشة .. إنه طول حياته لا يستريح إلا فى جلسة ساعة مع صديقه عبد الله ..

إلى أن فوجئ فى ليلة بطرقات عنيفة على باب مكتبه .. إنها طرقات أعنف مما ينتظر حتى تكاد تكسر الباب .. وقام فزعا من النوم وفتح الباب .. إنه ضابط وبضعة جنود .. إنهم يقبضون عليه مرة أخرى .. والضابط أعنف من الضابط الآخر الذى سبق أن قبض عليه .. وصاح وهو يلقى بكفه الثقيلة على كتفيه :

— معنا يا أستاذ ..

وقال وهو يتلوى تحت قبضة الضابط كالفرخة التى يعدونها للذبح :
ــ هل أستطيع أن ألبس ملابسى ؟..
وصاح الضابط صيحة ساخرة :
ــ لا يا أستاذ .. هكذا يكفى ..
وجروه وهو مرتد بيجامة النوم إلى السيارة التى تنتظر فى الشارع وكانت مزدحمة بغيره من المعتقلين لا يعرف أحدا منهم .. ووقف بينهم وكلهم ينظرون بعضهم إلى بعض دون أن يتفوهوا بكلمة ..
وانطلقت بهم السيارة فى طريق طويل إلى أن دخلت بهم إلى سجن عرف فيما بعد أنه السجن الحربى التابع للجيش مباشرة .. ودون أن يمر على مكتب أو على مسئول جروهم جميعا وألقوا بهم فى زنزانة واسعة ..
وشهق دهشة ..
إن معه فى الزنزانة صديقه عبد الله عبد اللطيف والأستاذ منصور أحمدين وكثيرين ممن يعرفهم من الإخوان المسلمين .. لقد اعتقل هذه المرة مع الإخوان ..
واحتضنه عبد الله وهو يقول وكله يرتعش من صدمة المفاجأة :
ــ وأنت ما ذنبك يا منير .. لماذا حشروك بيننا ؟..
وقال منير من خلال الابتسامة المرة :
ــ إننا دائما معا يا عبد الله ..
وقضى كل أيام السجن وهو فعلا مع عبد الله .. لا يبتعد عنه .. وهو مستسلم لقدره استسلاما كاملا منطلقا مع طبيعته كمتفرج .. ولكنها كانت فرجة مريرة معذبة .. إنه يتفرج على أبشع ما فى الحياة .. عندما يصبح الإنسان يقوده حيوان .. والحيوان لا يعرف إلا أن يأكل .. يأكل

البلد كلها .. ويأكل السلطة .. ويأكل بنى البشر .. وكانت القيادالعليا كأنها تأكل الإخوان المسلمين وتمزقهم بكل ما فى الحيوان من فتك الأنياب والمخالب .. ولم يكن الإخوان يفكرون فى تنظيم أنفسهم داخل المعتقل ولم يصلوا إلى أسلوب علمى للتعامل مع ضباط وجنود السجن كما كان يفعل الماركسيون فى سجنهم حتى يقنعوهم بالتخفيف من تعذيبهم .. إنما كان كل اعتمادهم على إيمانهم بالله .. ويتحملون العذاب كأنه يقربهم من الله ويرتفع بهم فى طريقهم إلى الجنة .. وكل لحظاتهم التى تمر بهم بعيدا عن مخالب الحيوان كان لا يشغلهم فيها إلا الصلاة وتلاوة القرآن .. وكان من بينهم شخصيات بارزة تبدو كأنها تتولى قيادتهم .. ولكنهم لم يكونوا قادة منظمين مخططين ولكنهم كانوا كأنهم أئمة .. كل إمام يقف بالمسلمين ويجلس بهم لتلاوة القرآن ..
ولم يكن ضباط وجنود السجن الحربى يتركونهم لله ولو هذه اللحظات .. كانوا يهجمون عليهم وهم يؤدون الصلاة وينهالون عليهم ضربا بالكرابيج وأكعاب البنادق كأنهم ضبطوهم فى مؤامرة .. مؤامرة مع الله .. وقد حدث أن كان منير يصلى مرة وحده .. لقد أصبح مفرطاق الصلاة .. ولم يعد يجد ما يخفف عنه إلا هذه اللحظات التى يسلم بها نفسه لله .. وإذا بقدم جندى ترتفع أمامه بالحذاء الثقيل ثم تنهال عليه ركلا حتى يسقط على الأرض .. وصاح الجندى :
ــ إذا كنت تريد الصلاة فصل لسيدك ..
وقال منير كأنه يشهق آخر أنفاسه :
ــ إنى أصلى لله ..
وصاح الجندى :

— الله الذى يحرضكم قبضنا عليه وأعدمناه .. الله الواحد الذى يستطيع أن يفرض عليك أمره هو الرئيس .. فغير اتجاه القبلة حتى تثبت إيمانك ويرضى عنك .. إن الله الذى تصلى له لن يفرج عنك فصل لمن يفرج عنك .. .

وأشار الجندى بأصبعه ناحية القبلة الجديدة التى يريده أن يصلى لها .. ناحية حى منشية البكرى .. ناحية مجلس قيادة الثورة ..

وسكت منير متحملا الركلات ..

وكان كل ما يشغل منير داخل السجن هو حال صديقه عبد الله .. إنه يتحمل السجن ويتحمل العذاب الذى يصب عليه وهو ساهم كأنه لا يحس به .. إن كل فكره وكل إحساسه محصور فى مصير محله التجارى ومصير زوجته وأولاده .. إنها المرة الأولى فى حياته التى يغيب عن محله وعائلته .. لم يكن يغيب عنهم من قبل ولو يوما واحدا .. وتمضى الشهور وهو غائب عنهم .. وكان لا يصارح أحدا من أصدقائه المعتقلين بحالته إلا منير عندما يختلى به .. وكان منير يحس دائما أن عبد الله يهم بالبكاء .. ولكنه لم يكن يبكى أبدا أمام أحد .. ولا حتى أمام رجال السجن وهم يعذبونه .. كانت قوة رجولته وشهامته تتحمل كل شىء بلا بكاء .. لن يكون أبدا ضعيفا إلى حد أن يبكى .. ولكن منير استيقظ مرة فى أواخر الليل وهو راقد بجانب عبد الله على أرض الزنزانة وسمع صوت دموعه تنهمر على خديه ..

ولم يعد عبد الله يتحمل .. لقد ثار مرة فى وجه السجانين وأخذ يشتمهم .. يا كفرة .. يا مجرمين .. يا أولاد الكلاب .. وعندما انهالوا عليه بالكرابيج تصدى لهم وأخذ يضرب فيهم لا دفاعا عن نفسه ولكن ثورة عليهم .. حتى عندما جاء الضابط استطاع أن يصل بذراعه إليه ويضربه ..

إنه قوى .. وبقية الإخوان يتفرجون من بعيد وهم يدعون له بالهداية ويرسلون له من داخل صدورهم آيات من القرآن .. إلى أن انتهت المعركة الصغيرة وأخذ الجنود عبد الله واختفوا به ..

ولم يعد عبد الله ..

لقد صبوا عليه العذاب حتى قتلوه .. مات عبد الله قبل أن يمر عام على اعتقاله ..

وأحس منير كأن كل شىء فى حياته قد انتهى .. أحس كأنه مات مع عبد الله .. وعاش أكثر استسلاما دون أن يخفف عن نفسه بالفرجة .. لا شىء يتفرج عليه وهو فى القبر .. بل إنه لم يعد يتكلم ..

وقد مضت ثلاث سنوات وهو داخل السجن .. إن سجنه مع الإخوان كأنه لن ينتهى .. ليس كسجنه مع الماركسيين الذى لم يستمر سوى شهور .. وكانوا ينقلونهم من سجن إلى سجن .. نقلوهم من السجن الحربى إلى سجن طرة .. ثم نقلوهم من سجن طرة إلى سجن أبى زعبل .. إلى أن كان يوم واستدعى إلى مكتب المأمور .. وفغر فاه دهشة .. إن حول مكتب المأمور يجلس صديقه كمال الروزنامجى وصديقه خليل أحد أفراد الشلة الماركسية .. ولكنها دهشة لم تنطلق بمثل الفرحة التى انطلقت منه عندما شاهد صديقه المرحوم عبد الله فى وزارة الداخلية عندما أفرج عنه بعد أن اعتقل أول مرة .. وكان قد سمع وهو فى السجن عن أن الثورة بدأت تفرج عن الماركسيين ولكنه لم يكن يتصور أنهم خرجوا من المعتقل ليعملوا مع الثورة .. ويحتلوا من النفوذ والقدرة إلى حد أن يستطيع كمال زيارته فى السجن .. واحتضنه كمال وخليل .. وقال رجل آخر كان يجلس بجانب المأمور لعله مندوب المخابرات :

ـــ مبروك يا أستاذ منير .. لقد أفرج عنك ..

وقال فى صوت خافت :

ـــ شكرا ..

وعاد الرجل يقول :

ـــ لقد تأكدنا أنك لست من الإخوان .. وإن كنا قد تأخرنا إلى أن تأكدنا .. آسفون ..

وقال منير كأنه يحادث نفسه :

ـــ لم أكن أبدا إخوانيا ..

وقال الرجل كأنه يدافع عن المخابرات :

ـــ ولكنك كنت متصلا بهم وصديقا للكثيرين منهم ..

وقال منير وهو يتنهد فى أسى :

ـــ كنت صديقا للمرحوم عبد الله عبد اللطيف .. ولم أكن أستطيع أبدا أن أستغنى عن صداقته .. حتى بعد أن مات وهو معنا فى المعتقل فلا زلت أعتز بصداقته ..

وسكت الجميع كأنهم لا يريدون أن ينظروا إلى عورة من عوراتهم كشفت أمامهم .. وتمت إجراءات الإفراج بسرعة .. وودعه بقية المعتقلين من الإخوان بلا فرحة ولا تعليق ودون أن يطلب منه أى واحد خدمة يؤديها له بعد الإفراج .. إنهم فى منتهى الاستسلام للقدر .. ربما حتى لو أفرج عنهم جميعا فلن تسودهم الفرحة أبدا .. كلها أحكام الله إلى أن يدخلوا الجنة ..

وقال له صديقه كمال وهو يجلس بجانبه فى سيارته التى يقودها ومعهما صديقه الآخر خليل وضابط المخابرات .. إنه ضابط مباحث .. وليس ضابط مخابرات عسكرية .. لأنه صحبهم يومها إلى وزارة الداخلية لإتمام

إجراءات الإفراج .. قال كمال :

ـــ لقد كنت أقول لهم .. كيف يعتقل منير مع الإخوان وقد سبق أن اعتقل معنا باعتباره ماركسيا ؟ ..

وقال منير كأنه يسخر من نفسه :

ـــ إنه نصيب كل من يؤمن بالحرية .. حرية الجميع .. وكل ما يصيب أى جانب يصيب هذا الذى يؤمن بالحرية .. إنى لا أعتقل لأنى ماركسى أو لأنى إخوانى .. بل لأنى أومن بالحرية ولن أضمن سلامتى إلا إذا كفرت بالحرية ..

إنها لهجة جديدة يتكلم بها منير .. وقال له كمال مشفقا عليه :

ـــ لا تقل هذا الكلام .. ستبقى دائما حرا كما كنت ..

وتمت بقية الإجراءات فى وزارة الداخلية بسرعة .. وحمله كمال وخليل إلى بيت عائلته وقال له وهو يودعه :

ـــ سأراك غدا :

وقال منير مبتسما :

ـــ بعد غد .. إنى لا أعرف بعد كيف أنام على سرير بعد أن تعودت النوم على الأرض ..

وفوجئت العائلة بظهوره بينهم .. لقد خرجت الجثة من القبر وعادت إلى الحياة .. ولكن المفاجأة كانت أهدأ من المفاجأة التى شملتهم عندما أفرج عنه بعد الاعتقال الأول .. ودموع وقبلات الفرحة كانت أيضا أهدأ .. كأنهم أصبحوا مستسلمين إلى أن هذا هو نصيب ابنهم الوحيد .. وبدأ كما هى العادة يحكى لهم عن سنوات السجن دون أن يجسم مالاقاه من عذاب .. وبدءوا يحدثونه عما مر بهم من أحداث .. ووالده العجوز يستمع

صامتا .. ولم يقل إلا كلمة واحدة هى نفس الكلمة التى سبق أن استقبله بها وهو خارج من السجن :

ـــ الدنيا تغيرت أكثر يا منير .. واحسب حسابك لتتغير معها ..

وقال منير متنهدا فى يأس :

ـــ ربنا يستر يا أبى ..

وعندما دخل غرفته ليبدل ثيابه دخلت معه أمه ورأت على ظهره خطا أحمر طويلا .. إنه خط تركته لسعة كرباج .. وانحنت تقبل آثار التعذيب ودموعها فى عينيها دون أن تنطق بكلمة ..

ونام .. كأنه لم ينم أبدا طوال هذه السنوات الثلاث ..

وقام فى الصباح وخرج من البيت دون استئذان واتجه كأنه يجرى إلى محل بيع الأقمشة الذى كان يملكه صديقه المرحوم عبد الله عبد اللطيف .. إن أخاه الأكبر أحمد هو الذى يدير المحل الآن .. واستقبله فى برود .. وقال له منير :

ـــ البقية فى حياتك ..

وقال أحمد فى برود :

ـــ لقد علمنا بخبر وفاة المرحوم ..

وقال منير كأنه يهم بالبكاء :

ـــ إنى لم أكن صديقا للمرحوم وحده .. بل صديقا للعائلة كلها .. وأنا تحت أمر العائلة فى كل ما تريد ..

وقال أحمد كأنه يطرده :

ـــ أنا لست كالمرحوم أخى .. لا يهمنى سوى المحل .. ولا دخل لى فى السياسة ولا علاقة لى بالإخوان .. ولا أحب أن أعرض نفسى للشبهات ..

إنه يطرده من الاقتراب منه أو من العائلة ..

وابتعد حزينا .. لقد مات كل ما كان يربطه بصديق العمر عبد الله .. لم تبق منه إلا ذكريات يعيش فيها وحده ..

وسار يبحث عن صديقه كمال .. إن قصر الروزنامجى قد صودر وأصبح للحكومة .. ولم تعد الشلة تجتمع فى مقهى الأسيوطى كما كانوا يجتمعون أيام زمان .. واحتار أين يجد كمال ؟ .. وتذكر أن صديقه خليل قد قال له إنه أصبح موظفا فى وزارة الثقافة .. فذهب يبحث عنه هناك .. إن كل أفراد الشلة أصبحوا موظفين .. وهم موظفون لهم نفوذ والوزير فى كل وزارة يعتمد عليهم .. وقد وجد خليل وأخذه للقاء كمال .. إنه يقيم الآن وحده فى شقة صغيرة .. وقال له ضاحكا :

ـــ لقد اتفقنا أن أتركك تنام حتى الغد ..

وقال منير وهو يبادله الضحك :

ـــ ليلة واحدة نمت فيها على سرير كانت تكفى لأعود إلى الحياة ..

وبدأ يلتقى بأفراد الشلة .. التقى بعادل السلانكلى وسأله خلال الحديث فى لهجة رسمية وقد عاد قلبه ينبض من جديد :

ـــ كيف حال زوجتك ؟

وقال السلانكلى ضاحكا :

ـــ سافرت منذ سنوات .. إنها تقيم الآن فى بيروت .. وقد أذهب إليها قريبا ..

وابتسم منير فى حسرة .. لا بد أنها وجدت البكباشى أو الصاغ الذى أتاح لها أن تسافر كما فعلت الأميرة فايزة وأختها نسليار .. يجب أن يتخلص من كل فكره وإحساسه بها .. يتخلص حتى من ذكرياته معها .. إذا كانت

قد بقيت ذكرياته مع صديقه المرحوم عبد الله فلا يجب أن يبقى على شيء من حبيبته دلبر .. ورغم ذلك تعود آماله تزحف عليه .. هل يستطيع أن يذهب إليها هو الآخر ويلتقى بها فى بيروت كما يأمل زوجها ؟ ..

وتمر الأيام وهو يلتقى بأفراد الشلة الماركسية .. لقد أصبح لهم فعلا نفوذ كبير فى الدولة .. طبعا بعد أن احتل الاتحاد السوفيتى مصر .. وهم يعرضون عليه أن يتولى وظيفة ذات قيمة .. وهو نفسه بدأ يفكر واقعيا .. والواقع يفرض عليه أن يعلن أنه ماركسى حتى يضمن على الأقل القوة التى تحميه من الاعتقال .. ولكنه لا يزال يرفض الوظيفة ويرفض الانضمام لأى حزب .. إنه بذلك يعتقل نفسه فى سجن أعنف من السجون التى كان معتقلا فيها .. إن السجون إذا كانت تحرم حرية الحركة فهى حرية لا تحرم حرية الفكر .. إنك داخل السجن تستطيع أن تطلق فكرك لما تريد حتى وأنت مقيد الجسد .. أما الوظائف والأحزاب فهى تحرمك من حرية الفكر حتى لو أطلقت حرية جسدك .. حرية السير على قدميك .. لذلك كان يبتعد عن كل أصدقائه الذين يصبحون من كبار الموظفين .. بل ابتعد عن واحد منهم أصبح وزيرا ..

وقد رفض كل الوظائف التى عرضها عليه الماركسيون .. وقد لاحظ أن صديقه كمال الروزنامجى ومعه عادل السلانكلى .. لم يوضعا فى وظائف رئيسية مهمة .. لعلهما رغم صدق ماركسيتهما ورغم إنهما أيدا مصادرة قصورهما وأرضهما .. وأرادا أن يؤكد إيمانهما بأن العدالة الاجتماعية التى تسود الشعب حتى لو ضحيا بأملاكهما ومصالحهما الخاصة .. رغم ذلك فهما لا يزالان ينسبان إلى أن كلا منهما ابن باشا قديم .. لذلك لا تستطيع أى قيادة أن تظهر اعتمادها عليهما .. واكتفى المسئولون بتعينهما هما الاثنين

محررين فى إحدى الصحف ..

وظل يرفض الوظيفة ويرفض إعلان أنه أصبح ماركسيا .. ولكن الماركسيين لا يزالون محتفظين بصداقته .. إنهم يؤمنون بأنه صاحب رأى يستفيدون منه .. إنه دائما مستشار لهم حتى لو لم يكن منهم .. ويساعدونه بأن يمدوه بقضايا لها أتعاب ضخمة ويقنعونه بأن ينضم إلى لجان بعيدة عن الحكومة لها مكافآت محترمة ..

ولكن الاتجاه نحو الواقعية لا يزال يراوده .. إنه لو كان أكثر واقعية فلماذا لا ينضم للحزب الرسمى .. حزب الثورة والحكومة .. أى ينضم إلى الاتحاد القومى ؟ .. إن الماركسيين فضوا حزبهم وأعلنوا انضمامهم إلى الاتحاد القومى الذى تطور وأصبح يحمل اسم الاتحاد الاشتراكى .. رغم أنهم لا يزالون ماركسيين .. ثم من أدراه بمصير هؤلاء الماركسيين ؟ .. قد تتغير الأحوال من جديد ويعتقلون ويعتقل معهم .. إنه ليكون أكثر واقعية فالطريق الوحيد هو أن ينضم إلى حزب أو تنظيم الاتحاد القومى ..

ولكنه لا يستطيع ..

إن فكره لا يستطيع أن يتحول ويخرج به عن طبيعته .. طبيعة المتفرج ..

بل إنه لا يستطيع بعد كل ما عاناه أن يلجأ إلى صديق صباه وجاره وابن الحته .. البكباشى معتز الجنيدى .. إن معتز لم يعد يعرف الآن برتبة البكباشى .. لم يعد يعرف بأى رتبة عسكرية .. ولكنه أصبح يتولى مركزا مهما ومسئولية واسعة من داخل مركز قيادة الثورة .. إن جمال عبد الناصر نفسه لم يعد يحمل أو يعرف بأى رتبة عسكرية .. لا بكباشى ولا فريق .. كذلك كل أعضاء مجلس القيادة ما عدا عبد الحكيم عامر بحكم مركزه

كقائد للجيش لا بحكم عضويته لمجلس القيادة .. لذلك فليس غريبا أن يصبح زميل صباه معتز الجنيدى بلا لقب عسكرى لأنه أصبح يحمل مسئولية سياسية رئيسية .. وهو لو أراد أن يكون واقعيا ويضمن الأمان طول العمر فيجب أن يبحث عن لقاء معتز ويعتمد على صداقة صباه .. ولكنه لا يستطيع أن يسجن نفسه داخل صداقة أحد كبار المسئولين .. لا يستطيع .. إنه لا يستطيع أن يتنازل عن حريته حتى باسم الصداقة ..

ولكنه التقى صدفة بصديق آخر من أصدقاء الصبا وأبناء الحى .. إنه ممدوح رفعت .. وفرح ممدوح بلقائه كما فرح به هو .. إنه أصبح الآن موظفا كبيرا يتولى مسئولية عدة مصانع .. وقال له ممدوح إنه قرر إقامة دعوة لكل أصدقاء الصبا أبناء الحى الذين لا يزال يلتقى بهم .. وهو يدعوه .. وقبل منير الدعوة مرحبا .. وقال له ممدوح كأنه يتباهى بنجاح الدعوة :

ـ ستلتقى بصديقنا معتز ..

والتقى بمعتز الذى وصل إلى أكبر مركز وصل إليه واحد من أبناء الحى ..

.. سهر الليل .. ليلاس ..
www.lilas.com

(١١)

وكان منير فى منتهى السعادة بلقاء أصدقاء الصبا أبناء الحى .. إنهم كلهم ناجحون فى الحياة مع اختلاف درجة نجاحهم .. كلهم وصلوا إلى فوق وأعلاهم هو ما وصل إليه الصديق معتز الجنيدى .. إنه صاحب مكتب من مكاتب قيادة الثورة .. وإن كان لا أحد يدرى مهمة هذا المكتب .. أهو سكرتير .. أم مستشار .. أم قائم بالأعمال .. وأعمال من ؟ .. أعمال عبد الناصر أم أعمال المشير عبد الحكيم عامر ؟ .. لا أحد يدرى مهمته بالضبط .. ولكن الجميع يعلمون أنه أصبح مهما جدا وسلطاته تمتد إلى كل شبر فى الدولة ونفوذه يصل إلى أى مكان منها ..

وكان منير خلال الدعوة يخطف اللمحات إلى معتز .. لقد تغير عما كان فى صباه .. لقد كان معروفا فى الحى بانزوائه وخجله وسكوته وعدم إقدامه على الاشتراك فى ألعاب الحى أو فى الخناقات .. إلى أن اختفى عن الحى كله بعد أن التحق بالكلية الحربية وبعد أن تركت عائلته الحى إلى حى آخر .. وظل مختفيا مجهولا إلى أن قامت الثورة فبدأ اسمه يظهر من بعيد .. ثم بدأ هذا الاسم يقترب حتى أصبح من أسماء الصف الثانى بعد صف أعضاء مجلس القيادة .. إلى أن أصبح اسمه يتردد حتى مع أسماء مجلس القيادة .. ووصل إلى كل هذه السلطة وهذا النفوذ .. وهو يجلس الآن بين أصدقاء الصبا بشخصية أخرى .. شخصية معتزة بنفسها وكأنه يتباهى بنجاحه وشطارته وذكائه .. وهو ليس خجولا ولا منزويا كما كان .. إنه يفرض شخصيته .. ويبدأ فى الأسئلة .. ثم يقدم من عنده تفاصيل كثيرة عن كل ما يتعرض له

حديث .. ولكن الواقع أن هذه الشخصية تحتفظ بأنها شخصية رجل مهذب .. مؤدب .. نظيف اللسان والكلمات ..

وقد بدأت الدعوة بين أصدقاء الصبا بتبادل الذكريات والضحك طويلا على نوادر كل منهم .. وبعد فترة بدأ كل واحد من المدعوين يقترب من معتز الجنيدى ويبدأ معه حديثا هامسا .. ربما كان يطلب منه .. أو يشكو إليه .. ولكن منير لم يحاول أن ينفرد بمعتز .. ولا حتى أن يحيطه باهتمام خاص يميزه عن باقى الأصدقاء .. إنه مجرد صديق آخر من أصدقاء الصبا الذين فرقت بينه وبينهم الأيام .. ورغم ذلك فقد كانت اللمحات والابتسامات المتبادلة بينهما تعبر عن فرحة كل منهما بلقاء الآخر .. وكأن ما بينهما من أحاسيس صداقة الصبا أقوى كثيرا مما بينهما وبين الآخرين ..

وكان معتز الجنيدى هو الذى بدأ الحديث الخاص مع منير أثناء تناول طعام العشاء الفخم الذى أعده صاحب الدعوة صديق الصبا ممدوح رفعت .. وكانوا يحملون أطباق الطعام وقوفا بسبب زحام المدعوين ..

واقترب معتز من منير وهو يحمل طبقه قائلا :

ـ إنك لم تحاول أبدا أن تسأل عنى ..

وقال منير ضاحكا :

ـ إنى أتتبع ما ينشر من أخبارك دائما .. وكنت أدهش .. كيف استطاع الصبى الخجول معتز أن يسير فى هذا الطريق الصعب ؟..

وقال معتز ضاحكا وهو يسير بمنير بعيدا عن باقى المدعوين :

ـ وأنا أيضا كنت أتتبع أخبارك .. كانت أخبارك تصلنى .. وكنت أيضا أدهش .. كيف يمكن أن يكون الصبى الهادئ العاقل مرة ماركسيا .. ومرة إخوانيا .. ولا يكف عن التحرك فى المجال السياسى ..

وقاطعه منير دون أن يدهش من أنه يعرف كل أخباره :

ـ أنا لم أكن أبدا ماركسيا ولا من الإخوان ولا أى شىء آخر .. ولكن لعلك تذكر أنى منذ صغرى وأنا من هواة الفرجة .. وكنت معروفا بينكم بأنى أقرأ كثيرا .. وكنت أقرأ لأتفرج على ما تقدمه لى القراءة .. ثم أصبحت ألتقى بكل أصحاب الاتجاهات السياسية كأنى وجدت مسارح أخرى للفرجة عن طريق القراءة .. إنى أصف نفسى دائما بأنى متفرج .. وإن كانت الفرجة قد كلفتنى كثيرا من المعاناة ..

وقال معتز مبتسما :

ـ لو كنت قد اتصلت بى فربما كنت أستطيع أن أنقذك من المعاناة .. وأنا لم أغير رأيى فيك منذ الصبا ولكن عدم اتصالك بى جعلنى أشعر كأنك أنت الذى غيرت رأيك فى وأصبحت ترفض استعادة صداقتنا ..

وقال منير مبتسما :

ـ أبدا .. لم يتغير رأيى فيك رغم دهشتى بك .. ولكن مركزك الآن يجعل كل من يتصل بك وكأنه صاحب طلب .. إما طلب ليحقق مصالح خاصة وإما طلب لإنقاذه .. وأنا لا أحب أن ألقاك كصاحب طلب .. أو إنى لم أتعود أن أطلب .. إنى لا أطلب حتى أتعاب القضايا التى أترافع فيها بل أترك صاحب القضية هو الذى يطلب منى أن أقبل ما يدفعه لى ..

وقال معتز وهو يتناول الطعام من الطبق الذى يحمله بيديه :

ـ إنك مثالى .. ترفض الاعتراف بالواقع .. ولذلك عشت تعانى الواقع .. ولكن اسمع .. ليس كل ما يتصل بى من أصحاب المطالب .. وليست كل مهمتى استجابة أو رفض هذه المطالب الخاصة .. إن هناك قضايا عامة تخص مصر كلها وأحتاج فيها إلى الاتصال بمن يعيننى فيها .. وقد

خطرت على بالى كثيرا لأعتمد عليك ..

وقال منير فى دهشة :

ــ أى قضايا تقصد ؟

وقال معتز وهو يلقى الطبق من يده على المائدة :

ــ قضايا كثيرة .. وأنا أعلم أنك تقرأ كثيرا .. أو كما تقول عن نفسك تقضى حياتك متفرجا .. وأنا ليس لدى وقت للقراءة أو للفرجة وتستطيع أنت أن تشركنى معك فيما تقرؤه وتتفرج عليه .. وليس هنا مجال الحديث .. هل أستطيع أن أراك غدا ؟..

وقال منير وهو متردد كأنه لم يفهم بعد ما يطلبه منه معتز :

ــ يشرفنى .. أين أراك ومتى ؟

وقال معتز وكأنه فرح :

ــ غدا فى مكتبى .. الساعة العاشرة صباحا .. (وتوقف برهة ثم استطرد) .. لا .. لنلتقى فى بيتى وفى العاشرة مساء ..

وانتهى حفل لقاء أصدقاء الصبا ..

وفى مساء اليوم التالى كان منير جالسا مع معتز فى بيته .. وبعد حديث طويل عما يريده منه معتز .. قال له :

ــ أنت تعلم أن اتصالاتنا الرئيسية الآن مع الاتحاد السوفيتى .. وأنا أريد أن أعرف كل شىء عن الماركسية .. لا كنظرية ولكن كما هى مطبقة فى روسيا .. حتى أفهم وأقدر كيف أتعامل مع هذه الدولة الجديدة علينا .. هل تعلم كيف تطبق الماركسية فى روسيا ..؟

وقال منير مبتسما :

ــ إنها ليست مطبقة فى روسيا ولا فى أى مكان من العالم ، إنى قرأت

كثيرا وسمعت كثيرا عن النظم القائمة فى روسيا ..

وحدثه منير كثيرا بكل ما يعرفه عن نظم الاتحاد السوفيتى .. وطالت الجلسة حتى قرب الفجر .. وقال له معتز وهو يودعه :

ــ إن كل ما بيننا مجرد صداقة ليس لها أى صفة رسمية ما دمت لا تريد منصبا ولا وظيفة .. اعتبر كأننا فى كلية من كليات الجامعة أنت أستاذها الوحيد وأنا طالبها الوحيد .. وطبعا دون أن يعرف أحد شيئا عن هذه الكلية الجامعية القاصرة علينا ..

وخرج منير من لقاء معتز وهو سعيد .. يحس كأنه وجد طريقا يستطيع فيه أن يشترك فى حكم مصر .. يشترك برأيه لا بمنصب يصل إليه ..

ومرت سنوات واتصاله بمعتز الجنيدى لا ينقطع .. وظل هذا الاتصال كأنه سر لا يعرفه أحد وإن كان الكثيرون قد بدءوا يكتشفون أن هناك صداقة وطيدة تربطه بمعتز .. وهو ما فتح أمامه مجالا جديدا لعمله كمحام .. إن كثيرا من القضايا التى أصبحت تقدم إليه لا يمكن أن يحلها القضاء .. ولكن يمكن أن يحلها معتز .. وكان يرفض معظم هذه القضايا ولا يقبل منها إلا ما يستطيع أن يطرق لحلها باب القانون والقضاء أو على الأقل طريق السعى الشرعى ..

وكان معتز يتصل به عندما يطرأ عليه موضوع جديد يريد أن يستعين به فى دراسته .. وكان منير يقدم إليه ما يعرفه عن هذا الموضوع .. وكان أحيانا يقرأ كتابا جديدا أو يبذل جهدا فى البحث حتى يستكمل الموضوع الذى يسأل فيه .. ولكنه كان دائما يقول رأيه الصادق فى اقتناعه به .. ولم يكن يهمه أن يأخذ معتز برأيه أو لا يأخذ به .. المهم أنه محتفظ بحريته فى إبداء رأيه .. وهو واثق أن معتز يقبل منه هذه الحرية ما دامت حرية مقصورة فيما يدور

بينهما ولا تخرج إلى الشارع ..

وفى يوم قال له معتز :

ـــ إنى حائر ... فالمفروض أنك الآن أستاذ جامعى أمام طالبك الوحيد الذى هو أنا .. والمفروض أن الأستاذ الجامعى له مرتب أو أتعاب .. فكيف أحدد أتعابك وكيف أدفعها لك ؟

وقال معتز هذا الكلام وهو يضع على المائدة أمام منير رزمة كبيرة من الأوراق المالية .. كلها أوراق من العشرة الجنيهات .. ونظر منير إلى الرزمة ساخرا ثم قال مبتسما :

ـــ أنا لست أستاذا .. ولا أقبل أن أكون بالنسبة لك أستاذا .. إن كل ما أعتز به بيننا هو أننا أصدقاء .. والصداقة ليس لها مرتب ولا أتعاب .. وإلا حاسبتك على المتأخر من الأتعاب منذ كنا أصدقاء أيام الصبا ..

وقال معتز ضاحكا :

ـــ كنت واثقا أنك سترفض ..

ولكنه ترك رزمة الأوراق المالية أمام منير لعلها تغريه .. إلى أن انتهت المقابلة ..

وكان ارتباط منير بصداقة كمال الروزناجى واتصالاته بباقى الشلة الماركسية لا يزال مستمرا ..ولم يكن له اتصال بالإخوان المسلمين فكلهم لا يزالون فى المعتقل .. ربما لو كان على صلة بمعتز أيام زمان لاستطاع عن طريقه أن يفرج عن صديقه عبد الله عبد اللطيف قبل أن يموت فى المعتقل .. الله يرحمه ..

ولم يعد لمنير أى اتصال بأى حركة سياسية أخرى فقد شطبت جميع الأحزاب السياسيةوتم اعتقال معظم رجالها .. ومن لم يعتقل منهم فضل الانزواء بعيدا عن السياسة .. لم يعد هناك إلا بعض التحركات السرية حتى بين الماركسيين

ولكنه لم يتعود التعامل تحت الأرض مع التحركات السرية ..

وفوجئ منير يومابصديقه كمال الروزناجى يقول له إنه قرر السفر إلى الخارج .. وسأله منير فى دهشة :

ـــ إلى أين ؟

وقال كمال ضاحكا ويبدو أنه كان يخفى سرا وراء ضحكته :

ـــ لم أقرر بعد .. ولكننى سأصل إلى جنيف ومن هناك إما أن أتجه إلى موسكو أو إلى لندن ..

وسافر كمال فعلا وسافر معه عادل السلانكلى زوج دلبر .. إن السفر للخارج أصبح مباحا للماركسيين .. ومن يدرى ؟.. لعلهما سافرا للقاء دلبر أو على الأقل للبحث عنها .. وقد مضت شهور دون أن يرسل له كمال أى خطاب كما تعود أن يرسل له عندما سافر لأول مرة .. وهو لا يعلم أين هو ؟.. لقد سمع أنه فى لندن .. وسمع أنه فى بيروت .. ولكنه لم يرسل أى خطاب لأى أحد يستطيع أن يعرف منه أين هو ..

لماذا لا يجرب هو الآخر السفر .. لدى كمال أو على الأصح لدى دلبر .. إن حبه لدلبر وصل إلى منتهى اليأس ولم يعد له فيه أى أمل .. ولكنه يتمنى أن يراها ولو من بعيد ليشبع طبيعة الفرجة فيه .. ولكن إلى أين يسافر ؟.. إنه يستطيع أن يطلب من معتز الجنيدى أن يعرف له عن طريق المخابرات أين تقيم دلبر وأين يقيم أخوها كمال .. ولكن ليس من مبادئه أن يستعين بالمخابرات وإلا ترك نفسه يتهم بأنه منها .. ثم لماذا لا يسافر لمجرد الفرجة على العالم حتى دون أن يرى دلبر أو كمال ؟ إنه لم يتفرج على خارج مصر أبدا رغم شهوة الفرجة المتمكنة منه ..

وقدم طلبا للسفر إلى الخارج كما تنص الإجراءات ..

ورفض طلبه ..

إن اسمه فى القائمة السوداء ..

ولو كان الماركسيون هم المحرم عليهم السفر فاسمه فى القائمة السوداء للماركسيين .. وإذا كان الإخوان المسلمون هم المحرومين فاسمه فى قائمة أسمائهم أيضا ..

وروى هذه الحادثة لصديقه معتز وهو يضحك .. ورد عليه معتز فى بساطة :

ــ ولا يهمك .. ستسافر ..

وبعد أيام استدعاه معتز إلى لقاء وقال له :

ــ لقد اكتشفت أن هناك معلومات كثيرة تنقصنا ولا أظن أنك جمعتها .. وهى معلومات خاصة بموقف السياسة البريطانية من السياسة الأمريكية .. وهناك كتب جديدة صدرت فى لندن بعد عام ٥٦ تحلل هذا الموقف .. ثم هناك وثائق كثيرة قد نشرت .. وبما أنك ستسافر فأرجو أن تبقى فى لندن إلى أن تجمع معلومات كافية فى هذا الموضوع ..

ثم رفع معتز حقيبة سامسونيت صغيرة وناولها لمنير .. وحاول منير أن يفتحها سائلا :

ــ ما هذا ؟..

وقال معتز مبتسما :

ــ هذه حقيبة جمعت لك فيها أوراقـــا خاصة بهذا الموضوع .. لا تفتحها هنا .. فليس لدى وقت لنقاش طويل .. خذها معك وافتحها وأنت وحدك .. وقد صدرت الأوامر بالسماح لك بالسفر ..

وحمل منير الحقيبة الصغيرة وفتحها فى مكتبه .. إنها تحمل مبلغا كبيرا

من الدولارات .. عشرة آلاف دولار .. إن معتز يريد أن يدفع له نفقات سفره .. وربما افتعل هذا الموضوع الذى كلفه بحثه لمجرد تبرير دفع هذا المبلغ الكبير له .. هل يرفض ؟.. هل يعيد الحقيبة إلى معتز ؟.. ولكنه لو أعادها فربما حرم من السفر .. أو ربما غضب منه معتز .. لماذا لا يكون واقعيا ولو مرة .. ولو على حساب مبادئه .. إنه سبق أن كان واقعيا على حساب المبادئ عندما كان قد قرر أن يبتعد عن دلبر بعد أن تزوجت .. كان لا يريد أن يكون عشيقا لامرأة متزوجة .. هذه مبادئ شرعية صارمة يؤمن بها .. ولكنه استسلم للواقع وأصبح عشيقا لدلبر .. فلماذا لا يستسلم للواقع هذه المرة أيضا ؟..

وسافر .. ودخل المطار وهو يحمل الحقيبة فى يده بما فيها من دولارات .. واستقبل باحترام كبير ولم يجرؤ أحد على تفتيشه .. إن الأمر الذى يبيح له السفر صدر من الرئاسة .. فأى موظف فى الدولة يستطيع أن يفتشه وكأنه يفتش الرئاسة .. وكان قد سبق وسمع أن رجال المخابرات يسافرون إلى الخارج وهم ليسوا معتمدين على أموال تحول إليهم أو يجدونها هناك .. بل يسافرون وهم يحملون مثل هذه الحقيبة الصغيرة التى تحمل آلاف الدولارات .. وطرد عن فكره هذا الخاطر بسرعة .. إنه ليس من رجال المخابرات .. إنه مجرد صديق .. أو إنه أخذ أتعابه .. أتعاب الأستاذ ..

ووصل إلى لندن .. وفوجئ بأن أحد موظفى السفارة يستقبله فى المطار .. إنه موظف من موظفى مكتب الملحق العسكرى .. لقد كان الملحق العسكرى أيامها هو مندوب المخابرات .. إن المخابرات هى التى تهتم به كأنه يتبعها وسافر بأوامرها .. وذلك علاوة على الاستقبال الرسمى الذى أقامه له السفير وإن كان لم يتعد دعوته إلى العشاء دعوة خاصة .. وقد وجد

كل شيء سهلا فى لندن بفضل اهتمام السفارة .. وكان يريد أن يرى كل الشوارع والدور والمتحف التى قرأ اسمها فى قصص أرسين لوبين عندما كان يقرؤها فى صباه والتى سمع بها من أصدقاء سبقوه فى السفر .. كان يريد أن يتفرج على كل شيء .. وقد سأل منذ اليوم الأول عن صديقه كمال الروزنامجى .. وعن أخته دلبر وزوجها عادل السلانكلى .. وأكد له الملحق العسكرى أن لديه أسماء كل المصريين الذين فى بريطانيا كلها وليس بينها هذه الأسماء .. لعل كمال اختار أن يذهب إلى موسكو .. ولكن أين دلبر ؟.. إنها قطعا لم تفكر فى موسكو .. لعلها فى بيروت .. ولعلها تعمل جرسونة فى مقهى أو فى بار .. ومن يدرى ؟.. لعلها استطاعت أن تعيش فى البلد الآخر حياة بنات الذوات التى كانت تعيشها فى مصر قبل الثورة ..

وقد أراد أن يظهر أمام السفارة كأنه فعلا فى مهمة رسمية فأخذ يطلب زيارة أهم المكتبات .. وتصفح فعلا كثيرا من الكتب .. وحمل معه بعضها .. ولم يكن بينها كتب عن الموضوع الذى ادعى معتز الجنيدى اهتمامه به ..

وكان قد مضى عليه عشرون يوما فى لندن وقرر العودة .. وقال له موظف المخابرات المكلف بمصاحبته :

ــ إذن نبدأ فى الشراء ..

وقال منير فى دهشة :

ــ شراء ماذا ؟..

وقال مرافقه فى تعجب .. فقد كان كل من يأتى إلى لندن من الرسميين يأتى للشراء .. فلماذا أتى هذا الشخص ؟.. وقال فى بساطة :

ــ شراء الهدايا وما تحتاج إليه .. إن دكاكين لندن معروفة بأن فيها كل ما

لا تجده فى مصر ..

ولم يكن يريد شيئا .. ولكنه يجب أن يشترى .. واشترى هدايا لأمه وأخواته البنات .. واشترى لنفسه بدلة جاهزة وقطعة من القماش وقمصان وكرفتات .. وكان يجب أن يشترى أيضا هدية لصديقه معتز الجنيدى .. واشترى له قلم باركر .. إن أقلام الباركر أصبحت نادرة وغالية فى مصر ..

ورغم ذلك كان كل ما أنفقه فى لندن أقل من نصف الدولارات المعبأة فى الحقيبة السامسونيت الصغيرة ..

وقد اختار أن يعود إلى مصر عن طريق بيروت .. قد يجد دلبر أو كمال هناك .. إنه يذوب شوقا للتفرج عليهما .. عليها .. وقد أمضى فى بيروت أسبوعا متفرغا للفرجة على كل لبنان .. ولم يجد دلبر رغم أنه وصل إلى حد التردد على البارات وكباريهات الليل بحثا عنها ولما سمعه من أن كثيرا من النساء المصريات حتى من نساء عائلات كبيرة محترمة ممن هربن من مصر إلى بيروت كن يعملن فى الكباريهات والبارات .. ولم يجد دلبر ولا كمال .. ولا سمع عنهما شيئا من رجال المخابرات فى السفارة ..

لقد أنفق على نفسه فى بيروت وفى سبعة أيام ضعف ما أنفقه فى لندن خلال عشرين يوما .. ولا يدرى فيما كان ينفق .. إن بيروت لها قوة جذب خاصة لكل ما فى جيبك ..

وعاد إلى مصر وقضى أياما فى مجاملات وتقاليد العودة بعد أول غيبة عن مصر .. إن الغيبة عن مصر تترك شوقا أكثر إلى الحرية أكثر من الغيبة فى السجن ما دام السجن داخل مصر .. إن الإنسان لا يستطيع أن يذوق طعم الحرية إلا داخل بلده .. وبدأت حياته تستمر كما كانت .. أهم ما فيها هى اتصالات الصداقة التى تجمعه بمعتز الجنيدى ..

وكان يتعمد أن يتتبع كل أخبار معتز حتى يزداد فهما له .. وقد فهم فى فترة أن معتز هو من رجال المشير عبد الحكيم عامر .. إن مكتبه فى نفس مبنى قيادة المشير .. ولكنه كان يعود فى فترة أخرى ويقدر أن معتز هو من رجال جمال عبد الناصر .. إنه يتحمل مسئوليات داخل رئاسة عبد الناصر .. وأحيانا يعتبره محل ثقة الاثنين .. عبد الناصر وعبد الحكيم .. ولم يكن هو شخصيا يهمه أن يفرق بين ناصر وعامر .. كلاهما فى تقديره واحد .. حتى بعد أن مرت السنوات وأصيبت مصر بهزيمة عام ٦٧ لم يفرق فى مسئولية الهزيمة بين عبد الناصر وعبد الحكيم .. إنها مسئولية واحدة مشتركة .. وإذا كان عبد الحكيم قد انتحر كما قيل فإن عبد الناصر أيضا قد انتحر .. لقد مات بعد المشير بثلاث سنوات ولكنه كان يقال إنه كان يعيش ميتا منذ أعلنت الهزيمة .. كان ميتا مع عبد الحكيم ..

وقد أعقبت الهزيمة وموت المشير حملة اعتقالات واسعة شملت كل رجال المشير .. وبدأ منير يقدر أن صديقه معتز سيعتقل .. وإذا اعتقل فقد يعتقل معه فقد أصبح معروفا أنه صديقه ويعمل معه .. ولكن حملة الاعتقالات لم تكن عنيفة واسعة كالحملة التى قامت بها الثورة على الإخوان المسلمين بعد اتهامهم بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر .. رغم أن هزيمة ٦٧ كانت اغتيالا لمصر كلها .. ولم يسمع أن صديقه معتز الجنيدى قد اعتقل ..

وكانت قد مضت شهور لم يتصل به معتز .. إن الاتفاق بينهما كان يقوم على أن يتصل به معتز كلما أراده .. وهو قطعا لم يكن يحتاج إليه فى فترة الإعداد للهزيمة ولا بعدها .. لذلك لم يتصل به .. ولكنه كان واثقا أنه لم يعتقل .. ثم تأكد أنه سافر إلى الخارج .. إلى لندن .. ودون أن يودعه

بكلمة .. ترى ما حجم الشنطة السامسونيت التى سافر وهو يحملها معه ؟ ..

* * *

وعاش منير حياة مصر السياسية الجديدة كعادته .. مجرد متفرج .. وإن كان قد تعمد أن يبعد نفسه إلى آخر صفوف المتفرجين .. وكان من الأحداث الهامة التى وقعت هو حدث الإفراج عن كل المعتقلين من الإخوان .. لقد سبق الإفراج عن بعضهم ولكنه لم يتصل بأحد من المفرج عنهم ولا أحد منهم اتصل به .. ولكن فى هذه المرة أفرج عن صديقه الأستاذ منصور أحمدين الذى جمعه به أيام زمان صديق عمره عبد الله عبد اللطيف .. إنه يجب أن يزوره بعد الإفراج عنه على الأقل يقرآ الفاتحة معا ترحما على صديقهما عبد الله .. ولكنه ظل مترددا شهورا .. لقد أصبح يتردد دائما قبل القيام بأى حركة .. ربما وصل به العمر .. عمر العجز .. إلى سن التردد .. إلى أن فوجئ بالأستاذ منصور يزوره بنفسه فى مكتبه .. إنه لم يتغير .. لا يزال على إيمانه وبنفس آرائه وحماسه رغم أنه قضى أكثر من سبعة عشر عاما معتقلا .. وقال له منصور فى هدوء الأستاذ :

ــ إن هناك أحاديث كثيرة تتردد هذه الأيام حول السماح بإقامة التجمعات السياسية والدينية .. وأعتقد أنها فرصة لطلب الاعتراف الرسمى بجماعة الإخوان المسلمين .. وأرجو أن تساعدنا .. لقد خرجت من المعتقل منذ زمن طويل وأعتقد أن لك القدرة على الاتصال أكثر من أى واحد فينا ..

وقال منير مبتسما كأنه يعيد حديثا قديما ولا يعترف بتطور الزمن :

ــ إن الأحداث التى تدور الآن تنحصر فى إعادة تكوين الأحزاب .. فلماذا لا يطلب الإخوان تشكيل حزب إسلامى مصرى كما سبق أن

عرضت عليك أيام زمان ؟ ..

وقال الأستاذ منصور فى تصميم :

ــ لا .. إن جماعة الإخوان ستبقى دائما دعوة ..

وقال منير ملحا :

ــ إن الإسلام دين ودنيا .. والدين يقوم على الدعوة .. والدنيا تفرض ممارسة الواقع .. والواقع يفرض عليكم إقامة حزب سياسى ..

وقال الأستاذ منصور فى هدوء وهو لا يزال على إصراره :

ــ إن الدعوة تشمل الدين والدنيا ..

وعاد منير إلى إلحاحه قائلا :

ــ إن جماعة الإخوان المسلمين تعتبر جماعة الشهداء .. وقد مات مؤسسها الشيخ حسن البنا مقتولا .. واعتقل رئيسها التالى وخرج من المعتقل ليموت فى بيته .. وأنتم فى حاجة الآن إلى تشكيل جديد وإلى رئيس جديد .. والخطوة الجريئة نحو التطور الواقعى هى أن تكونوا حزبا ..

وقال الأستاذ منصور وكأنه يطالبه بالانتقال إلى موضوع آخر :

ــ إن قوة الإخوان فى مبادئها وليس فقط فى تنظيمها أو رئاستها .. وستبقى قوية دائما ..

وانتهى اللقاء على أن يبدأ منير فى السعى لإعتراف الدولة بتنظيم جماعة الإخوان .. ولكنه لم يستطع أن يحقق شيئا .. رغم أن الدولة كانت فى فترة مجاملة للإخوان حتى إنها أباحت لهم إصدار مجلة خاصة بهم .. ومنير يعترف أنه لم يعد يستطيع أن يبذل نفس الجهد الذى كان يبذله لكسب القضايا التى يقبل تحمل مسئوليتها .. ربما كان قد تعب من كل حياته .. أو ربما كان الملل .. لقد أصبح يعيش الأحداث حتى دون أن يتعب نفسه بإبداء الرأى

كمتفرج .. لقد نقل نفسه إلى الصفوف البعيدة للمتفرجين .. بعيدا عمن يستمع إلى رأيه .. سواء صفق مؤيدا أو بصق رافضا .. حتى عندما اغتيل أنور السادات .. كان رأيه رافضا لعملية الاغتيال .. ولكنه لم يترك نفسه لمجرد إبداء رأيه .. وسكت مستسلما لليأس والملل والتعب من كل الحياة السياسية التى عاش بفكره ..

* * *

وهو يعيش وحده إلى الآن فى الغرفة الضيقة الملحقة بمكتبه .. مكتب المحاماة .. فهو لم يتزوج .. إن المرأة الوحيدة التى دخلت حياته ولمسها هى دلبر .. لم يكن فى حياته نساء لا قبلها ولا بعدها .. ولم يفكر أبدا فى الزواج منذ فشل فى الزواج من دلبر .. وإلحاح أبيه وأمه وأخواته البنات عليه ليتزوج كان يدفعه إلى الضحك الساخر .. ماذا يفعل بالزواج ؟ .. ماذا يفعل بامرأة إلا إذا كانت دلبر ؟ .. إنه ليس فى حاجة إلى خادمة .. وكل عائلته لا تفكر إلا فى أن تكون له خادمة يسمونها زوجة .. وهو سعيد بوحدته .. سعادة دفعته حتى أن يرفض الإقامة مع العائلة .. ولكن على قدر سعادته باحتمال هذه الوحدة فأحيانا يضيق بها .. وقد دفعه الضيق إلى أن سعى منذ سنوات بعيده إلى الانضمام إلى النادى الأهلى .. واختار الأهلى لأنه اعتبره ناديا مدنيا فى حين كان يعتبر الزمالك ناديا عسكريا ربما لأن المشير عبد الحكيم عامر هو المسيطر عليه .. ولكنه لم يكن يتردد على النادى الأهلى .. كان مشغولا بعمله كمحام وباتصالاته كمفكر سياسى .. وكان يعتز بأن الكثيرين من المشتغلين بالسياسة يلجئون إلى رأيه .. إنهم يعرفون أنه ليس معهم ولا ضدهم .. ويعرفون أنه لا يبحث عن منصب أو مركز يمكن أن يمسهم من بعيد أو قريب .. ولكنه صاحب رأى محترم .. رأى قائم على

سنوات طويلة من الفرجة على الحياة السياسية المصرية كلها .. فرجة دراسية بروح وطنية خالصة .. وكانوا يترددون الآن كثيرا عليه فى مكتبه ليستمعوا إلى رأيه .. ولكنه بدأ يضيق حتى بالمكتب .. وأصبح يتردد كثيرا على النادى الأهلى .. ولكن حتى فى النادى الأهلى كانوا يلجئون إليه لمعرفة رأيه السياسى ..

وكان جالسا فى الركن المنزوى من حديقة النادى الأهلى عندما لمح من بعيد عباس ربيع وهو يتقدم إليه .. وبدأت الدهشة تلمع فى عينيه .. إنه يعرف عباس ربيع منذ بدأ شابا لامعا فى العلوم الاقتصادية واستطاع بسرعة أن يكون معروفا لدى كل الدوائر الرسمية التى يهمها الاقتصاد .. ثم بسرعة استطاع أن يكون وزيرا فى عهد حكومات عبد الناصر .. ولكنه لم يبق طويلا فى الوزارة .. خرج .. ولم يخرج لظروف متعلقة بالحالة الاقتصادية ولكنه خرج لظروف سياسية كانت تسيطر عليها الشلل .. خرج هو وشلته من الوزارة .. ومنذ خرج لم يعد متفرغا للعلوم الاقتصادية .. أصبح معروفا أكثر بتفرغه السياسى رغم أنه لا يزال يتولى مسئوليات اقتصادية خارج الوزارة .. كان على اتصال وثيق بكل الشخصيات السياسية وكان عضوا فى كل المؤتمرات واللجان الاقتصادية التى تقيمها الحكومة .. وكان مرشحا دائما للعودة إلى الوزارة .. ولكنه لم يعد فى أيام عبد الناصر .. وعندما بدأت حكومات أنور السادات اتخذ موقفا سياسيا قفز به فورا إلى الوزارة .. إنه يبدو شخصية أخرى أكثر هدوءا وهو داخل الوزارة .. ولكنه أيضا لم يبق فى الوزارة فترة طويلة .. خرج .. وعاد إلى أسواق السياسة ولكنه عاد أكثر اندفاعا وأصرح فى تحديد مواقفه .. وعندما قامت الأحزاب نسب اسمه إلى أكثر من حزب معارض .. ولكنه رغم اتصاله بالجميع لم يثبت عليه انضمامه

لحزب .. بل إنه كان مستمرا فى اتصالاته بالمسئولين كواحد من علماء الاقتصاد ..

وخلال كل هذه السنوات الطويلة لم يكن ما بينه وبين عباس ما يعتبر صداقة .. ولكنها كانت معرفة .. وتمضى فترات طويلة دون أن يلتقى به .. ثم فجأة يراه أمامه .. ولم يكن يراه أبدا عندما يكون وزيرا .. ولكنه لا يراه إلا وهو خارج الوزارة .. وكان الحديث بينهما يقتصر على السياسة .. ويبدو عباس وكأنه يستطلع رأيه أو يبحث عن مستقبل موقف من مواقفه السياسية .. ثم يعود ويغيب عنه فترة طويلة إلى أن يفاجئه بلقاء آخر ..

ترى ماذا جاء به اليوم ؟ ..

وابتسم منير بينه وبين نفسه ابتسامة ساخرة وهو يقوم واقفا يستقبل عباس ربيع ..

وصاح عباس وهو يهز يده فى حرارة :

ــ ازيك يا منير بك .. أين أنت ؟ .. لقد طفت القاهرة كلها باحثا عنك إلى أن اكتشفت أنك تجلس فى حديقة النادى الأهلى .. لا شك أنك اخترت النادى لتحتفظ بشبابك ..

وقال منير من خلال ابتسامة لاهية :

ــ إن هذه الحديقة تجمع بين منتهى الشباب ومنتهى العواجيز .. وأنا أعيش الآن المنتهى ..

وقال عباس وهو يجلس بجانبه مقتربا :

ــ لقد تعودناك على أنك تعيش دائما المستقبل .. تعيشه بآرائك وصدق تقديرك .. والمستقبل لا نهاية له ..

وقال منير فى برود :

ـــ التفكير فى المستقبل مسئولية .. وقد أعفيت نفسى من المسئولية وأحلت نفسى على المعاش ..

وقال عباس مبتسما ابتسامة رجاء :

ـــ الفكر لا يحال أبدا على المعاش .. ومهما تمادى الإنسان فى العمر يبقى الفكر فى شبابه .. لا يشيخ ولا يضعف .. بل لا يتغير .. فالشاب الغبى يبقى غبيا مهما مضى به العمر والذكى يبقى ذكيا .. ولو عدنا إلى الفكر الذى كان يرسم لك المستقبل أيام شبابك لوجدناه يرسم نفس الخطوط اليوم .. وقد اعتمدنا كثيرا على فكرك منذ بدأنا .. والصور التى كنت ترسمها للمستقبل تحققت كلها رغم أنها كانت تذهلنا عندما نسمعها بل كنا أحيانا نرفضها .. وقد مضى علينا فترة طويلة لم نطلع فيها على فكرك ولا سمعنا صوتك .. والواقع أنى كنت أبحث عنك إلى أن وجدتك لأنى فى حاجة إلى أن أعيش فكرك الذى تعودت عليه ليصور لى المستقبل .. فأنا حائر إلى أقصى حدود الحيرة .. لم أعد أستطيع أن أرى صورة للمستقبل ..

وقال منير فى هدوء :

ـــ أى مستقبل ؟

وقال عباس فى عنف :

ـــ مستقبل بلدنا .. مستقبل الحالة التى نعيشها ..

وضغط منير على شفتيه كأنه يجمع فكره ثم قال :

ـــ هناك فرق بين الحالة الوطنية والقضية الوطنية .. فالحالة تدفع إلى حصر الفكر فى الواقع حتى يتغلب على مشكلات هذا الواقع .. والقضية تدفع الفكر إلى تصور المستقبل لأنه فكر يرفض الواقع من أساسه .. ولو راجعت تاريخ مصر الحديث لوجدت أن تطور المستقبل قام على قضايا وطنية

واشترك فيه كل الشعب بما فيه غير المتخصصين بإلحاح الدافع الوطنى .. ونحن الآن نعيش بلا قضايا وطنية أو أن هناك إجماعا كاملا على تأجيل كل ما يخطر على الفكر من قضايا وطنية إلى أن نجتاز الحالة التى نعيشها .. وهى حالة تقتصر مسئوليتها على المتخصصين ..

وصاح عباس فى دهشة :

ـــ ألا تعتبر الغلاء الذى يعصر عروق الشعب قضية وطنية تستحق البحث عن المستقبل ؟

وقال منير فى هدوء :

ـــ لا .. الغلاء ليس قضية وطنية ، إنه حالة وطنية .. وقد كان الغلاء بالنسبة لطبقه الأغلبية الشعبية قائما دائما ولكننا كنا ننسبه إلى قضايا وطنية .. كنا ننسبه إلى الاحتلال البريطانى أو إلى حكم العائلة الملكية أو إلى ضعف الأحزاب السياسية القائمة .. وانحصر الفكر السياسى بيننا فى تحديد مستقبل كل هذه القضايا بدافع إصلاح الحالة .. ولذلك قامت الثورة وقضت على الاحتلال البريطانى والعائلة المالكة والأحزاب السياسية .. وحالة الغلاء مستمرة حتى اليوم ولكننا لا يمكن أن ننسبها إلى قضايا وطنية حتى ندعو إلى ثورة أخرى .. إنها حالة تنحصر مسئوليتها فى المختصين الإداريين ..

وقال عباس فى حدة :

ـــ إن هؤلاء الإداريين مضت عليهم سنوات وهم يتحملون المسئولية والغلاء يشتد .. فلماذا لا يطردون ليحل محلهم من هم أقدر منهم على تحمل المسئولية ؟ .. لماذا لا نطالب بطردهم حتى بأن تقوم ثورة عليهم ..

وقال منير مبتسما فى إشفاق :

ــ هنـاك إحساس شعبى عام بالمساواة بين كل الإداريين بما فيهم الوزراء .. ليس بينهم فى نظر الناس من هو أقدر من الآخر .. وربما كان ذلك يرجع إلى الخطأ الأكبر الذى بدأ منذ قامت الثورة .. وهو التحريم على أى شخصية بأن تقدم نفسها للشعب كشخصية لها ذاتها ولها ما تتميز به .. فلم يجد الشعب شخصية يعلق أمله عليها ويطالب بأن تتحمل مسئوليته .. إن الناس اليوم لا تعرف حتى أسماء الوزراء ولا تهتم بمعرفتها .. ليس هناك إلا اسم واحد وشخصية واحدة يعرفها الناس .. اسم وشخصية رئيس الدولة .. لذلك لا يمكن أن تصبح المطالبة بتغيير الوزارة والوزراء قضية وطنية .. إنها مجرد حالة تعتمد على ما يقرره رئيس الدولة وحده .. وافرض أنك عدت اليوم وزيرا فى الوزارة فما هو الأمل الذى يمكن أن يعلقه الناس عليك ؟ .. إنك رغم كل تاريخك الطويل لا يعرف الناس عنك شيئا لأنه لم يكن أمامك أبدا الفرصة لأن تقدم نفسك للناس .. كان الطريق الوحيد أمامك هو أن تقدم نفسك لرئيس الدولة .. وأتمنى لك ألا تعود وزيرا .. إنك تستطيع أن تقنع نفسك بإنشاء شركة لصيد السمك حتى ينخفض سعر السمك فيعرفك الناس وتصبح شخصية وطنية كما كانت شخصية طلعت حرب ..

وقال عباس وهو يقلب شفتيه قرفا :

ــ حتى لو أنشأت مثل هذه الشركة فستنسب إلى الحكومة وسأدعو رئيس الدولة لافتتاحها كأنى أعترف أن الفضل له .. إن عثمان أحمد عثمان أنشأ عشرات الشركات ورغم ذلك فكل قيمته تقدر وترتفع وتنخفض على أساس صلته الخاصة برئيس الدولة .. ولم يستكمل أبدا شخصية مستقلة وطنية بحيث يطالب به الشعب كزعيم أو كقائد لإنقاذ الحالة ..

وقال منير فى هدوء :

ــ كل ما يهمنى أن اقنعك بأننا نعيش حالة لا قضية وطنية .. ولا يستطيع أن يعينك على النهوض بهذه الحالة إلا الخبراء وأنا كما تعلم لست خبيرا فى شىء ..

وقال عباس بسرعة :

ــ إنك خبير فى القضايا الوطنية .. فلماذا لا تقتنع بأن ارتباطنا بأمريكا هو أساس الحالة التى وصلنا إليها .. كما كان ارتباطنا بالإمبراطورية البريطانية هى الحالة التى كنا نعيشها أيام زمان ؟ .. وارتباطنا بأمريكا هو أساس ارتباطنا بإسرائيل .. وكنا فى حالة من نوع آخر أثناء ارتباطنا بالاتحاد السوفيتى ؟ .. أليست هذه قضية وطنية تدفع الفكر إلى البحث عن طريق المستقبل .. حتى لو كان طريق الثورة ؟ ..

وقال منير وهو يبتسم ساخرا :

ــ إن الحالة أقوى من القضية .. ليس فى مصر إحساس وطنى بالتخلص من أمريكا .. إن أشكال الاحتلال الأجنبى قد تغيرت .. ثم إننا مررنا بتجارب أقنعتنا بأن التخلص من أمريكا معناه الاعتماد على روسيا .. وأقنعتنا التجربة بأن الاعتماد على أمريكا أرحم من الاعتماد على روسيا .. لم تعد هذه القضايا تعتبر قضايا وطنية .. ما هو الفرق بيننا وبين سوريا أو ليبيا مثلا ؟ .. هل هو فارق فى الإحساس الوطنى .. أبدا .. إنه فارق فى الاختيار بين أمريكا وروسيا .. لذلك فارتباطنا بأمريكا ليس قضية إنما هو أيضا حالة لن تتطور إلا إذا ارتفعت إلى مستوى قضية ..

وقام عباس واقفا والسخط يكسو وجهه :

ــ إنك تدفعنى إلى اليأس .. يبدو أنك قد أحلت فكرك فعلا إلى

المعاش .. سلام عليكم ..

وابتعد وهو يدق الأرض بقدميه ساخطا ..

ومنير يتبعه بابتسامة ساخرة ..

واسترخى على مقعده وأطلق عينيه إلى حدائق النادى كأنه يبحث عن شيء .. يبحث عن ماض انتهى .. إن كل شجرة فى هذه الحديقة عاشت الماضى ولكنها لم تعد تظلله .. لم تعد تظلل العواجيز ولا الذكريات .. ولكنها تظلل الجيل الجديد والمستقبل .. وشبان النادى يتجمعون ويتناقشون .. ولكنه لا يسمع فى مناقشاتهم شيئا مما كان هو يتناقش فيه .. ولا يسمع رأيا كآرائه .. إن الجيل الجديد لا يعيش قضية وطنية عامة كالقضايا التى كان يعيشها ولكنه يعيش قضية فردية تخص كل منهم .. قضية القرش .. كيف يصل إلى القرش ؟ .. ولكن .. من يدرى .. لعل الجيل الجديد يكتشف أن الفرد لا يستطيع أن يصل إلى القرش وحده .. إن القرش هو قمة القوة التى تقوم عليها الدولة .. إن القرش هو القوة التى تعتمد عليها حرية الدولة .. وهو الذى يقيم الجيش الذى يحمى الحرية .. وهو الذى يحقق الحضارة التى سبق أن بنت الأهرام لتبنى أهراما جديدة .. لذلك فالقرش لا يمكن أن يكون هدفا فرديا .. إنه هدف عام يجمع الشعب كله فى طريق واحد للبحث عنه .. إن القرش هو الحياة .. ولا يمكن أن تكون الحياة حرة إلا إذا كان القرش حرا .. ولا يمكن أن تكون الحياة نظيفة إلا إذا كان القرش نظيفا .. ولا يمكن أن تكون للحياة مبادئ إلا إذا كان للقرش مبادئ .. ولا يدرى متى يكتشف الجيل الجديد طريق مستقبل الحياة .. أى مستقبل القرش ؟ ..

وابتسم منير ابتسامة ساخرة .. لقد أخطأ بترديد رمز القرش تعبيرا عن رأيه .. لقد اختفى القرش .. وكان يجب أن يردد رمز الجنيه .. فإن الجنيه لم يختف بعد .. ومسح على جبينه بكفه كأنه يزيح عنه هذه الآراء وعاد يطلق عينيه ليعيش الماضى بين فروع الشجر العجوز ..

(تمت)

« سهر الليل « ليلاس «
www.liilas.com

الأستاذ احسان عبد القدوس

(١ ، ٢) صانع الحب وبائع الحب
(٣) انا حرة
(٤) الطريق المسدود
(٥) اين عمرى
(٦) النظارة السوداء
(٧) فى بيتنا رجل
(٨) لا انام
(٩) منتهى الحب
لا تطفىء الشمس (جزء اول)
(١٠) لا تطفىء الشمس (جزء ثان)
(١١) شىء فى صدرى
(١٢) زوجة احمد
(١٣) البنات والصيف
(١٤) لا شىء يهم
(١٥) انف وثلاث عيون (جزء أول)
انف وثلاث عيون (جزء ثان)
(١٦) شفتاه
(١٧) لا ٠٠ ليس جسدك
(١٨) عقلى وقلبى
(١٩) بئر الحرمان
(٢٠) علبة من صفيح
(٢١) ثقوب فى الثوب الاسود
(٢٢) بنت السلطان
(٢٣) سيدة فى خدمتك
(٢٤) نساء لهن اسنان بيضاء
(٢٥) لا استطيع ان افكر وانا ارقص
(٢٦) الوسادة الخالية
(٢٧) دمى ودموعى وابتسامتى
(٢٨) الراقصة والسياسى
(٢٩) حتى لا يطير الدخان
(٣٠) العذراء والشعر الابيض
(٣١) ونسيت انى امرأة
(٣٢) الهزيمة كان اسمها فاطمة
(٣٣) لا تتركونى هنا وحدى

رقم الايداع ٣٦٥١ / ٨٤